سطور منسية في تاريخ الحجاز

سطور منسية في تاريخ الحجاز

الحياة الاجتماعية في الحجاز
قبيل ظهور الإسلام

((القرن السادس))

أ.د شكران خربوطلي

(سطور منسية في تاريخ الحجاز /الحياة الاجتماعية في الحجاز قبيل ظهور الإسلام)ـ القرن السادس

تأليف: أ.د : شكران خربوطلي.

سنة الطباعة: 2011.

عدد النسخ:1000 نسخة.

الإخراج الفني: زيد طحطح.

تصميم الغلاف: فيصل حفيان.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة و النشر و التوزيع

جميع الحقوق محفوظة

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق ـ سوريا

هاتف: 5627060 ـ **فاكس:**5632860

ص.ب:جرمانا/259/

www.darrislan.com

المقدمة

حين فكرت بمتابعة دراستي وتحصيلي العلمي في قسم الدراسات العليا بجامعة دمشق، كان الذي يشغل تفكيري دائما هوالموضوع الذي سيكون مجال بحثي.

هذا الهاجس الذي يشغل فكر كل طالب علم وهويبدأ بأول خطوة في مشوار لا نهاية له. فالعلم هوالبحر الذي لا ينضب معينه.الأمر الوحيد الذي كان مستقراً في فكري هوأن يكون بحثي في مجال تاريخ العصر الجاهلي،لان هذه الحقبة مرحلة أساسية وهامة في تاريخ العرب، وتطورهم الصاعد، فقد شكلت بداية حركة التاريخ التي تكونت فيها الأصول التاريخية للأشكال التي عبر بها سكان الجزيرة العربية عن تصوراتهم لظاهرات الكون والطبيعة، وعن علاقاتهم الاجتماعية، وأوضاع حياتهم وبالوقت نفسه تطلع المؤرخ أوالباحث في كتابة تاريخ العرب العام على إنجازات أهل الجاهلية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي مهدت لتطور العرب اللاحق.

وقد تهيب بعض الباحثين الخوض في حقبة الجاهلية[1] لبعد غورها ووعورة مسالكها و ضآلة الأضواء الكاشفة المسلطة على بعض جوانبها المعتمة نتيجة قلة الآثار والمصادر ولعرقلة الصحارى لجهود علماء الآثار والباحثين.

ففترة الجاهلية " اضعف قسم كتبه المؤرخون العرب في تاريخ العرب يعوزه التحقيق والتدقيق والغربلة. وأكثر ما ذكروه أن تاريخ هذه الحقبة هوأساطير، وقصص شعبي، وأخبار أخذت عن أهل الكتاب ولا سيما اليهود، وأشياء وضعها الوضاعون في الاسلام لمآرب اقتضتها العواطف والمؤثرات الخاصة"[2] وظل الناس يتداولون هذه الأخبار على أنها تاريخ الجاهلية حتى انتهت إلى المستشرقين،فتناولوها

---

[1] زيدان: العرب قبل الاسلام ص8

[2] جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 42

بالنقد استنادا إلى طرق البحث ومناهجه الحديثة، وتفتحت بذلك آفاق واسعة في عالم التاريخ الجاهلي لم تكن معروفة[3].وقد دفعني هذا النقص إلى توجيه عنايتي لدراسة هذا التاريخ، وتعددت المواضيع أمامي،فأبحرت وألقيت مرساتي على شاطئ الحجاز، لأدرس الحياة الاجتماعية فيه قبل الاسلام (القرن السادس)؛ باعتباره منطلقا للدعوة الإسلامية. ومقرا للدولة العربية الإسلامية في عقودها الأولى،وحيث سيكون لهاتين الخاصتين أثر كبير على مجرى التطورات السياسية الهامة ليس في الحجازفحسب ولكن في الأمصار خلال القرن الهجري الأول.

وتجولت على أرضه البكر جامعة كل معلومة قيلت عن هذه الفترة، لأخرج بدراسة متواضعة أوبمحاولة لتناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل لأتعرف على العلاقات التي كانت قائمة بين أفراد المجتمع في كل مظاهر حياتهم اليومية ،ولأتطلع على ما انبثق عن هذه العلاقات من مؤسسات مختلفة وعند مبلغ علمي أنه لم يسبق أن بحث هذا الموضوع بشكل واف ومستقل، فكل ما كتب فيه، أوقيل عنه مقدمات، ومقالات متناثرة هنا وهناك في بطون الكتب، بل إن هذا الموضوع في العصر الجاهلي من الوجهة التاريخية مازال يكتنفه غموض واضطراب، ولم يأخذ حقه الكافي من البحث والدراسة كبقية الموضوعات، فجميع من كتب لم يتعرض للحياة العامة، ولم يدرس أحوال المجتمعات، وليس هذا بعجب. إذ كان منزع المؤرخين جميعا العناية بالملوك والقادة، والوقائع والثورات والفتوح ولا يكادون يحفلون بالجماعات والعادات والأخلاق والنظم0 فمن البديهي إننا لا نظفر ببحث عن الحياة الاجتماعية أفرده أي من المؤرخين، وبذلك حرمت هذه الناحية من البحث الدقيق واكتفى بعضهم بالإشارة إلى ذلك .

ولعل مشروع بحثي هذا يكون خطوة البداية على طريق أتمنى أن يتابعه كل من يهمه هذا الميدان.

ماضي الامة هوالجذور الثابتة، وشجرة بلا جذور لا تقاوم تحديات الطبيعة فكيف ننسلخ عن ماضينا الذي يعني استمرار وجودنا ؟ وكيف نتجاهله ونحن جزء

---

[3] علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 42 0

منه ؟ والعالم كله منذهل أمام إشراقه، ولم يتطور إلا من عطاءاته، فماضينا هوتراثنا ، والامة التي تطرح تراثها هي كمن ينتحر سواء بسواء، ذلك لان التراث هوروح سارية في كيان الامة عبر العصور والأجيال، انه الثوابت التي تميز ملامح الامة عن سواها.

إن الاهتمام بالماضي لايعني العودة إلى عصوره ولا إلى نظم تلك العصور، بل إن هذه العودة هي إحدى المستحيلات ولا يعني أيضا مجال الفخر العنتري به، بل كل ما يعنيه التزود من النبع لمواصلة السير إلى الأمام بحيث يصبح زادا صالحا وضروريا لشحن وجدان الامة بالكبرياء المشروعة التي تعين الأجيال الحاضرة على مواجهة ما يعترض حياتها من تحديات.

أن النهضة التي يعيشها الغرب اليوم هي نتاج وعي وعودة أممه لماضيها وتراثها وعودتها هذه كانت عن طريقنا ، فأجدادنا هم الذين حفظوا تراث الأمم وطوروه وأضافوا الجديد، وقدموا للعالم حضارة لا يستطيع إلا أن يعترف بفضلها.

سلكت السبيل إلى غايتي منقبة في أشتات المصادر والمراجع وكتب الاجتماع والأدب والشعر، وأمهات معاجم اللغة وغير ذلك.. وقد كان نهجي أن أقدم الحادث،وأتعرف على النواحي الاجتماعية المتعلقة به لأقدم تفسيرا لذلك حين أجد إلى ذلك سبيلاً، إيمانا مني بأن التاريخ ليس سلسلة من الأحداث يأخذ بعضها برقاب بعض دونما مسوغ اومسبب ولا ينظمها ناظم.

فكم من كتب سكبت نور عيني على صفحاتها لأجتني منها ثمرة لا تكافئ بعض ما بذلت، وكم من كتب عبرتها من المنبع إلى المصب أجوس خلالها وأجوب مابين ضفافها في يقظة ولم يعلق منها بشباكي صيد.

لكن المشقات التي كانت تعترضني في الإعداد، والصعوبات التي احتملتها في التنقيب، كل هذه لا مندوحة عنها لمن يتصدى للبحث، فيصبر ويغالب، ويدأب ويثابر ليخط في سجل المعرفة سطرا يلبي به رغبة، أويقضي به حقا، أوينال به ذكرا. وان كان في هذا البحث عيب اونقص فأنا مسؤولة عنه رغم أن ذلك يعود إلى أن المصادر والمراجع لم توجهني إليه، انه جهد لم يبلغ مداه والله من وراء القصد.

وقد قسمت بحثي إلى مقدمة تتضمن أسباب تهيب بعض الباحثين الخوض في حقبة الجاهلية مع أهمية هذه الحقبة، وأسباب اختيار الموضوع والصعوبات التي عانيتها أثناء جمع المواد والإعداد.

اتبعتها بدراسةٍ لفصول البحث وهي تتألف من خمسة فصول:

الفصل الأول: الحجاز

ظلَ الحجاز كمصطلح جغرافي غير ثابت الحدود فترةً من الزمن إلى أن أخذ ملامحه المستقلة لدى الجغرافيين العرب وأصبح التعريفُ المبدئي له بأنه الجبالُ الحاجرةُ بين الأرض العالية نجد وبين الساحل الواطئ تهامة[4]

يبلغُ طولهُ من الشمال إلى الجنوب حوالي 700 ميل وعرضهُ من الشرق إلى الغرب 250 ميل[5]، متفاوتُ الارتفاع تخترقه أودية قلّما يجري الماءُ بها ولها اتجاهان أحدهُما نحوَ البحرِ الأحمرِ والثاني نحوَ نجدٍ.

امطارُه شَتَوية قليلةٌ، وأن هطلت شكلت سيولاً خطيرةً[6]، وقد انعكس هذا الوضع التضاريسي بشكلٍ طبيعي على حياةِ السكانِ الاجتماعية والسياسية والاقتصاديةِ، فسمحتْ بقيام مجتمعٍ زراعي بالطائف[7] معوضةً الحرمانَ الذي عانته مكة فهي في وادِ غير ذي زرع[8]، وحولّتها إلى حاضرة تجارية بينما اعتمدت يثرب على عدةِ مصادر في طليعتها الزراعة وبعض الحرف الصناعية[9].

وصار الانتاج اجتماعياً بضاعياً أي للمبادلةِ وليس لسدِ الحاجاتِ الضرورية. ونشأت الأسواق وتزامنت مع موسم الحج فتعددَتْ فيها الأغراضُ وظهرتْ المُلكيةُ الخاصة وانقسمْ المجتمع إلى أحرارٍ وعبيد وفئات متمايزةٍ عن بعضها في الثروة

---

[4] ياقوت: معجم البلدان مادة الحجاز. البغدادي السويدي سبائك الذهب ص 16.

[5] وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين ط3 ص 14.

[6] الازرقي: أخبار مكة ج2 ص 166ـ 167. الفاسي: شفاء الغرام ج2 ص 560.

[7] الحموي: معجم البلدان مادة طائف.

[8] سورة ابراهيم: الآية 37

[9] بيضون: الحجاز والدولة الاسلامية ص 34.

والحقوقِ وتضامنتْ الفئاتُ مع بعضها على أساس المصلحةِ الاقتصادية المشتركة لا على أساس صلة الدم والنسب.

الفصل الثاني: القبيلة:

قام التنظيم الاجتماعي لدى البدو والحضر على نظام القبيلة . وقد استُعملت كلمةُ قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع في العصر الجاهلي غلب على الأقسام الأخرى، فهناك ما هو أصغر وهناك ما هو أكبرُ وهي بالترتيب[10]

الجذم ـ الجماهير ـ الشعوب ـ القبائل ـ العمائر ـ البطون ـ الافخاذ ـ العشائر ـ الفصائل ـ الأرهاط.

وقد ظهر النظام القبلي متأخراً عندما اضطرت العشائر إلى أن تزدلف بعضها إلى بعض لضرورة حربية أو لأغراض اقتصادية، وفي بعض الأحيان كان يفضي الزحام أو الصدامُ إلى انضمام شراذم أخرى غريبةٍ إلى القبيلة، ثم تصبح هذه الشراذم من جسم القبيلة[11]. ولعلهم لم يحددوا الشروط في الحد الأدنى أو الحد الأكبر للقبيلة وذلك من ناحية عدد العشائر والبطون والأفخاذ.

أطلقوا على كل قبيلة لقباً أشار إلى صفةٍ لها تميزها عن غيرها من القبائل كالأرحى والجمرة والجمجمة والأثافي والرضفات وسميتْ بعض القبائل باسم المكان الذي أقامت به أو العمل الذي قامت به فذهب هذا سمة لها. مما يدلُ على أنهُ ارتبط ظهورُ هذه القبائل بعواملَ متعددةٍ بيئية ديموغرافيةٍ سياسية اقتصادية.

والجدير بالذكر أن كلَ قبيلةٍ ضمت إليها عناصرَ متعددةً وفئاتٍ مختلفةً فأبناؤها الصرحاءُ هم الفئة الممتازة التي لها الصَدارةُ في القبيلة والمركز المرموقُ ثم المَوالي والرقيق والمستلحَقون والآدعياء ـ والخلعاء والصعاليك أضفْ إلى ذلك ارتباط البعض بالقبيلة برابطة الحلف والجوار والمؤاخاة.

---

[10] النويري: نهاية الأرب ج2 ص 277 وما بعد، جمعة : النظم الاجتماعية ص 9.

[11] حداد: حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها ص 257.

ومن خلال دراسة هؤلاء وأوضاعهم اتضح أن المكانة الاجتماعية للفرد تتعلق بنسبة أضف إلى ذلك ثراءه المادي، وتبينَ أيضاً أن محور القرابة عند العرب في عصر ما قبل الاسلام كانت قائقة على الأدعاء فالولد نفسه لا يلحق بأبيه إلا إذا رضي أن يلتحق به. ولم يكن رضاه هذا ملزماً به إلى الأبد بل يحق له أن يخرج من يشاء من أفراد أسرته ممن سبق له الاعتراف بهم فيصبح هذا غريباً عن القبيلة لأن نظام القبيلة سارَ آنذاك على مجرد اصطلاحات اجتماعية لا وفقاً لما تمليه الغرائزُ أو تُوحي به الميولُ الفطريةُ أو تحددُه صلة الدم.

الفصل الثالث: عادات وأعراف قبلية.

الأعرافُ عبارةُ عن قوانينَ ناظمةٍ للأوضاع القبليةِ، ودعامةٍ للحياةِ السياسية، وأساس الحياة الاقتصادية، وقد كان للبيئة الطبيعية والظروف التي أحاطتْ بالقبائل العربية اثرٌ في خلقها، فباعتبار أن البيئةَ التي عاشوا فيها قاسيةٌ فقد كانَ الكرمُ عندهم لا يقف عند حدٍ، وهو انعكاسٌ لشدةِ الجوعِ الذي عانى منه المجتمعُ. وكانت الشجاعةُ تطبيقاً لحاجات الوسطِ الطبيعيةِ والاجتماعيةِ وركناً من أركانها.

ومما كانَ يرفعُ من القدر، ويزيدُ من المكانةِ والشرفِ العفةُ والوفاءُ بالعهدِ. فكل ذلكَ من شروطِ السيادة.

آضفْ إلى ذلكَ نشوءُ قانونٍ عُرفيٍّ بينَ أفرادِ القبيلةِ ينحصرُ في كلمةِ العصبيةِ وهي تَعنيْ أن يدعّو الرجلُ إلى نَصْرةِ عُصبتهِ، والوقوف إلى جانبهم ظالمينَ كانوا أو مظلومين[12].

والجدير بالذكر أنه بتطور القوى المنتجةِ، وتلاشي المُلكية الجماعيةِ وظهورِ المُلكيةِ الخاصةِ تفسخَتْ العصبيةَ إلى عصبياتٍ وبدَتْ بمظاهرَ متعددةٍ أثرتْ في عدَمِ الاستقرارِ وانقسام المجتمعِ إلى كياناتٍ صغيرةٍ.

---

[12] الميداني: مجمع الأمثال ج2 ص 334

الفصل الرابع: الأسرة.

تضمن هذا الفصل البحث عن نشأة الأسرة وأنواعِ الزواجِ التي عرفها المجتمع الحجازي قبلَ الاسلام، وهي تتلخصُ في قولِ عائشة رضي الله عنها فقد حدثَ البخاري عنها قولَها:

(كان النكاحُ في الجاهلية على أربعة أنحاءٍ فنكاحٌ منها نكاحُ الناس اليومَ، يخطبُ الرجلُ إلى الرجل وليته أو ابنتَه فيَصْدقُها ثم ينكحها، ونكاحٌ أخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرتْ من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه. ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها، فإذا تبين أصابها إذا أحب وإنما يفعل ذلك طمعاً بنجابةِ الولد، ويسمى هذا النكاح الاستبضاع، ونكاحٌ آخر يجتمع الرهط مادون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرَّ عليها عدةُ ليالٍ، أرسلت إليهم فلا يستطيع رجلٌ منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم ما كان من أمركم. وقد ولدتُ فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبَتْ باسمه فيلحق به ولدهُا، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجلُ ونكاحٌ رابعٌ يجتمعُ ناسٌ كثيرٌ فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا ينصبنَ على أبوابهن راياتٍ تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن . فإذا حملتْ أحدهن ووضعت جمعوا لها القافة[13] ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به أي (التصق) ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بعُث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدمَ نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم[14].

ولعلهم جمعوا بين الأختين وتزوجوا امرأة الأب، ولم يحددوا سناً معيناً للزواج. ومثلما كان الزواج عندهم سهلاً يسيراً فالطلاقُ أسهلُ وعلى أنواع: كالطلاقُ ثلاثاً على التفرقة، و الخلعِ والظهار والإيلاء.

والجدير بالذكر أنهم رغبوا في الحمل والولادة واهتموا بالارضاعِ وسَموا أولادهَم بأسماء تعكس الحالة الطبيعية التي كانوا يعيشون فيها فاختلفت أسماء سكان

---

(13) القافة: جمع قائف الذي يعرف الأثر. ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه لسان العرب مادة قوف.

(14) صحيح البخاري. ج5 ص 1967

الحواضر عن أسماءِ سكان البوادي. وكانوا يؤثرون البنين على البنات ولا يورّثونهن ويخصون بذلك المقاتلة دون الذرية[15]. إى أن ذلك لم يكن قاعدةً عامةً فالمرأةُ كانت ترثُ ولكن بالمقابل كانوا يحرمونَها حقها في الأرث بغياً وعدواناً.

الفصل الخامس ـ المناسبات

احتوت المناسبات فقرتين الأولى عن الأفراح والثانية عن الأحزان. اشتملت الأفراح على الحج حيث كان يجتمع الناس من كل حدب وصوب معبرين عن فرحتهم باللقاء الديني الاجتماعي فيؤدون الشعائر الدينية التي تتلخص بتنظيم البيت والطواف حوله والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وإهداء البدن والإهلال بالحج والعمرة.

ولعلهم ربطوا موعد إقامة الأسواق مع موسم الحج. وقد تعددت الأغراض فيها. بحيث كان فرصة لالتقاء الناس لفض منازعاتهم القبلية من دفع ديات، وفك اسر، وعقد حلف وجوار، أوخلع سفيه أو ثأر قاتل... فكان لانعقادها وجه اجتماعي ووجه أدبي ووجه اقتصادي وقد أثرت سوق عكاظ ومجنة وذوالمجاز وغيرها تأثيرا بعيدا في جميع الميادين، وكانت أساسا لاقامة علاقات إنسانية تحفظ حقوق الإنسان في إطار حياة القرن السادس الميلادي، وكانت تدور حول إصلاح المجتمع وباعتبار انهم أقاموا مقاما للشعر فقد احتفلوا بنبوغ شاعر في القبيلة وأولموا الولائم. واجتمعت النساء يلعبن بالمزهر تعبيرا عن فرحهن[16]. ولم يكتفوا بذلك فكانت أيام مسراتهم وأفراحهم بعودة أحدهم من السفر. وبشفاء واحد منهم من مرض، وكانوا أثناء فرحهم يشربون الخمر لأنهم اعتبروا أن الخمر من متع الحياة، وتفننوا بشربها. واستعملوا الأواني الذهبية في ذلك لتمييز الفئات الغنية عن الفقيرة.

---

[15] جامع الأصول ج4 ص 275، علي: المفصل ج5 ص 562، دروزة: عصر النبي وبيئته قبل البعثة ص277ـ278.

[16] ابن رشيق: العمدة ج1 ص 37 ، الالوسي: بلوغ الأرب ج 3 ص 84 ، شريف مكة والمدينة. ص 26 ، حسن: حضارة ص 159 ،علي:المفصل ج 9 ص 110 ـ 111 .

ولقد شغل الحزن دورا كبيرا في الحياة. وكان الموت بنظرهم مفارقة الروح للجسد لسبب من الأسباب التي تؤول إلى هلاكه ويكون الإعلان عن موت شخص بالبكاء والنعي، ويتوقف هذا على قدر منزلة المتوفى ومكانة أهله الاجتماعية، وتضمنت الخاتمة ذكر لأبرز النقاط الأساسية في البحث.

دراسة المصادر والمراجع:

مصادر تاريخ الجاهلية العربية عديدة منها مؤلفات تتعلق بالشريعة الإسلامية، وهي تعد من المصادر الأساسية في عصر الجاهلية، ومؤلفات تتعلق بالأنساب، وأخرى بالأخبار والسير، وبعضها الآخر بالمعارف، وبعضها يتعلق بالشعر والشعراء، وكتب تبحث باللغة والمعاجم وكتب تتعلق بالجغرافية.

أولاً: كتب الشريعة الإسلامية: **1ـ القرآن الكريم:**

مصدر تاريخي هام، وأقدم الموارد العربية المدونة لتاريخ العرب في الجاهلية، ولفترتها الأخيرة بخاصة، وهوأصدق المصادر المدونة على الإطلاق،لأنه تنزيل من الله تعالى لاسبيل إلى الشك في صحة نصه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[17]. فهويصور لنا أحوال الحياة الجاهلية، ويتحدث لنا عن تفكير أهل الحجاز عند ظهور الإسلام. وردت فيه آيات تشير إلى نشاط العرب التجاري، ورحلاتهم التجارية وآيات تكشف عن التفاوت الاقتصادي والتمايز الاجتماعي، وبعض أشكال استثمار المرابين والأغنياء للفقراء والمستضعفين والإماء[18]. وانعكست فيه الظاهرات الدينية على نحوما انعكست فيه سائر ظاهرات المجتمع العربي الجاهلي كظاهرة الوثنية

---

[17] حسين: في الأدب الجاهلي ص 68، فروخ: تاريخ الجاهلية ص 16.

[18] سورة المنافقون الآية 8، سورة هود: الآية 27، سورة المؤمنون: الآية 24 -48، سورة الشعراء: الآية 34 – 111، سورة المائدة: الآية 57، سورة النور: الآية 33.

وعبادة الأصنام، وظاهرة اليهودية والنصرانية والحنفية وغيرها من الظاهرات والعقائد الدينية[19].

2- كتب التفسير:

وتعد ثروة تاريخية قيمة، تشرح بصورة مفصلة ما جاء مقتضبا في القرآن الكريم عن بعض الأحداث ومظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الجاهلية وعهد النبوة. ومن أشهر كتب التفسير: (تفسير الطبري (ت 310 هـ) المعروف باسم (جامع البيان عن تأويل أي القرآن) وهوتفسير تاريخي يحاول أن يفسر الآيات بذكر الأحوال التاريخية و الاجتماعية التي رافقت نزولها، ولاغرو فالطبري في الأصل موءرخ. ثم إن الطبري يستعرض جميع الروايات الواردة في تفسير الآيات، روايات الحديث الشريف وروايات التاريخ وروايات الأدب، بعدئذ يفاضل بين تلك الروايات ويرجح ما يراه في نظره أقرب إلى الواقع مما لا يعارض نص الآيات، والطبري يسلك في التفسير مسلكا سلفيا فهوفقيه من أصحاب المذاهب الفقهية التي بادت فهولذلك اقرب إلى ماتقره الرواية الصحيحة والواقع التاريخي[20].

ومن كتب التفسير التي عدت إليها أيضا تفسير ابن كثير الدمشقي (ت774هـ) وهويقارب تفسير الطبري إن لم يكن يفوقه في بعض المسائل.

3- الحديث الشريف:

وهوأصدق وأهم المصادر بعد القرآن الكريم، يتضمن أحكاما وقوانين للمجتمع الإسلامي المتطور ويتحدث عن جوانب عديدة من أحوال أهل الجاهلية، وحياتهم وخاصة في الفترة المتصلة بظهور الاسلام ليست موجودة في مورد آخر[21].

---

[19] سورة النمل: الآية 24، سورة فصلت: الآية 37، سورة النجم: الآية 19 – 49، سورة نوح: الآية 21-23، سورة البروج: الآية 4-9، سورة الجاثية: الآية 24، سورة الحج: الآية 17، سورة البقرة لآية 135، سورة آل عمران: الآية 67– 95، سورة النساء: الآية 125، سورة الأنعام: الآية 79، سورة يونس: الآية 105، سورة النحل: الآية 120 .

[20] فروخ: تاريخ الجاهلية ص 17

[21] علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج1 ص 67

تناولت كتب الحديث الحياة التي كانت جارية في ذلك الوقت وعرضت لكل ما كان قائما من نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فأقرت بما رأته صالحا، وعدلت ما لزمه التعديل، ونهت عما رأته ضارا أوفاحشا في حياة الناس.

من أشهر كتب الحديث التي عدت اليها (الجامع الصحيح للبخاري وشروحه ت 257) و(صحيح مسلم ت 262 هـ) و(النهاية في غريب الحديث لابن الأثير المبارك بن محمد .... أبو السعادات مجد الدين ت 606 هـ)[22].

ثانياً: كتب الأخبار والسير

دفع اهتمام المسلمين بأقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله للاهتداء بها والاعتماد عليها في التشريع الإسلامي[23]. وفي النظم الإدارية المؤرخين الأول إلى الكتابة في سيرة الرسول وفي مغازيه ومغازي الصحابة[24]، وقد تعرضت كتب السيرة والمغازي لأخبار الجاهلية القريبة من الاسلام أوالمتصلة بحياة النبي (صلى الله عليه وسلم)،لذلك تعد من المصادر الهامة لتاريخ العرب قبل الاسلام، وأشهر كتب الأخبار والسير سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) لأبى محمد عبد الملك بن هشام الحميري (ت 218 هـ)[25]. وهوكتاب يؤرخ لسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم)، وللعرب قبل الاسلام وقد اعتمد ابن هشام في سيرته على كتاب السيرة النبوية لأبي عبد الله محمد بن إسحاق (ت 151 هـ). تضمن كتاب السيرة لابن هشام معلومات عن أخبار الجاهلية تناولت نسب العرب الإسماعيلية. وشيئا عن الغساسنة والمناذرة، وتاريخ اليمن... وشذرا عن ولد نزار ومضر، وقصة عمروبن لحي وأصنام العرب وأخبار عن أوابد هم وعاداتهم وأحلافهم وحروبهم، وبضعة فصول في عرب الحجاز،

---

(22) الزركلي: الأعلام ج 6 ص 152

(23) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص 19ـ 20.

(24) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، 0 ص 19 – 20.

(25) ابن هشام: السيرة النبوية. ص 22

وتاريخ مكة إلى بيت عبد المطلب بن هاشم، فظهور النبي والإسلام، وتابع حديثه عن الرسول بعد الاسلام واصلاً ذلك إلى وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)0

الروض الأنف: للسهيلي (أبوالقاسم بن عبد الله بن أحمد بن أبى حسن الخثعمي. ت 518 هـ). يدخل هذا الكتاب في إطار السيرة فقد ذكر فيه نسب الرسول وجده عبد المطلب، وحفر بئر زمزم 0 وقصي بن كلاب ونشأته وانتقاله إلى مكة، وتأليف قبيلة قريش، وتنظيم مكة وبنائه دار الندوة، ثم ذكر الأحلاف وبكل ذلك صور لنا واقع حياة العرب، لكنه سلط الأضواء على قبيلة قريش ذاكرا كل ما يتعلق بها.

ثالثاً: كتب الشعر والشعراء

الشعر الجاهلي من أهم مصادر المعرفة عن حياة العرب في جاهليتهم، وهويعبر عن عبقرية العرب، ومقدرتهم اللغوية وفصاحتهم التي فاخروا بها بقية الشعوب، والشعر ديوان العرب[26] والدليل على أحاديثها وأفعالها. والحاكم بينهم في الجاهلية، والشاعر جزء من المجتمع بكل ظروفه وتفاعلاته. وقد حفظت لنا الأشعار القديمة صورا عن حياة العرب في الجاهلية في الجد واللهو، والحب والبغض، وفي أيام الخصب والرخاء وأيام القحط والبؤس. وفي أيام السلم والحرب وفي الزهد والتدين والترف والفجور فهومرآة عكست صور حياتهم بكل تفاصيلها[27]. لقد أفاد الشعر الجاهلي الصحيح منه والمنحول، المؤرخ الباحث في تاريخ الجاهلية فائدة ثمينة كمادة حية لها ارتباطها الواقعي الموضوعي بالواقع الاجتماعي العربي.

من دواوين الشعر التي أفادت البحث ديوان امرؤ القيس، ديوان طرفة بن العبد، ديوان المثقب العبدي، ديوان عمروبن كلثوم، وديوان النابغة الذبياني وديوان حاتم الطائي وديوان زهير بن أبي سلمى، وديوان الخنساء وديوان عنترة..........الخ

ومن أهم كتب الشعر التي أفادت البحث:

---

(26) **الاصبهاني: الأغاني ج 1 ص 11، ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده ج 1 ص 11، أمين: فجر الاسلام ص 57.**

(27) **أمين فجر الاسلام ص 57، سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص 40.**

- **المفضليات**: (للمفضل بن محمد بن يعلي الضبي ت 178 هـ)

لعله أقدم مجموعة شعرية وصلت إلينا مما صنف في القرن الثاني الهجري، ولها منزلة كبيرة في الأدب العربي لميزاتها التي فيها وهي:

أنها لا تضم من الأشعار إلا ما كان قديما، فهي تحتوي على 130 قصيدة لستة وستين شاعرا، عاشوا وماتوا في الجاهلية ليس بينهم إلا عدد قليل من المخضرمين والإسلاميين الأوليين، وقد أثبتت هذه القصائد بتمامها، ولم يعمد المفضل إلى الاختيار والتفاضل بين أبيات القصيدة الواحدة، ومن ميزاتها أيضا أن مصنفها كان أبدا موضع الاحترام، فلم يطعن عليه أحد من معاصريه اوممن جاء بعده في أمانته وصدقه، وفي هذه المجموعة صورة لشعر العربي القديم وهي اقرب إلى الصحة والكمال.

عرفتنا القصائد المتعددة على العادات والتقاليد التي كانت متبعة آنذاك كعادة الثأر مثلا، والفخر بالأنساب، إضافة إلى أنها أطلعتنا على الديار، ومساكن القبائل والأطلال فهي سجل تاريخي لما يدور بين القبائل.

الاصمعيات: (لأبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ت 216هـ)

وهي مجموعة قصائد يبلغ عددها اثنين وتسعين قصيدة بينها عدد من المقطوعات متممه للمفضليات من حيث تصوير واقع الشعر العربي القديم.

الشعر والشعراء: لابن قتيبة (أبومحمد عبد الله بن مسلم ت 276هـ)

جعل ابن قتيبة كتابه عبارة عن تراجم عادية لا تخضع لأي نوع من التصنيف.وإن كان يغلب عليها مراعاة الترتيب الزمني، وتقديم الجاهليين على المخضرمين على الإسلاميين، فهوكتاب تراجم شعراء، وليس كتاب طبقات إذ ترجم لكل شاعر بمفرده ذاكرا أخباره واشعاره، واقوال العلماء فيه، وأحواله في أشعاره وقبيلته، واسماء آبائه وما يستجاد في شعره، وما أخذه العلماء عليه من الغلط والخطأ في ألفاظه ومعانيه، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عليهم المتأخر ون، وأخبر فيه عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها وعلى بعض العادات والأعراف والمثل العربية وعلى دستور القبائل في العصبية والثأر وعلى الديار العربية والقبائل المتعددة.

رابعاً: كتب المعارف والأخبار

1 ـ أخبار مكة: للأزرقي (أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت 223 هـ)

" إن هذا الكتاب يشبه من بعض الوجوه كتاب ابن هشام في السيرة النبوية، وذلك باشتراك أشخاص عديدين في تأليفه بيد أنه لا يشبهه من جهة كونه مختصراً من مجموعات كبيرة، بل بالعكس قد كان صغير الحجم ثم زيد عليه علاوات كثيرة وضم إليه مواد عديدة أدت إلى اتساعه[28] والحقيقة التي لا ريب فيها إن واضع الكتاب أخبار مكة اوبعبارة صريحة جامعة ومرتبه ومؤلفه هومحمد بن عبد اللّه الازرقي رواية عن جده احمد بن محمد الأزرقي وغيره من الرجال المعروفين. وكانت روايته عن جده اكثر من روايته عن غيره مما يدعونا للقول بان المؤلف الأصلي للكتاب هوجده. وقد اختط الازرقي لنفسه خطة سهلة سلسة في تدوين كتابه هذا، وقسمه إلى بحوث وفصول مبوبة، وتوخى الإفاضة في ما يهم طلاب التاريخ والجغرافية والأدب، ويعد كتابه في طليعة المصادر القيمة التي لا يستغني عنها طالب العلم.

يتحدث الكتاب عن الكعبة والبيت الحرام، وإسكان إسماعيل بن إبراهيم وأمه هاجر، وولاية خزاعة الكعبة، وولاية قصي بن كلاب البيت الحرام[29] وانتشار ولد إسماعيل وعبادتهم الحجارة ونصب الأصنام[30]، وحج أهل الجاهلية وانساء الشهور وتواريخهم ويتحدث عن حفر عبد المطلب بن هاشم لزمزم[31] وذكر أسماء أماكن كثيرة في مكة، وسيولها في الجاهلية والاسلام وأسماء بعض المساجد وصفاتها والآبار والعيون، وعرفنا على القبائل المتعددة التي سكنت مكة من خلال حديثه عن كل ذلك. وألحق الكتاب بملاحق خمسة تتحدث عن المسجد الحرام وعمارته وقبابه وحدوده والتوسعة التي أجريت عليه.

---

(28) الازرقي: أخبار مكة ج1 ص 15

(29) الازرقي: أخبار مكة ج 1 ص 103

(30) الازرقي: أخبار مكة ج 1 ص 117

(31) الازرقي: أخبار مكة ج 2 ص 42

2 ـ المحبر: لابن حبيب (أبوجعفر محمد ت 245 هـ)

مؤلف هذا الكتاب كان عالما بالأنساب وأخبار العرب واللغة والشعر والأدب، لذلك جاء كتابه معبرا عن ثقافته الموسوعية ويظهر ذلك في تنوع المواضيع التي حواها.. فقد حدثنا عن أخبار العرب في الجاهلية، قبائلهم وأنسابهم، فئاتهم وأحلافهم، ووصف لنا ملوكهم وحكامهم وأجوادهم ودهاتهم،ومواسمهم وأسواقهم وأديانهم وأصنامهم.

كما اورد لنا أخبارا خاصة بقبيلة قريش قل أن نجدها في مصادر أخرى ذكر لنا أشرافها واصحاب الايلاف منها، وذكر زنا دقتها وفضلاءها، النساة منها والندماء، قبائل قريش البطاح وقريش الظواهر، كما توسع اكثر وحدثنا عن الاسلام وخاصة النبوة،كما اورد لنا أخبارا عن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، وحوى بين طيا ته أيضا أخبارا متفرقة عن الأنبياء. ولم ينس ذكر المرأة فحدثنا عن أخبارها في الجاهلية والاسلام[32]. وكان يسوق معلوماته دون فصل بينها فاختلط بعضها ببعض إذ كان منهجه أن يسرد الموضوع ثم يدخل في غيره ثم يعود إليه فيختلط الأمر على القارئ ولكن ذلك لا يضعف من قيمته العلمية فهذا التنوع في المعلومات أغنى الكتاب بالمعارف الهامة.

3ـ الحيوان: للجاحظ (عمروبن بحر ت255 هـ)

يوهم هذا الكتاب من اسمه انه خصص للحيوان، ولكنه تناول طائفة من المعلومات الخاصة بالبلدان، وبعض قضايا التاريخ عند العرب في الجاهلية كتدوين المعاهدات والمحالفات[33]،ومراسم الأحلاف، ونار الحلف، وانهم كانوا يتحالفون على الملح والكبريت ويوقدون نارا خلف المسافر وشيئا من عاداتهم وتقاليدهم.

4ـ البيان والتبيين:

---

[32] ابن حبيب: المحبر: ص 402 ـ 403

[33] الجاحظ: الحيوان: ج1 ص 69.

من أشهر كتب البلاغة وأكبرها ، أرسل الجاحظ نفسه على سجيتها فيه ، فلم يتقيد بنظام محكم يرسمه ، ولم يلتزم نهجا مستقيما يحذوه ، ولذلك نراه يبدأ الكلام في قضية من القضايا ثم يدعها في أثناء ذلك ليدخل في قضية أخرى ، ثم يعود إلى ما أسلف من قبل ، وقد كانت هذه سبيل كثير من علماء دهره ، كما إن علوسنه وجده التأليف في تلك الأبحاث التي طرقها كل هؤلاء ، كان شفيعا له في الاسترسال والانطلاق. وكان الجاحظ يشعر بذلك ، ويعتذر عنه أحيانا ، فهويقول عند الكلام على البيان ((وكان في الحق ان يكون هذا الباب في أول الكتاب ولكنا أخرناه لبعض التدبير))[34]. كانت مباحث الكتاب وقضاياه في البيان والبلاغة والقواعد البلاغية والقول في مذهب الوسط ، وبالخطابة والشعر والأسجاع. ثم قدم نماذج من الوصايا والرسائل وطائفة من كلام النساك والقصاص وأخبارهم ثم عرض لبعض كلام الحمقى ونوادرهم ، وضروب من الاختيارات البلاغية.

5 ـ المعارف: لابن قتيبة (أبومحمد عبد الله بن مسلم ت 276هـ)

هوكتاب ثقافة رفيعة ، واحاطة بأسباب المعرفة على تعداد موضوعاتها في أخبار العرب وأنسابها وأديانها ، مستقاة من مختلف ينابيعها ، مختارة احسن الاختيار ، مبوبة أجمل التبويب تسوق الطرف والنوادر على نهج محبب شائق وهولا يلتزم الترتيب الهجائي في عرض موضوعاته ، إنما يتناول موضوعات واسعة يقسم كل منها إلى أقسام أصغر متخذا الوحدة الموضوعية أساسا بصرف النظر عن الترتيب الهجائي.استفاد ابن قتيبة في كتابه من مصادره مكتوبة وروايات شفوية وسلك سبيل انتقاء معلوماته التاريخية بعد نقد مصادره ، وكان من أوائل من رجع إلى العهد القديم ليأخذ منه مباشرة عن بدء الخليقة و عن تاريخ الأنبياء ، تتميز مادته التاريخية بالحياد والتأكيد على الحقائق[35].

6ـ تاريخ اليعقوبي:

---

[34] الجاحظ: البيان والتبين ج1 ص 76.

[35] الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ ص 54

لليعقوبي (احمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح العباسي ت 284هـ).هذا الكتاب موجز تاريخي منظم يتناول التاريخ العالمي منذ بدء الخليقة، فقد خصص القسم الأول من الكتاب لتاريخ ما قبل الاسلام مبتدئا بقصة التوراة، قام بتنظيمه على أساس التعاقب الزمني للشخصيات كالأنبياء والملوك.ثم وصف الأناجيل الأربعة وفيه يحل اليعقوبي التاريخ الثقافي محل التاريخ السياسي ثم يبحث في بعض المواضيع ككتب أر سطووأبقراط ودخول الشطرنج والشعراء الجاهليين ويرجع في ذلك إلى المصادر الأصلية.

7ـ تاريخ الرسل والملوك:

للطبري (محمد بن جرير، ت 310 هـ) يعتبر الطبري عمدة المؤرخين حتى عصره، وقد ألف كتاب الرسل والملوك واشتهر بذاكرته القوية، ودأبه الذي لا يكل في جمع الأخبار التي تتصل بالبشر منذ خلق آدم حتى عصره على ترتيب السنين سواء كان بالرواية الشفوية أومن كتب المتقدمين أمثال ابن إسحاق وأبي مخنف والواقدي والمدائني. ترجع قيمة الكتاب إلى انه قد استطاع أن يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال ونصوص الشعر والخطب والعهود ونسق بينها تنسيقا مناسبا وعرضها عرضا رائعا ناسبا كل رواية إلى صاحبها، وكل رأي إلى قائله، مبديا حيادا واضحا تجاه الروايات[36] ولم يمل مع أي هوى في إيراد الأخبار التاريخية وكان حياده في الغالب عن ورع ودقة علمية وقد أهمل عصره[37].

أضف إلى ذلك انه أودع كتابه فصولا صالحة ونتفا متنوعة من متون الكتب التي أتت عليها عوادي الأيام، وأورد من أقوال العلماء مالا نجده إلا في هذا الكتاب.

8 ـ العقد الفريد:

لابن عبد ربه (أبوعمر احمد بن محمد ت 327 هـ) وهوعبارة عن موسوعة أدبية علمية اجتماعية تاريخية ينقسم إلى خمسة وعشرين بابا يتناول كل منها موضوعا

---

[36] الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ ص 56

[37] مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ـ ج 1 ص 256

من المواضيع كالسلطان والحروب والنسب وتواريخ الخلفاء، وأيام العرب والمواعظ والتعازي والمراثي، وفضائل الشعر وعلل القوافي، والطبائع والنساء، والأطعمة، والاشربة والفكاهات والملح وغيرها. وفي كل باب من هذه الأبواب يختلط التاريخ بالأدب باللغة بالنحووالعروض، بالتقاليد والعادات الاجتماعيةوالظاهرة الهامة في هذا الكتاب حذف الإسناد طلبا للتخفيف وهربا من التطويل.

9ـ مروج الذهب:

للمسعودي (علي بن الحسن ت 346 هـ) تضمن الكتاب أخبارا عن الخلق ، وقصص الأنبياء، وأقوام العرب البائدة وذكر مكة وأخبارها والأقوام التي تغلبت عليها، ولمعا من اليمن وأنسابها وملوكها، وذكر ملوك الحيرة من اليمن وأخبارهم، وملوك الشام من الغساسنة وغيرهم، وما كان من أخبارهم، وأخبارا عن ديانات العرب وآرائها في الجاهلية وتفرقها في البلاد، وقصة أصحاب الفيل، وذكر بيت عبد المطلب، وأخبارا عما ذهب إليه العرب في النفوس والهام والصفر. وأقاويل العرب في التغول والغيلان، وما قاله غيرهم من الناس في ذلك، وأقاويل الناس في الهواتف والجان من العرب وغيرهم، وأخبارا عما ذهب إليه العرب من القيافة والعيافة والزجر والسانح والبارح وغير ذلك وذكر الكهانة وجملاً من أخبار الكهان وقصة سيل العرم، وما خلفه من آثار اقتصادية واجتماعية، وديموغرافية، وبحث في التقويم، وذكر أخبارا عن البيوت المعظمة، والهياكل المشرفة وبيوت النيران والأصنام، وعبادات الهند وذكر الكواكب[38] وغير ذلك من الأخبار. وقد انتهى من كتابه عام 332هـ وأعاد النظر فيه عام 245 هـ[39].

10ـ الأغاني:

للأصبهاني (أبي الفرج علي بن الحسين ت 356 هـ) وهومن أشهر كتب الأدب في القرن الرابع الهجري، وأحفلها بالمعارف فهوموسوعة أدبية قديمة تعتز بها مكتبتا العربية، غزيرة المادة، متنوعة الموضوعات، وهوأوسع مصدر نملكه في تراجم شعراء العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وقد كان غرض المؤلف الأول من كتابه إنما هوتثبيت أشهر أغاني عصره بكلماتها وألحانها، ومن هنا جاء العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه، ولكن ذلك لا يخفي حقيقة ما تنطوي عليه مادته من قيمة وفائدة خاصة في ميدان الأخبار والشعر، ففي هذا الكتاب ما يقرب من

---

(38) المسعودي: مروج الذهب، ج 1ص 38 وما بعد .

(39) المسعودي: مروج الذهب ج 1 ص1، نور الدين حاطوم: المدخل إلى التاريخ ص 298، على خلاف في تاريخ الانتهاء من كتابته فقد ذكر حاطوم انه انتهى من كتابته عام 330 هـ.

خمسمائة ترجمة لخمسمائة شاعر وشاعرة عاشوا في الجاهلية، وصدر الاسلام، والعصر العباسي الأول، وهذه التراجم غزيرة المادة تحتوي على قسط وافر من الأخبار. روى أبوالفرج أخباره مرفقة بالأسانيد المطولة ويشير إلى مصادره المكتوبة في كثير من الأحيان، وكل من يتصفح هذا الكتاب لا بد له أن يقدر الجهد الذي بذل في تصنيفة، ويقتنع بأن مؤلفه لم يكن يغالي كثيرا حين زعم أنه انفق خمسين عاما من حياته في جمع مادة كتابه، وأنه كتبه مرة واحدة في عمره وهي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار[40].

11 ـ الكامل في التاريخ:

لابن الأثير (أبي الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني ت 630 هـ). وهوالمؤرخ الذي تحرى الأخبار، ورتبها كالطبري مشيرا إلى تلخيصه للتاريخ الكبير للإمام أبي جعفر الطبري، وكيف عدله بالزيادة والنقصان إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب الرسول صلى الله عليه و سلم فانه لم يضف إلى ما نقله أبوجعفر شيئا[41].

رتب كتابه على نظام الحوليات، وبدأها بالكلام عن تاريخ البشرية منذ أول الخليقة إلى آخر سنة 628 هـ، وهويحتوي مادة قيمة لتاريخ الجاهلية والاسلام.

12ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة:

جمع ابن الأثير مادة كتابه معتمدا على من سبقه في هذا المجال ناقلا من كلام كل واحد منهم أجوده وما تدعوالحاجة إليه طلبا للاختصار، ورتب ذلك على حروف المعجم[42]، فأتى الكتاب أشبه بقاموس أبجدي لتاريخ الصحابة الذين أقاموا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد بلغ عدد من ترجم لهم سبعة آلاف وخمسمائة صحابي. ولا يخلوكتابه من ذكر الأسانيد فقد عقد فصلا لهم ضمنه أسانيد الكتب[43]، وفصلا ذكر فيه من يطلق عليه اسم الصحبة[44].بدأ الترجمة بذكر

---

[40] الاصبهاني: الأغاني، ج 1 ص 32 تصدير.

[41] ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج 1 مقدمة الكتاب ص 3.

[42] ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ج 1 ص5.

[43] ابن الأثير: أسد الغابة ج 1 ص 7 وما بعد.

[44] ابن الأثير: أسد الغابة ج 1 ص 11 – 12

سيدنا رسول اللّه صلى عليه وسلم، وكان حين تقديم الترجمة يعطينا فكرة عن عمل كل منها، فمثلا عند كلامه عن الأخنس بن شريق عرفنا انه حليف بني زهرة ومقدما فيهم، ولماذا لقب بالأخنس وتاريخ وفاته[45].

13 ـ الدرة الثمينة في أخبار المدينة:

لابن النجار (الشيخ محمد بن محمود ت 647 هـ). وهوكتاب عظيم الفائدة كبير النفع يحتوي على كثير من المعلومات التاريخية.، قسمه مؤلفه إلى ثمانية عشر بابا، ذكر خلالها المدينة وأول من سكنها، وسكن اليهود بالحجاز، ونزول الاوس والخزرج وبعض المعالم الجغرافية للمدينة، والكثير من المواضع والأماكن.

14 ـ البداية والنهاية لا بن كثير

"عماد الدين إسماعيل بن عمر ت 774هـ " للكتاب أهمية تذكر يعتمدها الباحثون في دراسة التاريخ القديم منذ بدء الخليقة حتى مبعث الرسول صلى اللّه عليه وسلم، إلى تاريخ الاسلام منذ قيام الدعوة الإسلامية حتى منتصف القرن الثامن الهجري. معتمدا البعد عن الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب اللّه وسنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم[46]. واعتمد الطريقة الحولية فيه منذ الهجرة النبوية وكان يربط بين الأحداث وإن لم تنته في سنة واحدة ويتابع الحدث إلى نهايته.

15 ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام:

للفاسي (أبي الطيب تقي الدين محمد بن احمد بن علي ت 775 هـ).

دون هذا الكتاب أخبار مكة بتفصيل كثير واحاطة شاملة، واستيعاب دقيق، وهومن المصادر الأصلية عن مكة بعد كتاب الازرقي في أخبار مكة.

عرض لأخبار قريش بمكة في الجاهلية، وأخبار بني قصي ومآثرهم في الجاهلية، وأجواد قريش وحكامهم في الجاهلية، وتحدث عن الأصنام التي كانت حول مكة وأخبار أسواق العرب في مكة في الجاهلية والاسلام.

---

[45] ابن الأثير: أسد الغابة ج 1 ص 47ـ 48

[46] ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر ج 1 ص 6

رتبه على أربعين بابا ، ألم فيه بجميع ما يتصل بتاريخ مكة من قريب أوبعيد منذ الجاهلية حتى عصره.

16 ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر : لابن خلدون (عبد الرحمن بن زيد ت 808 هـ)

يحتوي الكتاب على أخبار العرب والشعوب الأخرى وبخاصة البربر، وتحتل مقدمة هذا الكتاب مكانة خاصة في تاريخ الدولة العربية، فقد فلسف ظروف المجتمع العربي منذ نشأته، وتتبع تطوره، وقد كتب مقدمته بالأصل كمقدمة لكتابه التاريخي ولتكون شرحا وتمهيدا تفهم حوادث التاريخ على ضوئها، وقد وصف بحثه الجديد أنه علم مستقل بذاته له موضوع خاص وهوالعمران البشري والاجتماع الإنساني[47].

قسم كتابه إلى مقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بمغالط المؤرخين. وثلاث كتب: الأول في العمران والثاني في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى عهده، والكتاب الثالث في أخبار البربر ومواليهم من زناته[48].. أشار إلى قواعد النقد التاريخي،وشكك في صحة الأنساب التي كثيرا ما ترفع إلى إسماعيل وإبراهيم ونوح بل والى آدم أبي الإنسانية، وشكك أيضا في تفاسير التوراة وتأويلاتها[49]

17 ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا:

للقلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي ت821 هـ).

كتاب جليل القدر، عظيم النفع، كبير الفائدة بين للقلقشندي لنا فيه حالة اللغة العربية وكيف كانت في العصور الأولى قبل الاسلام إلي أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الانتشار بعد أن صارت لغة القرآن الكريم ولغة الشريعة الإسلامية والدين الحنيف، وكيف زهت في عصور الخلفاء من بني أمية وبني العباس، وغزرت مادتها، واتسع نطاقها ودنا قطافها.

---

(47) حاطوم: المدخل إلى التاريخ ص 314.

(48) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ أوالخبر، المقدمة ص 6.

(49) ابن خلدون: العبر ج 2 ص 6

وبين لنا الكتابة العربية في البلاد والممالك الإسلامية وما بلغته من درجات الرفعة والارتقاء، ثم ما آلت اليه بعد ذلك من الضعف والوهن تبعا لضعف اللغة العربية باستيلاء المغيرين على بلاد الخلفاء وممالكهم، ممن ليسوا من أهلها في اللغة والدين، كما بين لنا طبقات الكتاب وأهل الأدب وماكان لهم عند الملوك من الرعاية وعظيم الاحترام.

وبين لنا فيه الخلافة الإسلامية وشروطها ورسومها ومن وليها، والممالك الإسلامية في المشرق والمغرب وما بلغته من درجات المجد والحضارة، وحدودها وأنظمتها ورسومها وأثارها، وأخبرنا عن البلاد المصرية وفضائلها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وما فيها من الآثار.

دون في هذا الكتاب عدة كتب أدبية نفيسة بتمامها، وجمع فيه كثيرا مما تفرق في غيره من المؤلفات.

رتبه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة، فلم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها فصار كتابه لذلك كتاب سير وتاريخ ولغة وأدب وفقه وتفسير للقرآن الكريم وشرح للأمثال والحكم العربية وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة المصرية خاصة[50]. فهوعلى العموم دائرة معارف كبرى.

خامساً: كتب الأنساب

1ـ جمهرة النسب لابن الكلبي: (هشام أبوالمنذر محمد بن السائب ت 204 هـ) اقتفى ابن الكلبي خطوات والده محمد بن السائب فقد كان عالما بالأنساب، غير أنه تفوق على والده، وصار في طليعة الباحثين في الدراسات الاثارية عند المسلمين برجوعه إلى الأصول واعتماده على المراجع التاريخية وقد نهج في طريقة كتابته نهجا قريبا من منهج المؤرخين في تدوينهم التاريخ[51]. تعود أغلب معارفنا عن فترة الجاهلية الأخيرة إليه. فهويتناول أنساب العرب والقبائل العربية وتفرعاتها من عمائر وبطون وأفخاذ ذكر الطبري عن أبى المنذر هشام قوله " وقد حدثت عن هشام بن محمد

---

[50] للقلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 1 ص 18 مقدمة.

[51] علي: المفصل في تاريخ العرب ج 1 ص 88.

الكلبي انه قال كنت: استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة، ومبالغ أعمار من عمل منهم لال كسرى، وتاريخ سنيهم في بيع الحيرة، وفيها ملكهم وأمورهم كلها "[52]. وبهذا يكون قد انفرد دون غيره في هذه الناحية.

2ـ نسب قريش للمصعب الزبيري: (عبد الله المصعب بن عبد الله ت 236 هـ) يقع الكتاب في اثني عشر جزءا على أطوال متباينة بعض الشيء، ولكن هذا التقسيم مصطنع لأننا لا نجد فيه جزءا مستقلا بنفسه، وكل جزء يبدأ با لأسانيد نفسها.

وقد عرفنا على نسب قريش رجالها ونسائها، وكان يورد في كل صفحة حكايات تتعلق بالجوانب التاريخية والاجتماعية.

3 ـ جمهرة نسب قريش وأخبارها: للزبير بن بكار (عبد الله ت 256 هـ)وهذا الكتاب كسابقه يختص بنسب قريش، وأثناء سياقه للنسب يورد بعض الأخبار الموجزة والمختصرة، وفي ذلك دليل على أن ا لزبير إنما أراد بأخباره تصوير الشخصية ومعالم حياتها في إطار النسب، فأصبح نسب البطن من بطون قريش ينبض بالحياة حتى كدنا نرى المذكورين في نسبه أحياء يغدون ويروحون، ولكل امرئ منهم سمة صريحة الدلالة على شخصيته. وقد ضمن الكتاب شعر كثير، وهذا خليق أن يضيء تاريخ هذه الفترة فنزداد علما بالوثائق النافعة في الاستدلال على الحياة الاجتماعية.

4 ـ أنساب الأشراف: للبلاذري (أحمد بن يحيى ت 279 هـ)

الكتاب فائدة عظمية فهومن جهة كتاب نسب، ومن جهة أخرى كتاب أخبار وتاريخ واستقصاء وشرح، لهذا لا نعجب حينما نرى تعدد أسمائه لدى الناقلين منه بعده: فعنوان الكتاب المخطوط انساب الإشراف، في حين أنه قد كتب في آخره ما يأتي: هذا آخر ما صنفه احمد بن يحيى بن جابر البلاذري من جمل انساب الأشراف وأخبارهم[53].

---

[52] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 1 ص 628.

[53] البلاذري: انساب الأشراف. ص 18 من مقدمة الكتاب.

إذا في ثنايا الكتاب أخبار اقتصادية واجتماعية وسياسية مفيدة للمؤرخ اوالباحث في تدوين أخبار الجاهلية الأخيرة.

5 - جمهرة أنساب العرب: لابن حزم الأندلسي (أبومحمد علي بن أحمد ت 456هـ).

وهوكتاب واسع في النسب أشار فيه إلى أنساب العرب وأهم الأحداث التاريخية والقبلية والأدبية، وأيام العرب المشهورة والمشهور من أمثالها وأبنائها. مع التحقيق في ذلك كله ، وبيان الخلاف فيه مع الحكم الصادق، وبذلك نأى في كتابه عن الجفاف واليبوسة التي يعانيها الناظر في كتب الأنساب[54]. وفي خاتمة كلامه عن النسب عقد فصلا عن ديانات العرب وأصنامها[55].

6 – قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان: للقلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي ت 821 هـ).

يضم الكتاب مقدمة ومقصد وخاتمة يذكر في المقدمة أمور يحتاج إليها في علم الأنساب ومعرفة القبائل وفيها خمسة فصول: الفصل الأول في فضل علم الأنساب ومسيس الحاجة اليه. والفصل الثاني في بيان من يقع عليه اسم العرب القديمة التي منها درجوا إلى سائر الأقطار، والفصل الخامس في أمور يحتاج إليها الناظر في علم الأنساب، أما المقصد فقد حوى تفاصيل لمعرفة أنساب العرب، وفيه فصلان الفصل الأول في ذكر عمود النسب النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وما يتفرع عنه من الأنساب[56]. والفصل الثاني في ذكر تفاصيل القبائل وما يتسر ذكره من مساكنهم إلى الان[57].

وتضمنت الخاتمة نبذة من أوصاف المقر الأشرف الناصري المؤلف له هذا الكتاب ومناقبه ونبذه من سيرته الغراء.

---

[54] ابن حزم الأندلسي: جمهرة انساب العرب. من مقدمة الكتاب.

[55] ابن حزم الأندلسي: جمهرة انساب العرب ص491 ـ 494

[56] القلقشندي: قلائد الجمان ـ ص25

[57] القلقشندي: قلائد الجمان ص 36

7 – سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للبغدادي السويدي (أبي الفوز محمد أمين ت 1246هـ[58] ".

أوصل البغدادي في كتابه آخر القبائل بأوائلها بخطوط تمتد من الآباء إلى الأبناء. واضعا كل اسم ضمن دائرة تحيط به، وقد ابتدأ الأنساب من آدم أبي البشر، ورتبه على ثلاثة عشر بابا ذاكرا فيها علم الأنساب وفائدته وطبقات الأنساب، ومساكن العرب القديمة التي درجوا منها إلى سائر الأقطار وعرفنا على بعض أنساب العرب والترك والروم والسودان، وبعض القبائل التي اختلف فيها هل هي من العرب أومن غيرهم، ولم ينسى ذكر ديانات العرب قبل الاسلام، وفي نهاية الكتاب عقد فصلا لنيران العرب في الجاهلية وفصلا ذكر فيه أسواق العرب المعروفة فيما قبل الاسلام[59].

سادساً: كتب الجغرافية

1 - صفة جزيرة العرب للهمداني (أبومحمد الحسن بن احمد ت 334 هـ) أشهر مؤلفات الهمداني بعد الإكليل[60]، يصف فيه الجزيرة العربية ذاكرا أسماء بلادها وأوديتها وجبالها والكثيرمن معالمها الجغرافية. وما اشتهرت به هذه المواضع، وينقل أسماء القبائل التي أقامت في تلك المواقع. إلا انه عندما يكتب عن اليمن فانه يكتب عن رؤية ومعرفة[61].أما عندما يكتب عن الأجزاء البعيدة عن اليمن فيكتب عن نقل ولهذا جاءت أخباره عن اليمن أقرب للواقع.

2 - معجم البلدان لياقوت الحموي (شهاب الدين أبوعبد الله ت 626 هـ) قسم ياقوت كتابه إلى ثمانية وعشرين كتابا على عدد حروف المعجم ثم قسم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين بابا للحرف الثاني للأول والتزم ترتيب كل كلمة منه على أول الحرف وثانيه وثالثه... والغرض من هذا الترتيب تسهيل طريق الفائدة من

---

[58] الزركلي: الأعلام ج 6 ص 267.

[59] البغدادي السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب.

[60] الهمداني:صفة جزيرة العرب ـ ص 31 من المقدمة.

[61] الهمداني: صفة جزيرة العرب ص 18 من المقدمة.

غير مشقة وقبل إن يفعل ذلك عقد خمسة فصول في ذكر صورة الأرض. وفي وصف الاختلاف في الاصطلاح على معنى الأقليم. وفصل في ذكر الفاظ يكثر تكرار ذكرها في الكتاب يحتاج إلى معرفتها كالبريد والفرسخ والميل والكورة... ثم فصل في بيان حكم الأرضيين والبلاد المفتتحة في الاسلام، ومن ثم جمل من أخبار البلدان[62]. وكان أثناء حديثه عن البلد يذكر اسم القبائل وبعض المعلومات التاريخية والأدبية مؤيدا ذلك بأبيات من الشعر.

سابعاً: المعاجم

1 -مجمع الأمثال للميداني (أبوالفضل احمد بن محمد ت 518)ذكر الميداني في كتابه الأمثال العربية وأمثال المولدين مرتبة على حروف المعجم، ذاكرا صاحب المثل، والقصص والأسباب التي توضح الغرض من قوله، وجعل قسما خاصا لأيام العرب ثم جعل بابا لكلام النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فجاء الكتاب وافيا كافيا ومصدرا هاما في مجاله، لانه يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية[63].

2 -لسان العرب لابن منظور: (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت 711هـ) القاموس العربي في الحقيقة يجمع المفردات اللغوية والمعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية والفنية. فلسان العرب كتاب لغة ونحووصرف وفقه وأدب وشرح للحديث الشريف وتفسير للقرآن الكريم[64].

3 - تاج العروس للزبيدي: (محمد مرتضى الحسيني ت 1205 هـ) كل من يقرأ في التاج يرى مقدار الجهد الذي بذل في تأليفة ويشهد بفضل مؤلفه وسعة اطلاعه ورسوخ علمه، وكان مرجعه في ذلك الكثيرمن الكتب أولها لسان العرب، وقد جاء الكتاب واضح المنهج سهل السلوك وهو وإن كان قد نقل عن اللسان،

---

(62) ياقوت: معجم البلدان ص15.

(63) الميداني: مجمع الأمثال – ج 1 ص 6

(64) ابن منظور: لسان العرب، ج 1 ص 6

والكثير من الكتب إلا أنه انفرد ببعض الشواهد والأقوال وقد ذكر"ولم آل جهدا في تحري الاختصار وسلوك سبيل التنقية والاختيار، وتجريد الألفاظ عن الفضلات التي يستغني عنها في حط اللثام عن وجه المعنى عند ذوي الأفكار"[65].

أما **المراجع الحديثة** فكان لا بد لي من العودة إليها خاصة أنها تعتمد في كتابتها على التحليل والتفسير، واتباع قواعد المنهج الحديث للتاريخ. وذلك للاطلاع على أهم الآراء والنظريات والأفكار التي قيلت في الحياة الاجتماعية، ولم تكن هناك مراجع متخصصة بالموضوع مباشرة، إنما كانت قريبة منه، أوتبحث في أحد جوانبه، أوتلقي ضوءا هاما على إحدى زواياه،ومن خلالها تمكنت من متابعة الموضوع، رتبت هذه المراجع على قسمين: القسم الأول يبحث في المعارف العامة وهي.

1 ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب مؤلف من ثلاث أجزاء للمؤلف محمود شكري الألوسي البغدادي بدأ كتابه بتعريف الجاهلية ومن ثم تحدث عن شجاعة العرب ووفائهم ومساكنهم التي درجوا منها وأشراف قريش في الجاهلية والاسلام وانتقل إلى ذكر الأسرة وبنائها وانحلالها، وانتقل إلى أديان العرب قبل الاسلام.

2ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي يتألف الكتاب من عشرة أجزاء يبحث في أوضاع العرب في الجاهلية مبينا أثر البيئة الصحراوية في شبه الجزيرة العربية على سكانها ونمط مجتمعهم وبيئتهم.

3ـ تاريخ العرب في عصر الجاهلية لعبد العزيز سالم قسم الكتاب على أبواب متعددة الباب الأول دراسة تمهيدية، والباب الثاني عن عرب الجنوب والباب الثالث عن الدويلات العربية على تخوم الشام والعراق أما الباب الرابع فيبحث في حواضر الحجاز مكة والمدينة والطائف والباب الخامس خصصه للتحدث عن الحياة الاجتماعية والدينية واختتم الكتاب بالتمهيد لظهور الاسلام. ويدخل في إطار القسم الأول: العرب في العصور القديمة ليحيى لطفي عبد الوهاب. تاريخ العرب قبل الاسلام لسعد زغلول عبد الحميد تاريخ الجاهلية لعمر فروخ، والعرب قبل الاسلام لجرجي

---

[65] **الزبيدي: تاج العروس، ج 1 ص 9 مقدمة الكتاب.**

زيدان وتاريخ العرب القديم لتوفيق برووغير ذلك من المراجع. أما القسم الثاني: فيختص في ناحية معينة من البحث:

1 – الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام لعبد السلام الترمانيني يبحث في أنواع الزواج وبناء الأسرة وانحلالها ولم يترك شيئا يتعلق بالأسرة إلا وتطرق اليه كالحمل والإرضاع وتسمية الأولاد والختان... الخ

2 – أسواق العرب لسعيد الأفغاني

3 – أيام العرب لجاد المولى.

4 – الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي لواضح الصمد.

الفصل الأول

الحجاز

الحجاز

اكتسب الحجاز أهمية دينية واقتصادية خاصة بين أقاليم الجزيرة العربية، فالأهمية الدينية من وجود الكعبة فيه، والاقتصادية لأنه مثل مرحلة هامة اقتصاديا بسبب مرور التجارة العالمية في أراضيه، مما ترك أثراً فعالاً في الحياة الاجتماعية والسياسية، فازدادت القبائل العربية في الحجاز تقاربا وتألفا، وارتبطت أعداد وفئات كثيرة من سكان الحواضر والبادية بالعملية التجارية وانقسمت قبائل الحجاز آنذاك حسب نوع العمل إلى:قبائل بدوية متجولة في المناطق السهبية الصحراوية وقبائل فلاحية مستقرة مارست الزراعة وقبائل اعتمدت التجارة أساسا لحياتها المعيشية. ولكي نفهم الأسباب التي أدت إلى هذا التقسيم لا بد لنا من البحث عن:

1 ــ الوضع الجغرافي:

ظل الحجاز كمصطلح جغرافي غير ثابت الحدود منطويا على شيء من التماوج. منحسرا حينا، متداخلا مع إقليم أوأكثر أحياناً أخرى، مختلف المعالم بين آونة وأخرى، مما حال دون استقرار حدوده لدى الجغرافيين العرب، وتأرجح الحواضر من أقليم إلى آخر، كأن يمتد الحجاز مثلا إلى بوادي الشام في الشمال[1] أويتراجع

---

[1]: الهمداني (لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب) صفة جزيرة العرب، دار اليمامة 1974 ص 58 يختصر إلى الصفة، الحموي (ياقوت) معجم البلدان – دار أحياء التراث العربي – بيروت – لبنان 1399 – 1979 م مادة حجاز يختصر إلى ياقوت،البغدادي (محمد أمين) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط 1406 هـ ــ 1986 ص 16 يختصر إلى سبائك، الالوسي (محمود شكري) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. المطبعة الرحمانية بمصر ط 2، 1442 هـ – 1924 ج 1 ص 187 – يختصر إلى الوسي شريف (أحمد أبر أهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول – دار الفكر العربي ص 13 يختصر إلى (شريف).

جنوبا وراء يثرب[2]، وقد تدخل يثرب في نجد القريبة منها، أوتعد مكة من تهامة اليمن، وتصبح اليمامة جزءا مضافاً في الحجاز مع مكة والطائف[3] إلى آخر هذه الحلقة المتماوجة التي لا نجد لها تحديدا مستقرا في كتابات الجغرافيين والرحالة.

فلم يأخذ الحجاز ملامحه المستقلة كإقليم جغرافي متميز برغم تداخله بصورة متفاوتة مع تهامة واليمن، ونجد، إلا في القرن السادس الميلادي حيث اصبح مركز الاستقطاب الأول ومحور الحركة التجارية في الجزيرة العربية فأصبح التعريف المبدئي للحجاز بأنه الجبال الحاجزة بين الأرض العلية نجد، وبين الساحل الواطئ تهامة[4]. ولعل عددا من المؤرخين يتفق وهذا التحديد كالمسعودى بقوله:" انه حاجز بين الشام واليمن والتهائم "[5] أوما حجز بين الشام واليمن حسب تعبير الهمذاني [6].

وقد أطلق على هذه السلسلة الجبلية اسم السراة [7]. أما سبب تسميته حجاز، فلأنه حجز بين الغور[8] وهوهابط، وبين نجد وهوظاهر[9]، أولكثرة الحرارة [10] فيه واحتجاز أهله من العدو[11]، فهومن الفعل حجز[12]، وقد حدد البكري الحجاز بقوله: حده الأول بطن نخل[13] وأعلى رَّمَةَ[14] وظهر حرة ليلى[15]، والحد الثاني مما

---

[2]: اصطخري (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي) المسالك والممالك 1381 ه 1961 م، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة ص 25 يختصر إلى اصطخري ط 1961.

[3]: اصطخري ص 21، ط 1961

[4]: ياقوت، مادة حجاز، سبائك ص 16.

[5]: المسعودي: (أبى الحسن علي بن الحسين بن علي)، مروج الذهب، يختصر إلى مروج الذهب،

[6]: الصفة ص 50 ـ 58

[7]: المرتفع سمي بذلك لعلوه. ياقوت مادة سراة.

[8]: ما تداخل وما هبط وغور كل شيء فعره ياقوت مادة غور

[9]: الصفة ص 058

[10]: جمع حرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار ياقوت مادة حرة

[11]: الصفة ص 368 .

[12]: لسان العرب مادة حجز.

[13]: موضع بنجد منزل لبني مرة بن عوف على ليلتين من المدينة ياقوت مادة نخل.

[14]: أول حدود نجد فضاء تدفع فيه أودية كثيرة ياقوت مادة رمة.

[15]: موضع من وراء وادي القرى من جهة المدينة ـ ياقوت مادة حرة ليلى.

يلـي الشـام شـغب[16] وبـداء[17] والحـد الثالـث ممـا يلـي تهامـة بـدر[18] والسـقيا[19] ورهاط[20] وعكاظ[21] والحد الرابع ساية[22] وودان[23] ثم ينحدر إلى الحد الأول بطن نخل.

ووصف أيضا بأنه ما احتجز في شرقية من الجبال، وانحدر إلى ناحية فيد[24]، وجبلي طيء إلى المدينة[25]، وراجعا إلى أرض مذحج[26] تثليث[27] وما دونهما إلى ناحية فيد فذلك كله الحجاز[28]. إذا أنه الإقليم الذي يمتد من قعره[29] اليمن حتى أطراف بوادي الشام[30].

---

[16]: ضيعة خلف وادي القرى من جهة المدينة ـ ياقوت مادة حرة ليلى.

[17]: واد عذرة بالشام ياقوت مادة بدا.

[18]: موضع بينه وبين المدينة سبعة برد وقيل ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء ياقوت مادة بدر.

[19]: من أسافل أودية تهامة ياقوت مادة سقيا.

[20]: موضع على ثلاث ليال من مكة ياقوت مادة رهاط.

[21]: نخل في وادي بينه وبين مكة ثلاث ليال وبينه وبين الطائف ليلة ياقوت مادة عكاظ.

[22]: اسم واد من حدود الحجاز، ياقوت مادة ساية.

[23]: موضع بين مكة والمدينة، ياقوت مادة ودان.

[24]: منزل بطريق مكة والمدينة، ياقوت مادة فيد.

[25]: جبلي طيء يراد بهما أجا وسلمى. فأجأ غربي فيد ياقوت مادة جبلين ومادة أجأ، أما جبل سلمى جبل بقرب من فيد عن يمين القاصد مكة ياقوت مادة سلمى. وطيء قبيلة يمانية تنسب إلى جلهمة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. الهمداني (أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب). الإكليل ط 1، الدار اليمنية 1407 هـ ـ 1987 ص 27 يختصر إلى الإكليل.

[26]: مذحج هومالك بن أدد بن زيد بن مرة من قبائل اليمن. الإكليل ص 27.

[27]: موضع بالحجا قرب مكة . ياقوت مادة تثليث.

[28]: الصفة ص 58 ـ59 ياقوت مادة حجاز، البكري معجم ما استعجم ج 1 ص 9 ـ غنيم (عبد الله يوسف) أقاليم الجزيرة العربية ـ جامعة الكويت 1401 هـ ـ 1981 م ص 35 ـ يختصر إلى أقاليم.

[29]: من قرى اليمن من ناحية ذمار ياقوت مادة قعره.

[30]: المفضل أبوالعباس بن محمد الضبي، المفضليات مكتبة الأباء اليسوعيين بيروت 1920 ص 416، يختصر إلى المفضليات، الصفة ص 58، ياقوت مادة سراة، سبائك ص 16.

ولقد قسمه البكري إلى حجازين "الحجاز الأسود، وحجاز المدينة [31]." ويبدو أن هذا التقسيم. للتفريق بين جبال السراة الجنوبية أوالحجاز الجنوبي، وبين الحجاز الشمالي، ولهذا التقسيم من الوجهة الجغرافية دلالة مورفولوجية[32]. فكل قسم منهما إقليم له خصائصه المتميزة من حيث الارتفاع والمناخ والحياة النباتية.يبلغ طول الحجاز من الشمال إلى الجنوب حوالي **700** ميل[33] وعرضه من الشرق إلى الغرب **250** ميل، وقد قسمه الجغرافيون المحدثون إلى قسمين[34].

1ـ سراة عسير: وهي المرتفعات الجنوبية، وتمتد ما بين خطي عرض **18ـ20** شمالا، وهي أكثر ارتفاعا من الأجزاء الشمالية إذ يتراوح ارتفاعها بين **1800ـ3000** متر فوق سطح البحر.

2 ـ سراة الحجاز: وتمتد شمال المرتفعات السابقة بين خطي عرض **20ـ30** شمالا. فهي تفوق سابقتها في الامتداد، إلا أنها أقل ارتفاعا من مرتفعات عسير، إذ يبلغ متوسط ارتفاعها **900** متر فوق سطح البحر، ويقل الارتفاع كلما اتجهنا شمالا، ويقال لأعلاها السراة، كما يقال لظهر الدابة السراة[35]. إلا أن بعض النصوص تقتصر في تسمية السراة على الأجزاء الجنوبية من جبال الحجاز، فالسراة هي العمود الفقري لشبه جزيرة العرب[36]، وقد عرف قسمها المرتفع بجبال مَدْيَن، حيث تصل قمتها نحوثلاثة آلاف متر، ولا تلبث أن تنخفض تدريجيا حتى تصل إلى نحوألف متر بالقرب من يثرب، وإلى نحومائتي متر فقط عند جبل رَضْوَى إلى الشمال

---

(31): **البكري أبي عبيد الله بن عبد العزيز معجم ما استعجم في أسماء البلاد والمواضيع تحقيق مصطفى السقا ـ كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الول القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف ط1، 1364هـ ج1 ص 13 يختصر إلى البكري: معجم ما استعجم، أقاليم ص 36.**

(32): **مورفولوجيا علم الهيئة أو الشكل وكذلك البنية وتطورها الذي يؤثر على الهيئة أو الشكل. توني (يوسف) معجم المصطلحات الجغرافية. دار الفكر العربي 1964 م ص 505 يختصر إلى توني.**

(33): **وهبة (حافظ) جزيرة العرب في القلان العشرين. الطبعة الثالثة ـ القاهرة 1375هـ 1956 ص 4 يختصر إلى وهبة ـ جزيرة العرب.**

(34): **أقاليم ص 36ـ37**

(35): **ياقوت مادة سراة.**

(36): **شريف ص 13**

الغربي منها أي ما يعادل 5900 قدم[37]، وصف بأنه جبل منيف ذوشعاب وأودية، وهومن الجبال المشهورة عند العرب[38]، وبين مكة والطائف يقع (جبل كرا يبلغ ارتفاعه مائتي متر أي ما يعادل 6000 ــ 6500 قدم [39]). أما في الجنوب فتعود للإرتفاع حاملة اسم السراة لتبلغ 3000 متر تقريبا عند عسير [40].

أضف إلى هذه المرتفعات جبل غزوان بجوار الطائف وفيه أبرد مكان، فلربما جمد الماء في ذروته[41]، وجبل أحد شمال المدينة [42]، وفي جنوبها الغربي جبل عير.

وهما عبارة عن جبلان أحمران متقاربان ببطن العقيق، أحدهما عير الصادر، والآخر عير الوارد[43] وأبوقبيس وهوالجبل المشرف على الكعبة من شرقيها، وقعيقعان وهوالجبل الذي يقع غربي الكعبة[44]، وثبير جبل يرى من منى والمزدلفة[45]. تخترق السلسلة الحجازية (أوالسراة) مجموعة من الوديان، أسهمت في تقطيع أوصال السفوح الغربية بشكل جعل عبورها أمرا ميسورا، خاصة وان الماء قلما يجري في هذه الأودية، ولذلك اختفت منها الأنهار الكبيرة، وحل محلها الجعافر. وهي عبارة عن نهيرات تتلقى مياه السهول الطارئة، أوتتزود من الأمطار القليلة التي سرعان ما تنضب تحت تأثير المناخ الصحراوي السائد في الإقليم[46].

---

[37]: دائرة المعارف الإسلامية مادة حجاز.

[38]: الصفة ص 267

[39]: دائرة المعارف الإسلامية مادة حجاز شريف ص 13.

[40]: بيضون (إبراهيم الحجاز والدولة الإسلامية المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت – لبنان ط 1، 1403 ه 1983 م ص 33 يختصر إلى بيضون

[41]: اصطخري ص 24، حتي (فيليب وغيره) تاريخ العرب. دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ط 7 ص 45 يختصر إلى حتي.

[42]: اصطخري ص 23، ياقوت، مادة يثرب، سالم(عبد العزيز) تاريخ العرب في عصر الجاهلية – دار النهضة العربية – بيروت 1917 م ص 386، يختصر إلى سالم، برو(توفيق) تاريخ العرب القديم – دار الفكر ط 1404 ه 1984 م ص84، يختصر إلى برو.

[43]: ياقوت مادة عير

[44]: اصطخري ص 22.

[45]: اصطخري ص 23.

[46]: علي المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص 157 – 158

ولعل بعض هذه الأودية كان أنهارا جارية أبان ما يعرف جيولوجيا بالعصر المطير، يستدل على ذلك من كثرة الترسبات التي تحملها عادة مياه الأنهار، فإلى الآن مازالت هذه الترسبات موجودة.

أكد هذا القول الكتاب الإغريق، فقد تركوا لنا أسماءها ومواقع جريانها ومصباتها ﰲ البحر الأحمر[47]، على أن ذلك مجرد احتمالات لا يجزم القول بها.

ولأودية الحجاز اتجاهان: أحدهما إلى البحر الأحمر كوادي أضم وهوواد عظيم تغزره أودية كثيرة [48]، ويسمى أيضا الحمض وقد ورد اسمه ﰲ أشعار الجاهليين قال سلامة بن جندل[49]:

يا دار أسماء بالعلياء من أضم　　　بين الدكادك من قوفمغضوبِ

وهو يمتد من خيبر إلى جنوب قرية الوجه، ويتصل بوادي القرى، والعقيق فوادي القرى يقع بين تيماء وخيبر، ويمر به طريق القوافل القديم الذي كان شريان الحركة التجارية ﰲ العالم القديم، وقد كان عامرا، وبه قرى كثيرة، ولذلك سمي وادي القرى[50]، وتشاهد فيه إلى الأن آثار المدن والقرى،أما وادي العقيق الذي يعتبر أعظم أودية الحجاز فهوعبارة عن مجموعة أعقه (أي أودية شقتها السيول) أحدهما العقيق الأصفر وقيه بئر رومة، والأخر العقيق الأكبر وفيه بئر عروة [51]. والاتجاه الثاني للأودية نحونجد، حيث السفوح الشرقية أقل انحدارا من الغربية، ومن

---

(47)علي: المفصل ج 1 ص 159

(48): الصفة ص 320

(49): ياقوت مادة أضم، شريف ص 14.

(50): ياقوت، مادة قرى، جواد: المفصل ج 1 ص 168 ـ 169، شريف ص 16

(51) : الفيروز أبادي (مجد الدين أبي الظاهر محمد بن يعقوب) المغانم المطابة ﰲ معالم طابة تحقيق حمد الجاسر ط 1389 ه – 1969 ه 266 يختصر إلى الفيروز أبادي المغانم المطابة ﰲ معالم طابة. ياقوت مادة عقيق.

ثم فان الوديان هنا أكثر طولا، وأقل عمقا واحتفاظا بالماء، فوادي الرمة الذي يمتد من فدك إلى القصيم في الشرق يبلغ طوله **950** كيلومترا [52].

ويوجد في الحجاز وادي الصفراء، وعليه قرية الصفراء، وما ؤها عيون تجري إلى ينبع[53] أووادي بطحان، ووادي رانونا، ووادي قناة ووادي مذ ينيب في الجنوب الشرقي من يثرب، وهوشعبة من بطحان، ووادي مهزوز في الجنوب الشرقي أيضا، ويأتي من الحرة الشرقية، حرة واقم [54.]. وفي الطائف واد يقال له حفن، وهوبين الطائف وبين معدن البرام، ووادي مَشْريق في جنوبي الطائف، ووادي جلذان في شرقها وبين عرفة والطائف وادي نعمان وفيه الطريق المختصرة إلى مكة[55].

ولا ننس السيول التي تجري بسرعة، فتجرف ما يعترضها من عوائق وتنحدر إلى البحر الأحمر، وتكون خطرا يهدد القوافل والمدن والأملاك وتصيب الناس بأفدح الخسائر فقد ذكر أن وادي مكة سال في الجاهلية سيلا عظيما... كسا ما بين الجبلين[56].

أما بالنسبة لمناخ الحجاز فعلى الرغم من ارتفاع الحاجز الجبلي في بعض المواقع فانه لم يحدث تغيير مهم في مناخ الإقليم الذي كان أكثر تأثرا بالحرارة والرطوبة المرتفعتين في تهامة، فضلا عن ضغط الصحراء، وجفافها في الشرق، مما انعكس على طبيعته الإنتاجية حيث انحسرت إلا قليلا الأراضي الصالحة للزراعة في بعض الأماكن، بينما انعدمت تماما في أماكن أخرى، فالسهول الواقعة بين جبال السراة، والبحر الأحمر ضيقة في الغالب تتغير في الاتساع من الجنوب إلى الشمال

---

[52]: الصفة ص 289، ياقوت مادة رمة، شريف ص 15، بيضون ص 33 – 34

[53]: ياقوت مادة الصفراء، جواد: المفصل ج 1 ص 168، شريف ص 15

[54.]: الفيروز أبادي: المغانم المطابة في معالم طابة ص 275 حاشية، وص 424 سالم، ص 387.

[55]: الصفة ص 260، سالم ص 374.

[56]: الأزرقي (أبوالوليد محمد بن عبد الله بن أحمد)أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس دار الأندلس– مدريد أسبانيا ج 2 ص 166 – 167 يختصر إلى أخبار مكة. الفاسي (أبي الطيب تقي الدين بن أحمد بن علي) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة 1375 هـ ـ 1956 م ج 2 ص 560 يختصر إلى شفاء الغرام.

حتى تبلغ أقص ضيق لها عند العقبة، وهي حارة رطبة في الغالب غير صحية في بعض الأماكن[57].

فالرسول صلى الله عليه وسلم حين قدم إلى المدينة وهي أوبا أرض الله أصاب أصحابه منها بلاء وسقم، فقال صلى الله عليه وسلم:" اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أوأشد، وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيعة " [58].

انعكس هذا الوضع التضاريسي للحجاز بشكل طبيعي على حياة السكان، حيث سمحت الطبيعة بقيام مجتمع زراعي في الطائف [59] ذات المناخ المعتدل والهواء الشمالي الطيب[60]، الذي أثر في تلطيف الجو، وجعلها مصيفا لاهل مكة[61] لأنها حسب قول المقدسي شامية الهواء باردة الماء[62] معوضة قساوة مناخ مكة فهي في واد غير زرع[63]، وحولتها إلى حاضرة تجارية، بينما اعتمدت يثرب على عدة مصادر في طليعتها الزراعة وبعض الحرف الصناعية[64]، مما انعكس بشكل أوبأخر على السكان وحياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وهذا ما سنبحثه فيما بعد.

---

[57]: شريف ص 14.

[58]: ابن هشام: (أبومحمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري)، السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وغيرة ج 2 ص 239 – يختصر إلى أبن هشام السيرة والمهيعة الجحفة وقبل قريب من الجحفة وهي ميقات أهل الشام قارن البخاري (أبي عبد الله محمد بن إسماعيل) صحيح البخاري، مطبعة الهندي ج 2 ص 667 يختصر إلى صحيح البخاري. السمهودي (نور الدين علي بن احمد). وفاء الوفا – دار أحياء التراث بيروت – لبنان ط 4 1404 هـ – 1984 م ج 1 ص 39 يختصر إلى سمهودي.

[59]: ياقوت مادة طائف

[60]: اصطخري ص 24، ياقوت مادة طائف.

[61]: ابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله) المسالك والممالك لوالممالك، مكتبة المثنى بغداد ص 134 يختصر إلى أبن خرداذبة: المسالك والممالك، ياقوت مادة طائف.

[62]: المقدسي (شمس الدين أبوعبد الله محمد) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مكتبة خياط بيروت لبنان ص 79 يختصر إلى مقدسي.

[63]: سورة إبراهيم: الآية 37

[64]: انظر الوضع الاقتصادي من هذا الفصل

2ـ الوضع الاقتصادي:

الحياة الاقتصادية لأي مجتمع هي الدعامة الأساسية الكبرى في وجوده، واستمرار بقائه وارتقائه، وقد فسرت هذه الدعامة على أنها الفعاليات الزراعية والصناعية والتجارية فيه. وقد ترتبط الفعالية الرعوية، وتربية المواشي... بتلك الفعالية.

ولعلنا نجد أن لكل فترة زمنية خصوصيتها، وباعتبار أننا ندرس الفترة السابقة لظهور الاسلام فسنظهر ما لهذه الفترة من مميزات.

كان الإنتاج الاقتصادي في الحجاز كما في غيره من الأقاليم رهين البيئة بكل تفاصيلها، وبسبب الجفاف، وشح المياه والسيول، تداخلت البداوة مع التحضر، وتشابكت المصالح عند نهاية خط موحد ليؤلفا معا ظاهرة حضارية متميزة، أضف إلى ذلك تغير طرق التجارة، واحتلال الحبشة لليمن، وأنهيار سد مأرب، ونشوب اضطرابات سياسية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية لعرب الجنوب، مما هيأ ظروفا ملائمة لنموحركة التجارة في الحجاز ومكة بشكل خاص، فقد كان يشقها شريان رئيسي من شرايين التجارة العالمية تتفرع منه شرايين تتجه باتجاه الشرق والشمال الشرقي وفي موازاته شريان رئيسي آخر كان له دوره في عالم تجارة ذلك الزمن[65].

فأصبح الحجاز جسرا ربط بلاد الشام وحوض البحر المتوسط باليمن و الحبشة والصومال، والسواحل المطلة على المحيط الهندي[66].

وكان لذلك أعظم الأثر في قيام محطات تجارية أهمها مكة على الطريق البري وثغور تجارية بحرية كالشعيبة مرفأ مكة القديم[67]،والجار فرضة المدينة على شط البحر وجدة فرضة أهل مكة[68]،

---

[65]: سالم ص 341

[66]: سالم ص 341، دلو(برهان الدين) جزيرة العرب قبل الاسلام، دار الفارابي – بيروت – لبنان 1919 ج 1 ص 130 ، يختصر إلى دلو

[67]: أخبار مكة ج 1، ص 157 ـ 160، ياقوت مادة شعيبة، جواد المفصل، ج 4، ص 115

[68]: اصطخري ص 23 ص 961

فبرزت مكة برغم طبيعة أرضها الجرداء الخالية من الزرع والأنهار والماء، ونشطت فيها قبيلة قريش نشاطا ملحوظا في التجارة الداخلية والخارجية، وأصبح لدى المكيين في هذا المجال عدد من القواعد والأصول شكلت عرفا تجاريا متبعا، وأصبحت التجارة تؤثر تأثيرا ملحوظا في تحديد الاتجاه الذي كان يتخذه التطور الاجتماعي آنذاك من حيث منحى الروابط القبلية والأسروية، والتوجهات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والأيديولوجية في السير على طريق الوحدة، وتفسخ معنى العصبية، وظهور عصبيات أخرى تتعلق بالعمل الذي مارسه السكان، فكان مفتاح التحول الكبير الذي حققت مكة معه انطلاقتها العالمية هونظام الايلاف [69].

فعندما أصابت مكة سنوات من الجدب ذهبت بالأموال خرج هاشم إلى الشام وقابل قيصر، وطلب منه أن يكتب له أمانا بدخول بلاده، وكان له ما أراد حيث كتب الحاكم الروماني أمانا لمن يقدم من التجار القرشيين إلى بلاده، وأقبل هاشم بذلك الكتاب، وجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام يأخذ من أشرافهم أيلافا[70]، والايلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف وإنما هو أمان الطريق.

والايلاف العصم.. ويراد العهود[71]. وهوالعهد والذمام[72] أضف إلى ذلك أنها تعني الابتعاد عن الغلظة والجفاء... وجعل الحياة أكثر مرونة، وبالتالي ترك السلب والنهب والغزوالتي وسمت بها حياة البدو.

وكان هاشم فيما يزعمون أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء إلى الشام، ورحلة الصيف إلى اليمن[73] قال تعالى:"**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ**

---

[69]: البلاذري (أحمد بن يحيى) أنساب الأشراف. تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف بمصر ج 1 ص 59 يختصر إلى أنساب الأشراف، الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم – دار المعارف ط 4، ج 2، ص 252. يختصر إلى تاريخ الرسل والملوك.

[70]: مروج الذهب ج2 ص 33، علي: المفصل ج 4 ص 67، ج 7 ص 302

[71]: تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 252 حاشية

[72]: ابن منظور، لسان العرب مادة ألف.

[73]: أبن هشام: السيرة ج1 ص 143

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ"[74]. وكان هاشم أول من أطعم الثريد بمكة، وإنما كان أسمه عمرا، فما سمي هاشما إلا بهشمه الخبز بمكة لقومه[75].

على كل الأحوال خرجت مكة من عزلتها إلى المجال الخارجي بفضل أبناء عبد مناف، هاشم واخوته الذين أصبحوا أصحاب النفوذ الأقوى والوجاهة في قبيلة قريش[76]، فأخذ لهم هاشم حبلاً [77]من ملوك الشام الروم، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً [78]. فارتبطت مصالح مكة بمصالح الدول الكبرى، ولكي يربط هاشم مصالح القبائل المجاورة به أيضا عقد محالفات مع رؤسائها: وكان يحمل إليهم تجاراتهم دون أجر.

حظي هذا النظام بتأييد بطون قريش لاتخاذها الخط التعاوني الهادف إلى تحقيق حد أدنى من التكافل الاجتماعي والاقتصادي في مكة. لكن هل نجح الايلافيون في تشكيل مؤسسة تعاونية تماما وغير متناقضة الأهداف والمصالح على نحويتطابق مع مضمون الايلاف الرامي إلى توفير الرزق والاستقرار للمكيين

على الرغم من أن المكيين ارتبطوا بروابط المصاهرة مع العديد من القبائل حتى تكون روابطهم أشد وأمتن، وأظهروا في ذلك براعة سياسية وحنكة، ومالوا إلى السلم والأمن لأنهم قوم تجار، واتصفوا بالصدق والأمانة والوفاء. وإغاثة الملهوف ورد المظالم، أضف إلى ذلك تبوأ مكة مركز الزعامة على من جاورها من قبائل لأمد طويل، ووصولها إلى الدور المهيمن لا في الحجاز وحسب، بل وفي الجزيرة العربية

---

[74]: سورة قريش الآية 1 -2

[75]: أبن هشام: السيرة ج 1ص 143.

[76]: علي: المفصل ج7 ص301، شريف ص 205

[77]: العهد والذمة والآمان وهومثل الجوار لسان العرب مادة حبل.

[78]: تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 252، أبن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم) الكامل في التاريخ دار صادر، بيروت 1399 ه 1979 ج 2 ص 16. يختصر إلى الكامل في التاريخ لسان العرب مادة ألف شفاء الغرام ج2 ص 84 علي: المفصل ج 7 ص 306

بأكملها، لم تكن متضامنة، فقد ظهرت فيها فئات غنية، وأخرى فقيرة مما كان لهذا أثر فعال في تفكيك بنية المجتمع القبلي من أسسها.

وقد عظمت قوافل قريش، وكثرت أموالها كما ذكر عن قافلة أبي سفيان أثناء الحديث عن وقعة بدر الكبرى[79]، حملت هذه القافلة أموالا لمعظم بطون قريش، وهذا دليل واضح على نشوء تضامن، وتعاون اجتماعي جديد مبني على أساس المصلحة التجارية، وفيما بعد قامت الأحلاف المختلفة كالمطيبين[80]، مثلا وغيره على هذا الأساس وسيؤدي ذلك التطور بالضرورة إلى ضعف الروابط المتينة على أساس من قرابة الدم، ونشوء روابط موحدة جديدة، وسينتقل اقتصاد مكة تبعا لذلك إلى الشكل الرأسمالي، فتزداد العلاقات بين أفراد المجتمع تعقيدا، وستظهر فئات مستغلة، وسينتج عن ذلك صراع فئوي بين الأغنياء المتسلطين. والفقراء المحرومين، وسيظهر صدى ذلك واضحا بعد نزول الوحي في تصارع فريق المؤمنين الضعفاء والفقراء المحرومين مع فريق المعارضين خوفاً على مصالحهم المادية[81]، وصلت تجارة قريش على حد قول النويري إلى أنقرة[82]، إلا أننا نشك في صدق هذا القول، فقد صمتت جميع المصادر عن ذكر ذلك يضاف إلى هذا أن سياسة بيزنطة ما كانت تسمح بذلك، واكتفت بالقول أنه مات هاشم بغزة من أرض الشام[83]، أي أن تجارته كانت للشام، فربما قابل أثناء تجارته أحد الرجال الروم قادماً من أنقرة إلى بلاد الشام، فزعموا انه وصل إلى أنقرة واختلف الأمر عليهم.

أما الأسباب التي كانت وراء بروز حاضرة وضعتها الطبيعة في أرض جرداء خالية من الزرع والأنهار، وعدم بروز غيرها كيثرب مثلا، وهي ارض توفر فيها الماء

---

[79]: أبن هشام: السيرة ج1، ص 257، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 421، الكامل في التاريخ ج2 ص116

[80]: أبن هشام: السيرة ج 1 ص 138،مروج الذهب ج2 ص 33، الكامل في التاريخ ج1 ص 453

[81]: ابن هشام: السيرة ج1 ص 339 – 340، الكامل في التاريخ: ج2 ص 66 – 67 وما بعد

[82]: النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ج16 ص 33 تختصر إلى نهاية الأرب.

[83]: ابن هشام: السيرة ج 1 ص 144، انساب الأشراف ج1 ص 58، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 254، الكامل في التاريخ ج 2 ص 17.

والنبات، اوالطائف ذات الأرض الخصبة والمناخ المعتدل كما شاهدنا في الوضع الجغرافي، وتبوأ مكة مركز الزعامة في التجارة، هو قربها من اليمن محور التجارة القديم، فأسهم هذا الموقع المتوسط المثالي في جعل التجارة الخيار الوحيد لمكة في المجابهة مع الطبيعة القاسية.

واتسمت الشخصية التاريخية الاقتصادية لمكة بصورة التاجر المتفوق الذي سخر كافة الإمكانات والمرافق بما فيها الكعبة في سبيل مصالحها الاقتصادية وبما أن توفير الماء كان مرتبطا بنموالمدينة فقد عملت البطون القرشية على اتخاذ آبار خاصة بها. وذلك "لما انتشرت قريش بمكة، وكثر عدد سكانها، قلت عليهم المياه واشتدت الحاجة إلى الماء حفرت في مكة آبار فحفر مرة بن كعب بن لؤي بئرا يقال لها رم.. وحفر كلاب بن مرة بئرا يقال لها خم.. وقال بعض أهل العلم: حفر قصي بن كلاب بئرا بمكة لم يحفر قبل منها، وكان يقال لها العجول[84]، وذكرت أسماء متعددة.فوجود الماء على قلته وضحالته في ذلك الوقت كان جزءاً هاماً في عملية التطور التي انتهت بها.

كانت هذه التجارة برية أكثر منها بحرية، فلم تكن مكة أوغيرها من الحواضر الحجازية على معرفة تامة بالملاحة، فضلا عن خطورة الملاحة في البحر الأحمر، وأن كنا قد سمعنا عن ظهور بعض الموانئ بالحجاز كالشعيبة السابق الذكر، فقد ورد اسمه في أخبار سفينة للروم تحطمت واستعمل خشبها في تسقيف الكعبة[85]، أضف لذلك أن هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة خوفا من أذى المشركين واجتيازهم البحر للوصول إلى الحبشة، والاتصالات بين قريش والنجاشي صاحب الحبشة[86]، ليس من الضروري أن تتم على سفن عربية، ربما تم ذلك على

---

[84] أخبار مكة ج 2 ص 214 – 215 وما بعد، السهيلي (أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي)، الروض الأنف، مكتبة الكليات الأزهرية طبعة منقحة ج 1 ص 172 يختصر إلى السهيلي الروض الأنف. وانظر أيضا: ابن هشام: السيرة ج 1 ص 156 وما بعد، رضا (فؤاد) أم القرى. مؤسسة المعارف بيروت ط 3، 1401 ه – 1981 م. ص 204 يختصر إلى أم القرى.

[85]: أخبار مكة ج1 ص157، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص287، علي: المفصل ج4 ص 122.

[86]: أبن هشام: السيرة ج1 ص 344 وما بعد.

سفن رومية أوغيرها كانت تجوب البحر الأحمر في ذاك الحين، فعندما " خرج الذين هاجروا الهجرة الأولى متسللين سرا، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعيبة منهم الراكب والماشي، ووفق الله للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة [87].

وفي موضع آخر قال الطبري " وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا[88] من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا "[89]، فمن هاتين الروايتين نستطيع القول: أن الحبشة كانت معروفة عند العرب، وكانوا يذهبون إليها للتجارة، ولكن ليس من الضروري أن تكون على سفن عربية. ونجد في خبر عودة المهاجرين من الحبشة انهم حملوا في سفينتين حملهم عليهما النجاشي، أي أن السفينتين كانتا من سفن الحبش[90] ولكن لم يرد في الخبر اسم الموضع الذي أبحروا منه إلى الحجاز ولا اسم المرسى الذي رست السفينتان فيه، واتجه المسلمون منه إلى يثرب.

فهذه الرواية تؤكد إن التجارة البحرية وإن كانت موجودة فعلى نطاق ضيق، و كانت تتم على سفن غير عربية، فلم يعرف عرب الحجاز بناء السفن لانهم لم يملكوا الخشب اللازم لتلك السفن وبنائها، ولم يملكوا اليد العاملة الماهرة لبنائها، ولعلنا نستطيع أن نتصور السفن التي كانت تجوب في البحر الأحمر غير صالحة للملاحة مسافات بعيدة، والدليل على ذلك أن جعفر بن أبي طالب سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكيفية التي يصلي بها في السفينة، فأجابه صلي قائما إلا أن تخاف الغرق[91] وفي خبر اختلاف عمروبن العاص، وعمارة بن الوليد عندما خرجا في تجارة للحبشة يؤكد أن تلك السفن لم تكن تصلح للملاحة

---

[87]: تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 329،

[88]: سعة العيش، لسان العرب مادة رفغ.

[89]: تاريخ الرسل والملوك ج2 ص328

[90]: انساب الأشراف ج1 ص229، علي: المفصل ج7 ص 259

[91]علي: المفصل ج7 ص 259

مسافات بعيدة فعندما جلس عمروعلى طرف السفينة دفع به عمارة في البحر[92]. أي أن هذه السفن عبارة عن قوارب صغيرة، فان وجدت التجارة البحرية فعلى نطاق ضيق.

على كل الأحوال كان للقرشيين تجارة واسعة سواء أكانت برية أوبحرية جعلتهم يوظفون أموالهم في مشاريع استثمارية خارج الحجاز، وكان لهم معاملات تجارية كالشراكة[93]، والمضاربة[94]، فعرف أهلها الكتابة والحساب والمكاييل والموازين فدرت عليهم أرباحا عظيمة جعلتهم أثرياء نعموا بالحياة الدنيا، وغرقوا بالترف واتخذوا الرقيق الذي راجت تجارية آنذاك وتنافسوا فيما بينهم بعدد ما يملكون منه، وتباهوا بلباسهم حيث كانت الثياب الناعمة وذات الألوان الزاهية الغالية الثمن ملبوسات الأغنياء يؤيد ذلك قول مطرود بن كعب الخز اعي:

ذكرني بالأزر الحمر والأ ردية الصفر القَشيبات[95]

أربعة كلهمّ سيّد أبناء سادات لسادات

وكان اللباس في المجتمع يعكس التفاوت في الثروة، والتماير الاجتماعي بين فئاته لأن مكانة الفرد الاجتماعية تقدر بما يملك، وبالتالي أصبح التمايز الاقتصادي يولد بالضرورة تمايزا اجتماعيا فيزداد الغني مكانه والفقير تدهورا ’مما كان لهذا أثر في ظهور حركات تمردية، فالصعلكة نتيجة مباشرة لهذا الشكل الاجتماعي الجديد.

وشغل الحج دورا كبيرا في ازدهار تجارة قريش جعلها تنظمه وتعقد له الأسواق لتبيع وتشتري في ظروف آمنة[96]، وكأن التجارة أصبحت ظاهرة اجتماعية تتفاعل إيجابيا مع العامل الديني.

---

[92]: انساب الأشراف ج1 ص232، الاصبهاني (أبي الفرج علي بن الحسين) الأغاني دار أحياء التراث العربي ج9 ص 56 يختصر إلى الأغاني..

[93]: مخالطة الشريكين للمال لسان العرب مادة شرك وخلط

[94]: أن تعطي آنسانا من مالك ما يتجر فيه على أن يكون الربح بينكما أويكون له سهم معلوم من الربح لسان العرب مادة ضرب.

[95] أبن هشام: السيرة ج1 ص146

وظهر الربا[97] نتيجة لهذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي، وكان في نظر القوم مصدرا لثراء الفئات العليا، وإعلاء كلمتها ولكنه كان في الوقت نفسه أحد أسباب سخط الناس عليه وعلى من يتعاطاه، لانه كان فاحشا جدا، وكان المرابون يستغلون حاجات الناس إلى المال، فيشتطون في الاستفادة من المقترضين ويتقاضون منهم فائدة كبيرة، ولم يمهلوا معسرا، ولم يتساهلوا في الأداء إلى وقت المسيرة، حتى بلغت الفائدة مائة بالمائة، فكان الدرهم يستوفى درهمين، والدينار دينارين يؤيد ذلك قوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** "[98]، مما أدى إلى استعباد الفئات المستضعفة، وغناء الفئات الأخرى، وبروز زعامات جديدة، فأمرة أبوسفيان للقافلة التجارية تعني أن بني أمية أخذوا يحتلون مكان الصدارة لأنهم أعظم التجار ثراء، وعقد حلف الفضول في دار عبد اللّه بن جدعان، دليل على المكانة الاجتماعية التي وصل إليها بسبب غناه، فقد كان يشرب بكأس من فضة ويأكل بصحاف من ذهب وفيه ورد المثل أقرى من حاسي الذهب[99] كما سبق قوله.

أضف لذلك ترجيحا ظاهرة انتشار الزنا بشقيه السري والعلني[100] تعود بشكل أوبآخر إلى الأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة، فلربما حمل الغني امرأة المستدين أوبنته على البغاء لإيفاء ما على أبيها أوزوجها من الدين الذي لم يكن سبيل إلى ايفائه لأنه يزداد على الدوام بما كان يضاف إليه من الربا الفاحش وقد صورهم القرآن الكريم بأنهم أناس متغطرسين غلاظ الأكباد، يرون أنفسهم فوق الناس لغناهم ولمكانتهم، لا يرحمون فقيرا، ولا يعطفون على يتيم، يأكلون أموال

---

(96): انظر فصل المناسبات.

(97): الزيادة على أصل المال من دون عقد تبايع، لسان العرب مادة ربا.

(98) :سورة آل عمران: الآية (25).

(99): الميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن أبر أهيم النيسابوري) مجمع الأمثال. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج2 ص 27 يختصر إلى ميداني: مجمع الأمثال

(100): انظر فصل الآسرة، وأنواع الانكحة.

اليتامى، ويقهرونهم ولا يعطونهم حقوقهم[101]، وإذا جاءهم سائل انتهروه وطردوه طردا قبيحا، وإذا طلب محروم منهم عونا أبعدوه عنهم، وإذا وزن بائعهم أنقص في الميزان، وإذا كال قصر في الكيل[102].

لعل التجارة والتعامل بالربا لم تكن مقصورة على القرشيين في مكة، أنما شاركهم بها وجهاء من ثقيف كأبي مسعود عمروبن عمير الثقفي سيد ثقيف الذي عد نفسه، والوليد بن المغيرة عظيمي القريتين"[103]، وفيهما نزلت الآية "**وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**"[104]، وتوثقت العلاقات الاقتصادية بين الحاضرتين، وارتبطت مصالح ووجهاء القبائل بمصالح كبار التجار في مكة حتى أن بعض المكيين أمثال العباس بن عبد المطلب كان لهم أراض في الطائف[105]وعاش كل هؤلاء على الربا بطفيلية مربحة دون تعب لذا فبعد نزول الوحي جاء تحريم الربا،واستمر التعامل بالربا إلى إن جاءت الآية الكريمة بقوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) [106].

أما المواد التي تاجروا بها فالأدم[107] من اليمن والطائف إلى بلاد الشام، وكان بعضها مصقولا معتنى به مزخرفا بالمذاهب عرف بالمذاهب[108] ونقلوا العطر من اليمن إلى مكة[109] وتاجروا بزبيب الطائف، ومعادن الحجاز، ورقيق أفريقية،

---

[101]: سورة الأنعام: الآية 152، سورة الإسراء: الآية 34، سورة الفجر الآية 17، سورة الضحى الآية 9.

[102]: سورة الرحمن: الآية 9، سورة المطففين: الآية 1 وما بعد.

[103]: أبن هشام: السيرة ج1، ص 387.

[104]: سورة الزخرف: الآية 31

[105]: أخبار مكة ج1 ص114، فتوح البلدان ص 68.

[106]: سورة البقرة: الآية 278

[107]: الجلد المدبوغ، لسان العرب مادة أدم.

[108]: الزبيدي (محمد مرتض الحسيني) تاج العروس، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت 1385 هـ – 1965. مادة ذهب يختصر إلى تاج العروس.

[109]: مقدسي، ص 97، الأغاني ج1 ص 64 – 65، علي: المفصل ج7 ص293، دلو، ج1 ث136.

وقمح مصر في بعض الاحيان، والزيت الركابي من بلاد الشام عرف بالزيت الركابي لانه كان يحمل على الإبل من الشام[110].

وكان لخشب الصندل شأن في التجارة المكية يأتيها من الصين، إضافة إلى التوابل والافاوية على اختلافها، والذهب والأحجار الكريمة والعاج وغيرها من السلع الرئيسة التي تفد إلى موانئ اليمن قبل أن تحملها القوافل إلى مكة، ولما كان سوق مكة لا يستوعب إلا القليل منها، فقد أخذت هذه السلع طريقها إلى الشام[111].

ذكرنا في البداية أنه كان للطبيعة أثر فعال في اقتصاد الحواضر، حيث حدد عمل القبائل لذلك اعتمدت يثرب على الزراعة كمورد هام في حياتها، واشتغل سكانها بدأب لاستثمار الإمكانات الطبيعية التي توافرت في المدينة وصيروها من أكبر المناطق الزراعية في شبه جزيرة العرب، ففيها أجمات النخيل، وبساتين الفواكه والخضراوات وحقول الحبوب وقد أشار امرؤ القيس إلى يثرب بقوله[112]:

علون بأنطاكية فوق عقمة ... كجرمة نخل أو كجنة يثرب

فالنخيل أهم مزروعات يثرب، وعليه اعتماد السكان، منه تدفع الأجور وتسدد الديون[113]، أضافه إلى الشعير والبقول والخضراوات والسلق والبصل والثوم والقثاء،

---

[110]: تاج العروس مادة ركب، علي: المفصل ج7 ص 293 – 294، شريف ص 205 – 206

[111] علي: المفصل ج7 ث290

[112] أي علون الجذور بثياب عملت بأنطاكية وتلك الثياب فوق عقمة وهي ضرب من الوشي وقوله كجرمه نخل هوما يصرم من البسر فشبه ما على الهوادج من ألوان الوشي بالبسر الأحمر والأصفر مع خضرة النخل والجنة البستان وخص يثرب لأنها كثيرة النخل ديوان امروء القيس ص 43 لسان العرب مادة جرم، علي المفضل ج7 ص 71.

[113] سمهودي ج2 ص 155، شريف 357.

وحب اللبان والليمون والسفرجل والخوخ والفل والموز والعنب والتين والرمان[114]، وكانت أوسع الأراضي وأخصبها، وأكثرها غلة بأيدي أثرياء اليهود وأحبارهم ووجهاء الاوس والخزرج.

استغل أهل المدينة أراضيهم الزراعية بالمؤاجرة أواستثمارها على الثلث أوالنصف أوأقل من ذلك أوأكثر[115]، وقد نجم عن الغبن في توزيع الناتج منازعات، وخصومات بين أصحاب الأراضي والمستأجرين والعاملين فيها، وكان الملاكون الكبار يستغلون حاجة أصحاب الأراضي الصغيرة أوالفقيرة الضعيفة الإنتاج إلى المال. فيضطرونهم إلى التخلي عن أراضيهم في حالة عجزهم عن تسديد الدين وفوائده العالية، أوإلى بيع ثمار نخلهم وأعنابهم مز ابنة[116] ومحاصيل شعيرهم وقمحهم محاقلة[117]،واعتمد سكان الطائف أيضا على الزراعة البعلية والمروية، فالحنطة الإنتاج الزراعي الأول فيها، كانت العير إذا قدمت من السراة والطائف، وغير ذلك تحمل الحنطة والحبوب والسمن والعسل إلى مكة[118]، وقد نسب البدوبما عرفوه عن أهل الطائف من دهاء وكياسة إلى اعتيادهم العيش على الحنطة حتى غدا ذلك مضرب الأمثال[119]،ووجدت الفواكه المتعددة فيها كالعنب والرمان والخوخ والتين والسفرجل والبطيخ والموز[120]، وضرب بزبيبها المثل[121].

---

[114] أبن هشام: السيرة ج2 ص144، ياقوت مادة مدينة، الفيروز أبادي: المغانم المطابة في معالم طابة ص 189.

[115] صحيح البخاري ج2 ص820 وما بعد،

[116] المز ابنة: اشتراء التمر بالتمر من رؤوس النخل. صحيح البخاري ج2 ص 763، الأفغاني:سواق العرب ص50ـ51.

[117] المحا قلة مفاعلة الحقل وهوالزرع، والمراد بيع الحنطة في سنبلها بحنطة صافية، صحيح البخاري ج2 ص 763 حاشية، الأفغاني: أسواق العرب ص 50. أسواق ص50

[118] :أخبار مكة ج 2 ص 239،

[119] دائرة المعارف الإسلامية مادة طائف.

[120] : فتوح البلدان ص 69 – 70 – مقدسي ص 79. ياقوت مادة طائف، رحلة ابن بطوطة ص 132 حتى ص151.

[121] مقدسي ص 79، ياقوت مادة الطائف

وقد تجاوز إنتاجها الزراعي حاجة الاستهلاك المحلي وتكون فائض للتبادل التجاري، وكانت هذه الزراعة مربحة، شجعت كبار تجار قريش في مكة على استثمار بعض أموالهم في ملكية الأرض كما لاحظنا فيما سبق من صفحات، مما يدل على نشوء الملكية الخاصة، وتلاشي الملكية الجماعية، وتضامن الحواضر وتآلفها وتعاونها على أساس المصلحة المشتركة، لا على أساس العصبية القبلية، فالطائف كانت مصيفا لاهل مكة[122]. وكانتا تسميان بالقريتين وعرفتا بالمكتين وبعد أن كان العربي يزدري الحرفة، نجد أنها تطورت، وعمل بها الأحرار والعبيد، وظهرت صناعات جديدة إلى جانب ما كان قائما وأدخلت بعض التقنيات على وسائلها وطرقها بهدف زيادة الإنتاج وتحسين نوعه وانقسم المجتمع إلى أهل صناعة وأهل زراعة وأهل تجارة وصار الإنتاج اجتماعيا بضا عيا أي للمبادلة، وليس للحاجة الضرورية ونشأت الأسواق، وتزامنت مع موسم الحج فتعددت فيها الأغراض وانعكس ذلك على الوضع الاقتصادي والاجتماعي للحواضر[123].

من بين هذه الصناعات التعدين والصناعات المعدنية ففي حديث خباب بن الارت " كنت قيناً في الجاهلية اعمل السيوف[124]، أن هذه الصناعة كانت متوفرة ـ وقد ضربت العرب المثل بجودة ودقة صناعته، ونسبت اليه[125]، وكان العاص بن هشام أخو أبى جهل والوليد بن المغيرة وهما من أشراف قريش حدادين.

أضف إلى ذلك انه ارتبطت الحدادة بالزراعة في بعض الحواضر كما هوالحال في يثرب[126]. فكان الحدادون يصنعون ما يحتاج اليه الفلاحون والمزارعون من محاريث ومساح وفؤوس لحراثة الأرض، وعمل بهذه الصناعة أناس من العرب

---

[122] انظر الوضع الجغرافي

[123] : انظر فصل المناسبات.

[124] ابن هشام: السيرة ج 1 ص 383، انساب الأشراف ج1 ص 176 وما بعد، ابن الأثير (عز الدين أبى الحسن علي بن أبى الكرم)، أسد الغابة في معرفة الصحابة ج 2 ص 98 يختصر إلى أسد الغابة، لسان العرب مادة قين، علي: المفصل ج 7 ص 555.

[125] تاج العروس مادة خبب.

[126] شريف ص 376، سالم ص 405.

واليهـود والمـوالي والعبيـد ، وان كـان المـوالي والعبيـد اكثـر احترافـا لهـا كأبوسيف[127].

ووجدت صناعة الأسلحة والدروع في يثرب وقد احتكرها اليهود ،ففي حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) انه غنم كل ما لدى بني النضير من سلاح الحلقة والدروع[128]. كما غنم من بني قريظة الدروع[129].

أما صناعة الغزل والنسيج فلم تخل حواضر الحجاز منها. فكان مجمع الزاهد حائكا[130]. والعوام أبوالزبير، وعثمان بن طلحة، وقيس بن مخرمة خياطين[131]. واشتهرت الطائف بالدباغة، فقد ذكر أن الطائف بلد الدباغ يدبغ بها ألاهب الطائفية المعروكة[132].

وعرفوا بعض الصناعات الغذائية فبنوا سليم كانوا يبيعون السمن في أسواق المدينة[133]، أضف إلى ذلك معرفة أهل المدينة بضاعة الخمور والمكاتل والقفف التي قامت على سعف النخل، ومعرفة أهل الطائف بعمل الزبيب حتى ضرب بحسنة المثل[134] .ولم تخل الحواضر من النجارين فكان عتبة بن أبى وقاص أخوسعد نجارا[135]، ولقد عمل أمية بن خلف بضاعة الأواني الفخارية[136].

وبما أنه انقسم المجتمع انقسم إلى فئات غنية وفقيرة بسبب الوضع الاقتصادي الذي كان سائدا، فقد اقبل الأثرياء على شراء المصوغات لنسائهم وفتياتهم،

---

(127) أسد الغابة ج1 ص 38 -39 لم يذكر من هوأبوسيف.

(128) البلاذري: فتوح البلدان ص 31.

(129) ابن سعد: الطبقات الكبرى. لجنة نشر الثقافة الإسلامية ج3 ص 117

(130) ابن قتيبة: المعارف ص 577.

(131) ابن قتيبة: المعارف ص 577.

(132) الصفة: ص 260. ياقوت مادة طائف.

(133) ابن شبة : تاريخ المدينة المنورة ج1 ص 306 حاشية سمهودي: ج2 ص 47 ومت بعد.

(134): اصطخري ص 24، ياقوت مادة طائف.

(135) ابن قتيبة: المعارف ص 575، ابن رستة: الاعلاق النفسية ص 215.

(136) ابن قتيبة: المعارف ص 575، ابن رستة: الاعلاق النفسية ص 215.

فنشطت صناعة الحلي وكانت تعتمد على الذهب والفضة والأحجار الكريمة فاشتهر بها اليهود كبني قينقاع، وكانت لهم سوق الصاغة[137].

من دراسة الوضع الاقتصادي في الحجاز نستطيع أن نبرز الحقائق التالية وهي أن الطبيعة التي جعلت مكة تتبوأ مركز الصدارة في التجارة لتنافسها زراعيا المدينة والطائف ولينتج عن ذلك نشوء العديد من الصناعات، فقد تطورت القوى المنتجة وتوسعت أعمال الصناعة، وازداد الإنتاج وتكون فائض للتبادل وحدث تقسيم للعمل جديد، وانفصلت الحرفة عن الزراعة، وارتبط الإنتاج الصناعي بسوق التبادل التجاري، وازدهرت حواضر عديدة ونظمت الأسواق التجارية فازداد العرب تقاربا وتآلفا على أساس المصلحة المشتركة، إلا أن الملكية الجماعية للأرض والكلأ تلاشت وحل محلها الملكية الخاصة، فكانت معظم الأراضي ملكا للكبار والأثرياء، واستتبع التفاوت في الملكية والثروة تفاوتا في المعيشة وتمايزا اجتماعيا بين أفراد القبيلة الواحدة فانقسم أبناؤها الأحرار إلى أغنياء وفقراء. إضافة إلى الانقسام الذي كان قائما بين الأحرار والعبيد وبالتالي اصبح الفقراء يعملون لحساب الأغنياء واصبح للمال الدور الأول في الحياة الاقتصادية والاجتماعية فتفككت روابط المجتمع وظهرت روابط جديدة على أساس من المصالح المشتركة والضرورات الدفاعية. فأبولهب مثلا رغم انه من قريش وعم النبي (صلى الله عليه وسلم) نصب العداوة[138]، له لما رأى أن مصالحه تتهدد وقد انزل الله تعالى فيه وفي امرأته قوله تعالى: " **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** "[139].

3ـ الوضع السياسي:

عاش قدماء العرب في الحجاز كما في غيره من أقاليم شبه الجزيرة العربية في ظل المشاعة العشيرة، أونطاق الترابط الجماعي البدائي على أساس صلة الدم

---

(137) ابن هشام: السيرة ج 3 ص51

(138) ابن هشام: السيرة ج1 ص 380 – 381.

(139) سورة المسد: الآية 1 -2 -3 -4 -5.

والنسب، ولم يكن آنذاك وجود للملكية الخاصة، ولا للحكومة وأجهزتها ومؤسساتها المختلفة.

ولعلنا وجدنا فيما بعد حدوث تغييرات على المستوى الاقتصادي أدت إلى ظهور الملكية الخاصة، وتلاشي الملكية الجماعية كما شاهدنا في الوضع الاقتصادي فانعكس ذلك على المجتمع، وأدى إلى ظهور أشكال من التفاوت والتمايز بين أعضائه وترتيب مواقعهم الاجتماعية ضمن المجتمع على أساس الثروة مجتازا التقاليد والأعراف التي كانت سائدة في السابق. وقد انتج هذا التطور الاقتصادي – الاجتماعي مؤسسة سياسية نظمت العلاقة بين الفئة المالكة لوسائل الإنتاج والفئات الاجتماعية الأخرى الخاضعة لاستغلالها الاقتصادي وأضفت على هذه العلاقة شرعيتها.

ولكي نفهم الواقع الذي تمخض عن ظهور هذه المؤسسة لابد لنا من الرجوع قليلا إلى الوراء لمعرفة الجذور التاريخية التي أسهمت في تكوينها.

الجذر الأول:

تمثله مكة الحنيفة المتصلة بعهد إبراهيم وابنه والبيت الذي أقاماه على ربوة حمراء[140]، بيد أن هذه الفترة على أهميتها محاطة بالكثير من الغموض، لاسيما التحديد الزمني للفترة التي اتخذت مكة من خلالها موقعها المميز في شمالي الجزيرة العربية.

الجذر الثاني:

تمثله مكة الخزاعية بزعامة عمروبن لحي الذي عمل تنشيط التجارة، وتسيير شؤون الحج، فأقام موائد الطعام للحجيج، وجلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة، ونصب الأصنام في الكعبة وما حولها، حتى يرغب القبائل العربية، وبخاصة قبائل الشمال في الحج إلى بيت مكة[141].

---

[140] مروج الذهب ج 2 ص 18 – 19.

[141] أخبار مكة ج1 ص100

كانت هذه الفترة اكثر وضوحا من الفترة السابقة ففيها تم الانقلاب الديني استجابة لضغط القبائل المحيطة بمكة، اوالمتعاملة معها خارج الحجاز، والتي تدين بالعقيدة الوثنية، وبذلك يكون عمروبن لحي المؤسس الأول للمجتمع المكي، وواضع بواكيره التنظيمية.

ـ الجذر الثالث:

تمثله مكة القرشية التي دانت في تكوينها لقصي بن كلاب فبدت كالقلب النابض وسط تطاحن قبلي دائرعلى أطراف شبه الجزيرة العربية. فكانت قريش أثناء حكم خزاعة لمكة تحل في الشعاب، والجبال وأطراف مكة وما حولها[142]، فكثر مال زعيمها قصي بن كلاب، وعظم شرفه[143] وبما انه تزوج ابنة سيد خزاعة حليل بن حبشية[144]، رأى أنه أولى بالبيت وأمر مكة، ولكنه لم يصل إلى ذلك إلا بعد قتال مرير[145]

إن وصول قصي لزعامة مكة. شكل نقطة تحول في تاريخ مكة السياسي والاقتصادي والاجتماعي قبل الاسلام، استند إلى المال بالدرجة الأولى، وليس إلى عرف قبلي تقليدي مقرر. فبعد أن أستقر الأمر له، قطع مكة أرباعا بين قومه، وأنزل كل حي من قريش منازلهم في مكة التي أصبحوا عليها[146]، فمن كانت حالتهم المادية حسنة أنزلهم في بطاح مكة حول الكعبة وهم قريش البطاح[147]،

---

[142] أنساب الأشراف ج1 ص49

[143] تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 255، أبن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) العبر وديوان المبتدأ والخبر، منشورات مؤسسة الأعلمي – بيروت – لبنان ج2 ص334 يختصر إلى أبن خلدون، العبر.

[144] مروج الذهب ج2 ص31، البداية والنهاية ج2 ص187، أبن خلدون: العبر ج2 ص334

[145] أبن هشام: السيرة ج1 ص 130 وما بعد تاريخ الرسل والملوك ج2 ص256،ابن خلدون: العبر ج2 ص334

[146] أبن هشام: السيرة ج1 ص 132، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص258، ياقوت، مادة مكة، البداية والنهايةج2ص207

[147] أنظر فصل القبيلة والبطون التي تعد من قريش البطاح.

وكان منهم التجار والأثرياء، وأسكن من لم تكن حالتهم المالية حسنة في ظواهر مكة وهم قريش الظواهر[148].

بعد ذلك ابتني دار الندوة، وجعل بابها إلى البيت، ففيها كانت قريش تقضي أمورها[149]، فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار الندوة ولا يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فيها وما تدرع جارية[150] إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه، وينطلق بها إلى أهلها، ولا يعذر[151] غلام إلا في دار الندوة ولا يخرج عير من قريش، فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون الانزلوا فيها، فكان أمره في قومه أثناء حياته، وبعد مماته كالدين المتبع لا يعمل بغيره تيمنا برأيه، وتشريفا له ومعرفة بفضله[152]، وبذلك يكون قد كرس صيغة الحكم الفردي في مكة.

أنما سميت الندوة لأن قريشا كانوا ينتدون فيها، أي يجتمعون للخير والشر[153]، وبالطبع كانت إدارتها بيد الشريحة الاجتماعية العليا من قريش، لأن الملأ يستمد مضمونه من دلالته اللغوية فالملأ أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم، والملأ القوم ذووالشارة أي ذووالمظهر الحسن[154]، وقد جعل قصي امتيازاً لهم بحق دخولها فلم يكن يدخلها من غير ولد قصي إلا أبن أربعين سنة للمشورة، وكان يدخلها أولاد قصي أجمعين حتى من كان منهم دون الأربعين[155].

---

[148] أنظر فصل القبيلة والبطون التي تعد من قريش الظواهر.

[149] أبن هشام: السيرة ج1 ص132، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص259، الكامل في التاريخ ج2 ص21.

[150] أد رعت الجارية لبست الدرع، ودرع المرأة قميصها، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص259 حاشية.

[151] يختن والأعذار الختان أووليمة تقدم أثناء الختان لسان العرب مادة عذر،

[152] أبن هشام: السيرة ج1، ص132، تاريخ الرسل والملوك،ج2، ص259، الكامل في التاريخ، ج2 ص21، ياقوت مادة مكة.

[153] أخبار مكة ج1 ص110، الأغاني ج4 ص384 حاشية، ياقوت مادة مكة: زيدان (جرجي) العرب قبل الاسلام – دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان ث330 يختصر إلى جرجي: العرب قبل الإسلام

[154] لسان العرب مادة ملأ. تاج العروس مادة ملأ.

[155] أخبار مكة ج 1 ص 109.

وذلك امتياز لذوي السلطة جديد ، أي أقتصر حق العضوية على أصحاب النفوذ الـذين بلغـوا في مـوقعهم الاجتمـاعي والاقتصـادي حـداً يمكـنهم مـن الأنتـداء إلى المجلس، فيتشاورون ويتحدثون دون أن يكون لذلك صفة الزامية أوتقريرية. وكانت تتمتع هذه المؤسسة السياسية بسلطات تشريعية تنفيذية ، قضائية إدارية ، فهي تتناول الشؤون العامة والخاصة لسكان مكة.

وبعد أن كبر قصي أوصى بسلطاته لولده البكر[156] عبد الدار قائلا له: أما والله لألحقنك بالقوم، وإذا كانوا قد شرفوا عليك فجعل له الوظائف التالية الندوة والحجابة والسقاية والرقادة واللواء[157]، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه[158] لأنه على ما يبدوأكثر غنا من عبد الدار، ولكي يتوازى الأخوان في الشرف عهد لعبد الدار بالمرافق الحيوية السابقة الذكر.

فإذا دل هذا على شيء فانه يدل على أن السلطة في مكة كانت عبارة عن مراكز نفوذ تقررها الأهمية الاقتصادية والثروة دون أن يكون لاسرة اوزعيم السيادة الكاملة على غرار ما كان لقصي زعيم قريش الأول ولعله أراد استمرار هذه الصيغة وراثية في أبنائه فهيأ عبد الدار لذلك كي يكون زعيما لمكة.

وقد أدى غياب قصي كزعيم مؤسس إلى تفجير أزمة الحكم في مكة وانقلاب بني عبد مناف ضد بني عبد الدار لانتزاع السلطة الفعلية منهم، فهل كانت نتيجة ذلك عودة الحكم الفردي إلى مكة ؟

بالطبع لم يتحقق ذلك لأن أحدا من الأخوة الأربعة عبد مناف، عبد الدار عبد العزى، عبد قصي لم يتح له الاستئثار بالسلطة، أوالانفراد بها ، ولكنه أسهم في تكريس صيغة حكم الأقلية ، ونتج عن ذلك ولادة زعامات جديدة ، كان لها دورها في تمزيق الوحدة القبلية ، وبعثرة مصالحها ، واضطراب انتماءاتها ، فظهرت

---

[156] ابن هشام: السيرة ج 1 ص 136، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 259، الكامل في التاريخ ج 2 ص21.

[157] أخبار مكة ج 1 ص 107، تاريخ الرسل والملوك ج2، ص 260، البداية والنهاية ج2 ص 209.

[158] ابن هشام: السيرة ج 1 ص 136، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 259. الكامل في التاريخ ج 2 ص 21، البداية والنهاية ج 2 ص 209.

التكتلات بخلفيتها التجارية الواضحة معبرة بصورة ما عن طبيعة هذه المرحلة سواء في الصراع بين مراكز النفوذ القديمة والجديدة، أو في التفاوت الاجتماعي الذي أسفر عنه.

فكان حلف المطيبين باكورة التكتلات، ونتيجة للصراعات الداخلية في أحد أهم مراكز النفوذ، وكمحاولة لتطويق طموح المراكز الأخرى، والحد من أخطارها، عقد في مكة بين بني أسد بن عبد العزى، وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة، وبني الحارث بن فهر بن مالك، وبين بني عبد مناف[159] لاعادة توزيع المرافق الاقتصادية في مكة بين جميع القبائل،

ثم قام تكتل آخر منافس حلف الأحلاف بين بني مخزوم وبني سهم، وبين جمح، وبني عدي بن كعب، وبين بني عبد الدار[160]، واتفقوا على ألا يغيروا شيئا مما كان قد فعله قصي، أي أن تبقى جميع المرافق الاقتصادية في مكة بأيدي عبد الدار، وتحالفوا وتعاقدوا على ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضا[161]، لقد كانت المنافسة شديدة بين أطراف الكتلتين، فالأول يهدف إلى دعم مواقعه السياسية والاقتصادية، والثاني حرص على حماية مصالحة وإثبات وجوده في مرحلة من الفرز الحاسم للفئات المتصارعة اتخذت القوة سبيلا إلى تحقيق أهدافها الحيوية " لتفن كل قبيلة من أسند إليها "[162] ذلك الشعار الذي عبر عن حدة الصراع، وضراوة التنافس بين الحليفين.

لم تتجاوز هذه الحرب المنتظر اندلاعها حدود التعبئة النفسية، وتحولت المجابهة إلى مهادنة، واستبدل قرار التصفية بميثاق للتعايش وتسوية للخلافات وذلك لأن مكة كموقع اقتصادي متميز ستكون المتضررة الأولى من هذا الصراع الذي

---

[159] أبن هشام: السيرة ج1 ص138، مروج الذهب ج2 ص33، ياقوت مادة مكة، الكامل في التاريخ ج1 ص453، البداية والنهاية ج2 ص209

[160] أبن هشام: السيرة ج1 ص139، مروج الذهب ج2، ص32، ياقوت مادة مكة، الكامل في التاريخ ج1 ص453، البداية والنهاية ج2 ص 209.

[161] أبن هشام: السيرة ج1 ص139، الكامل في التاريخ ج1 ص454.

[162] أبن هشام: السيرة ج1 ص139، ياقوت مادة مكة، الكامل في التاريخ ج1 ص454.

ستصيب سلبياته الأحلاف والمطيبين على السواء. وخرج حلف المطيبين معزز الموقع، محافظا على السلطة الفعلية المتوارثة فحقق ما طمح إلى تحقيقه، بينما اقتصرت مكاسب الأحلاف على وظائف الشرف كالحجابة واللواء والندوة[163]، التي جاءت بمثابة ترضية معنوية لبني عبد الدار، ولعل الإنجاز الأكثر أهمية الذي حققه هذا التكتل هوالاعتراف بشراكته للمطيبين في زعامة المدينة رغم التفاوت في الثروة والنفوذ بين كلا التحالفين.

إذا كانت العلاقة واضحة بين الثراء والنفوذ السياسي للفرد، فقد ظهرت جيوب مستقلة أومتعارضة مع مركز النفوذ وذلك في فرع أوأكثر من العائلة القرشية الكبيرة نتيجة التطور المذهل للتجارة المكية بمصادرها المتوعة وحرية التكسب فيها.

ولكي يعزز الملأ سلطته استخدم فرقة عسكرية (الأحابيش) قيل قوامها العبيد السود والمرتزقة العرب (وكان تحالف الأحابيش على الركن يقوم رجل من قريش والآخر من الأحابيش فيضعان أيديهما على الركن فيحلفان بالله القاتل وحرمه هذا البيت، والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض، ومن عليها، وعلى التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعا ما بل بحر صوفة وما قام حري وثبير وماطلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة)[164].

وقد ظل الأحابيش قوة عسكرية إلى ما بعد ظهور الإسلام وحاربوا مع قريش يوم أحد، وقد رأسهم أبوعامر المعروف بالراهب[165]، وساهموا أيضا في الدفاع عن مكة عام الفتح[166]، وفي ذلك مظهر أولي لشكل من أشكال الدولة، فدار الندوة الجنين الذي تكون نتيجة التناقض بين القوى الاجتماعية القابضة على الزمام

---

[163] أبن هشام: السيرة ج1 ص139، ياقوت مادة مكة، الكامل في التاريخ ج1 ص454.

[164] اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) تاريخ اليعقوبي ج1 ص278 – 279 يختصر إلى يعقوبي تاريخ

[165] الواقدي: (محمد بن عمر). المغازي. تحقيق الدكتور مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان ج1 ص207 يختصر على مغازي الواقدي. أبن هشام: السيرة ج3 ص65، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص512،

[166] مغازي الواقدي ج2 ص783، تاريخ الرسل والملوك ج3 ص65

والقوى الاجتماعية الأخرى المؤهلة موضوعيا، أنه جنين دولة التجاروالمرابين، ومستغلي سائر المنتجين من الأحرار والموالي والعبيد[167].

أما في البادية فقد ظهر شكل من التنظيم السياسي يتناسب مع التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تحدث ببطء ظاهر وكما تحكمت البيئة في أسلوب معيشة الحواضر فمن المؤكد أن تتحكم في البادية بشكل أكبر، فليس للإنسان من سيطرة على الظروف المناخية سوى التنقل، وهوتنقل قسري. بحثا عن الكلأ والماء، فارتكزت القاعدة الاقتصادية على تربية الماشية[168]، وجدوا في امتلاك أكبر عدد منها سواء عن طريق الغزوالمسلح أوعن طريق السلب والنهب، وتضامنوا على أساس صلة الدم والنسب والأخوة حفاظا على ممتلكاتهم وأنعامهم، وكان شعارهم انصر أخاك ظالما كان أومظلوما[169].

وقد أفضى تطور القوى المنتجة، وتوسع العلاقات التجارية بين مكة وأعراب البادية إلى تفكيك الروابط القبلية الجماعية البدائية وظهور الملكية الخاصة، أي أن تطور الاقتصاد الحضري كان له دور رئيس في تفكك الملكية الجماعية البدائية التي قام عليها الاقتصاد البدوي، وكانت أبرز مظاهره تملك سادات القبائل ووجهائها لقطعان الماشية وموارد المياه، والجد في تنمية ثرواتهم بوسائل مختلفة، ففي الغزوحصلوا على حصة الأسد من الغنائم وفي ذلك قول الشاعر عبد الله بن عنمه الضبي[170].

---

[167] مروه (حسين) النزعات المادية في الفلسفة العربية، دار الفارابي بيروت 1978 – 1979 م ج1 ص236 – 237 – يختصر إلى النزعات المادية،

[168] بلاشير: تاريخ الأدب العربي ترجمة إبراهيم الكيلاني ط2 404 هـ. 1984 م. دار الفكر بدمشق ص38، يختصر إلى بلاشير تاريخ الأدب، حتى: ص49.

[169] انظر فصل القبيلة والعصبية القبلية.

[170] الأصمعي (أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك) الاصمعيات. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. عبد السلام هارون. دار المعارف بمصر ص28 يختصر إلى الاصمعيات. الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص23، حسن: حضارة ص73، حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج1 ص62،

لـــك المـــربـــاع والصـــفايا وحكمـــك والنشـــيطة والفضـــول

فنشأت داخل القبائل فئات متمايزة عن بعضها في الثروة والحقوق، وأدى ذلك إلى التمايز الاجتماعي، مما كان لهذا أثر في تولي الرئاسة، وولادة شكل من السلطة يتناسب مع الملكية الخاصة، وبالتالي إيجاد قوانين تحمي أموال المالكين، وتجبر الفقراء والمساكين على الخنوع والسكينة، وظهر مجلس القبيلة بصورة أختلف في تركيبه ومهامه وسلطاته عما كان عليه في السابق، فرئيس القبيلة مسؤول مباشرة عن قبيلته أيام السلم والحرب تنتخبه[171]، القبيلة ممن توافرت فيه خصال منها الشجاعة والجود والغيرة وسعة الثروة وسداد الرأي، وكمال التجربة مع كبر السن[172] حيث سادت الروح الديمقراطية المجتمع القبلي أضف إلى ذلك أنهم اشترطوا في اختيارهم له أن يكون أشدهم عصبية حتى يكون له الانتصار بعصبيته ما يمكن له من الرياسة، ومن إطاعة القبيلة له، واحترامها لرأيه " فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية، فإذا نظرنا في أهل العصبية، ومن حصل لهم من الغلب على كثير من النواحي والأمم، فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم، والعفوعن الزلات والاحتمال من غير القادر، والقرى للضيوف، وحمل الكل، وكسب المعدم، والصبر على المكاره، والوفاء بالعهد، وبذل الأموال في صون الأعراض[173]. وقد استغلوا ظاهرة الكرم لدعم سلطتهم، لانهم اعتبروها إحدى مظاهر السيادة كقول حاتم[174]:

يقولـون لـي أهلكـت مالـك فاقتصـد ومـا كنـت لـولا مـا تقولـون سـيدا

---

(171) بلاشير: تاريخ الأدب ص 39، حتى ص 57

(172) بلاشير: تاريخ الأدب ص 40، حتي ص57، شريف ص25، حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج1 ص62

(173) أبن خلدون: المقدمة ص 143.

(174) ديوان حاتم ص41، الحوفي (أحمد محمد)، الحياة العربية من الشعر الجاهلي دار القلم، بيروت – لبنان ص 310 يختصر إلى الحوفي الحياة العربية، حسن: حضارة ص90، سالم ص 441،

فأصبحت سلطة الرئيس في ظروف نشؤ الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين أبناء القبيلة لا تستمد وجودها من الأعراف المقررة وحدها بل صارت تستمدها أيضا من قوة المال، فسعوا كل ما أمكنهم سعيه للغني حتى ولوعلى حساب استغلال الرعاة البدووعملهم، وفي ذلك قول عروة بن الورد[175]:

دعيني للغنى أسعى فاني — رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم لديهم — وأن أمس له حسب وخير

ويقصه الندي وتزدريه — حليلته وينهره الصغير

ويلفى ذوالغنى وله جلال — يكاد فؤاد صاحبة يطير

فأعضاء مجلس القبيلة وإن كانوا من الوجهاء والأثرياء ومن بسطاء الناس الذين لا يملكون شيئا، إلا أن القوة المهيمنة تبقى لذوي المال والثروة، أما ماعداهم، فلم يكن لهم أي نفوذ، أومنزلة، عليهم الإطاعة، والعمل برأي السادة الذين يديرون مناقشات المجلس: ويتولون المفاوضات مع القبائل الأخرى ويقومون بفض المنازعات، ويحكمون في الخلافات إذا لجأ إليهم المتخاصمون، وهم المسؤولون عن استضافة الذين يؤمون مضارب القبيلة، وهم الذين يقررون أمر الترحل الجماعي للقبيلة، ويحددون زمانه ومكانه.

غير أن هذا التنظيم البدائي للسلطة المتمثلة في مجلس القبيلة وأعضائه من وجهاء العشائر والبطون، إضافة إلى شاعر القبيلة الذي له مكانته لان موهبة الشعر من صفات الكمال[176] وخطيبها الذي هولسان القبيلة في منافراتها ومناظراتها،

---

[175] ديوان عروة بن الورد، شرح أبن السكيت يعقوب بن إسحاق. تحقيق عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي ص91 يختصر إلى ديوان عروة بن الورد.

[176] اليعقوبي: تاريخ ج1 ص 304، آلوسي ج3 ص84، علي: المفصل ج9 ص70، الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص31 – 32. شريف ص 26، سالم ص 404،

وحاكم القبيلة وفرسانها[177]، لم يرق إلى مستوى التنظيم السياسي لمجتمع دار الندوة أوالملأ في مكة.

يبقى وجه الشبه بين كلا التنظيمين أن القوة المهيمنة صارت لذوي الثروة والجاه، ففي مكة كانت الزعامة القرشية تشمل أموالا موظفة في أعمال تجارية وفي استثمار الأراضي وبعض الموارد في مناطق أخرى وخاصة الطائف، أي أن السلطة والحكم كان بأيدي التجار والمرابين والأشراف، وكان لهذه السلطة أجهزتها ومؤسساتها كالسدانة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، ولما حدث الصدام استحدثت مؤسسات أخرى كالمشورة والاشناق (الديات) والقبة والأعنة والسفارة والحكومة والأموال المحجرة[178] أرضت شعور العشائر، وأشعرتها بمشاركتها وحفظت تماسك القبيلة في حين لم يكن لحكومات القبائل أي مؤسسة مقابلة لذلك.

الوضع الديني

قبل البحث عن الوضع الديني في الحجاز، علينا أن نعرف ما هوالدين، وما هي ماهيته ؟ فقد اختلفت الآراء في تحديد هذا الموضوع، وهي الدين إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر لها أثر في حياة هذا الكون، لأنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الإنسان، أوشعور وتفكير عند فرد أوجماعة وبين الكائن أوالكائنات الإلهية،[179] والدين في تعريف اللغة الجزاء والحساب، ومنه قوله تعالى: (**مالك يوم الدين**)، والدين الطاعة والعادة والشأن، فقالت العرب مازال ذلك ديني وديدني أي عادتي[180].

---

[177] اليعقوبي: تاريخ ج1 ص304، الأغاني ج3 ص25، الوسي ج3 ص151، شريف ص26، رفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص 34،

[178] زيدان: جرجي تاريخ التمدن الإسلامي – دار الهلا ل ج 1 ص 37 – 39، يختصر إلى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي.

[179] علي: المفصل ج6 ص 5ـ6.

[180] لسان العرب مادة دين،

فالدين ليس عمل فردي، وإن كان للفرد في ذلك أهمية كبيرة، فقد كانت الأديان القديمة متباينة مختلفة منهم من اعترف بالخالق وأنكر البعث، ومنهم من عبد الأصنام، ومنهم من مال إلى اليهودية، وصنف مال إلى النصرانية[181]،ولعلنا نرى أن الأديان القديمة إجماعية تتعلق بالقبيلة كلها، فالإله للقبيلة يحميها ويشمل برعايته كافة أفرادها، فلا يمكن للمرء تغيير ديانته إلا إذ ا غير قبيلته، وهوأمر ليس من السهل القيام به.

ومن دين ديان بمعنى الحكم القاضي والقهار، ومنه شعر الأعشى الحرمازي يخاطب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **يا سيد الناس وديان العرب**"[182]

والديان الله ومن أسماء الله[183]، وقد وردت لفظة دين في شعر ينسب لأمية بن أبي الصلت[184]:

كـل ديـن يـوم القيامـة عنـد اللـه إلا ديـن الحنيفـة زور

إذا اختلفت الأراء حول تحديد لفظة دين، وتقوم الأن دراسات حول تاريخ الأديان، وعلم النفس الديني، باعتبار أن الدين نفسه ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية[185]، فكل دين ظهر في التاريخ كانت له جذوره التاريخية في الموطن الذي ظهر فيه، وجذوره المعرفية المتصلة بالواقع البشري، بحيث ارتبط الدين بمستوى تطور العقل البشري الذي ظهرت فيه بذور التفكير النظري. وإمكانية الفصل بين الفكر والواقع.

---

(181) سبائك ص 435 ـ 436

(182) لسان العرب مادة دين، داوود (جرجس) أديان العرب قبل الاسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي ط 1 1404 هـ 1981 م ' المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ص 175 يختصر إلى جرجس أديان

(183) لسان العرب مادة دين، جرجس: أديان ص 175.

(184) الأغاني ج4 ص 122

(185) علي: المفصل ج6 ص 9،

ومع تطور القوى المنتجة، وحدوث التقسيم الاجتماعي للعمل، ظهرت أشكال عديدة من الدين كالطوطمية[186]، والتوحيدية[187] والحنيفية[188] واليهودية والمسيحية والوثنية.....الخ تأثرت بمؤثرات خارجية وذلك بحكم صلات العرب التجارية والحضارية مع بلاد الشام، وفارس وغيرها من البلدان المتحضرة.

فإذا حاولنا أن نبحث عن أديان العرب في الحجاز قبيل الإسلام فالقرآن هومصدرنا في هذا الباب، ففيه ذكر لما كانت عليه الحجاز من عبادات[189]، وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل، إضافة إلى الحديث الشريف، والشعر المنسوب إلى الشعراء الجاهليين حيث نجد إشارات إلى بعض عقائد الجاهلين وإلى بعض الأصنام، أضف إلى ذلك كتب التاريخ ومؤلفات خاصة في الأصنام، وكتب الأدب والمعاجم وغيرها.

وقد كانت عبادة الأسلاف معروفة عند عرب الجاهلية في الحجاز تمجيدا لهم، أوللخوف منهم، ويتبين من تشدد الرسول صلى الله عليه وسلم في تسوية القبور مع الأرض أن المشركين كانوا يقدسون قبور أسلافهم، ويتعبدون لها على طريقة عبادة الأسلاف، ولهذا حاربها الرسول صل الله عليه وسلم وأمر بتسوية القبور[190].

---

[186] اعتقاد بعض القبائل بوجود صلة لهم بحيوان أونبات يكون في نظرها مقدسا، فإذا كان حيوانا لا تقدم على قتله أونباتا فلا تقطعه ولا تأكله إلا في أوقات المجاعة والشدة، خان: الأساطير العربية قبل الاسلام ص 25 وجرجس: أديان ص 13 وفي (علي عبد الواحد)، الآسرة والمجتمع، دار أحياء الكتب العربية ط 1367 هـ ـ 1948 م ص 7 يختصر إلى وافي، ضيف (شوقي) العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر ص 89 يختصر إلى شوقي العصر الجاهلي

[187] الإيمان بالله وحده لا شريك له . لسان العرب مادة وحد.

[188] من كان على دين إبراهيم لسان العرب مادة حنف

[189] وردت في القرآن الكريم آيات متعددة أشارت إلى الحالة الدينية لعرب الحجاز في الفترة السابقة على ظهور الاسلام، سورة العنكبوت: الآية 61 – 63، سورة لقمان الآية 25، سورة الزمر: الاية 38، سورة الزخرف: الآية 87، سورة يونس الآية 18 –22، سورة فاطر: الآية 42، سورة النحل: الآية 53 ـ 54 سورة الأنعام الآية 100، سورة النساء: الآية 60،

[190] صحيح البخاري ج1 ص168،

أما تقديس الأشياء المادية كالحجارة مثلا، اعتقادا بوجود قوة سحرية (الروح) تحل فيها، فقد كانت أكثر الديانات البدائية شيوعا في الحجاز. كان الرجل منهم إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار[191]، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا، وجعل ثلاثة أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون، ويذبحون عندها، ويتقربون إليها وكان من الجاهليين من يختار الأحجار الغريبة فيتعبد لها، فإذا رأى حجرا أحسن ترك الحجارة القديمة، وأخذ الحجارة الجديدة يؤيد ذلك قول الطبري في تفسير الآية الكريمة "**أرأيت من اتخذ إلهه هواه**"[192]، أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به، وأخذ الآخر يعبده. فكان إلهه ومعبودة ما يتخذه لنفسه[193].

فإن دل هذا على شيء فانه يدل على أن أقدم آلهة العرب كانت أرضية متصلة بالتربة، وهذا أمر طبيعي لسكان البيد والصحراء فبما أن الحجر جزء من تلك التربة، ففيه شيء من روح الاله، ولهذا كان العربي يحتمله معه في أسفاره تيمنا به وتفاؤلا، وأمنوا بوجود صلة لهم بحيوان أونبات[194]، إلا أن ذلك بقي أقل انتشارا مع أن أثارة بقيت في أسماء بعض القبائل وفي عبادة بعض القبائل وفي عبادة بعض النباتات، فقد كانوا يمتنعون عن أكل الحيوان المعبود أوالنبات، فإذا فعلوا ذلك فيكون للضرورة، كما فعل بنوحنيفة عندما عبدوا إلها من حيس ثم أصابتهم مجاعة، دفعتهم إلى مخالفة هذا التحريم فأكلوه فقال بعضهم[195]

---

[191] أبن الكلبي (أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي) الأصنام، تحقيق أحمد زكي نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب 1343 هـ – 1924 م دار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1384 ه 1965 م ص 33 يختصر إلى أبن الكلبي، الأصنام

[192] سورة الفرقان: الآية 43

[193] الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) جامع البيان عن تأويل أي القرآن ط3، 1373 ه – 1954 ج19 ص17 يختصر إلى جامع البيان

[194] أنظر قبل صفحات عن الطوطمية.

[195] ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة – وزراة الثقافة ج2 ص266، يختصر إلى أبن قتيبة: عيون الأخبار، أبن قتيبة: المعارف ص 205، سالم ص459

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة

ويمكن الاستنتاج من روايات أهل الأخبار، أن من العرب من كان يؤمن بعقائد الطوطمية حتى الفترة التاريخية المتصلة بظهور الاسلام يؤيد ذلك قول الأزرقي أنه كان " لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوما[196]"،

واعتقدوا بالجن والغول والسعلاة، ولعلنا نجد أن للبادية الموحشة آثرا كبيرا في خلق هذه التصورات التي رسمها القصاص فشعب فطري عاش في صحراء رحيبة جديبة مليئة بالقيعات والأغوار والوهاد والنجاد والتلال. يقل سكانها والجائلون فيها، ويسدل الليل ستارة فيغمر الظلام والسكون والوحشة كل شيء فتتسلط الأوهام، وتتجسم المخاوف والأحلام فيدعي كثير من العرب أنهم رأوا الجن وخالطوها وصادقوها وخاصموها ونسلوا منها، وفي ذلك قول الجاحظ: " أن جماعة من العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض، وتوسطوا بلاد الحوش، خافوا عبث الجنان والسعالي والغيلان والشياطين، فيقوم أحدهم فيرفع صوته أنا عائذون بسيد هذا الوادي، فلا يؤذيهم أحد، وتصير لهم بذلك خفارة "[197].

وتصوروا أن الجن تتألف من عشائر وقبائل تربط بينهما رابطة القربى، وصلة الرحم، فإذا اعتدى معتد على جان انتقمت قبيلته كلها من الجوار، وتحفظ الذمم والعقود، وتعقد الأحلاف، ومن قبائلها بنوغزوان[198]، فان تقاتلت الجن أثار قتالها

عاقل: (نبيه) تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي 1979 – 1980 ص25 يختصر إلى عاقل، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، دلوص 143.

[196] أخبار مكة ج 1 ص 130، وانظر ياقوت: مادة الانواط، سالم ص 460، محمد نعمان الجارم – أديان العرب في الجاهلية ص 127. وناط الشيء ينوطه غلقه لسان العرب مادة نوط،

[197] الجاحظ (أبي عثمان عمروبن بحر) الحيوان، دار إحياء التراث العربي بيروت ط 3، 1388 هـ – 1969 ج 6 ص 217 ـ يختصر إلى الجاحظ: الحيوان

[198]: لسان العرب مادة قرر، تاج العروس مادة قرر.

عواصف الغبار، أي أنهم فسروا حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن[199]،وزعموا أن الجن كثيرا ما تعرضت للرجل المسافر، وصرعته كما حدث لعلقمة بن صفوان، وحرب بن أمية[200]، ولسذاجتهم آمنوا أن الكهان يتلقون علمهم من الجن[201]، قال تعالى: "وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ "[202]فكان من عبد الجن بنومليح من خزاعة وهم رهط طلحة الطلحات[203]، وقد خصوا بعض أصناف الجن بالتحدث عنها كالغيلان والسعالي وأطلقوا أسم الغول على كل شيء من الجن يعرض للسَّفار، ويتلون في ضروب الصور والثياب، ذكراً كان أوأنثى ألا أن أكثر كلامهم أنه أنثى000 والسعلاة أسم الواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السفار، قالوا وإنما هذا منها على العبث أولعلها أن تفزع أنسانا فتغير عقله[204].

هذه التصورات الوهمية عن الجن وغيرها، كان لها أساسها الواقعي المرتبط بمستوى تطور الوعي، فان وعي الجماعة القبلية الوثنية لم يكن في مستوى من التطور يرتفع به لتصور المعاني والأفكار تصورا مجردا من علاقاتها المادية بالواقع المحسوس[205]، لهذا أثرت هذه الاعتقادات على مختلف نواحي حياة الإنسان أضف إلى ذلك أنهم أمنوا بالسحر واستخدموه، فقد كان جزءا من الدين، لذلك اقتصر على الكهنة الذين وجهوه لمآربهم الخاصة، ولا بتزاز الأموال وترويع بسطاء الناس، وإرغامهم على الخنوع، وقد أرتبط الطب عندهم بالسحر وبقي الإنسان عاجزا أمام الطبيعة لأنها حالت دون معرفة العالم، وألهت الإنسان عن دراسة علل الظاهرات

---

[199] علي: المفصل ج6 ص711،

[200] الجاحظ: الحيوان ج6 ص 206 – 207، مروج الذهب ج2 ص140 – 141

[201] مروج الذهب: ج2 ص125 وما بعد، علي: المفصل ج6 ص 758 – 759

[202] سورة الأنعام: الآية 100

[203] أبن الكلبي: الأصنام ص 34، الحوت (محمود سليم) في طريق المثيولوجيا عند العرب ط3 دار النهار للنشر بيروت 1983 ص 114 يختصر إلى الحوت المثيولوجيا.

[204] الجاحظ: الحيوان ج6 ص158 –159 -160

[205] النزعات المادية ج1 ص289،

الكونية الطبيعية والاجتماعية، وعرقلت بذلك تطوره الصاعد فقد كانت معتقداتهم بسيطة بساطة حياتهم الاجتماعية.

وكما أثر تطور القوى المنتجة على الوضع الاجتماعي، كذلك فان ازدياد الصلات مع العالم الخارجي، جعلهم أكثر وعيا وتفتحا، فظهرت الوثنية، وغدت أكثر الأشكال انتشارا وأقواها جذورا في المجتمع العربي قبل الاسلام، لأنها كانت انعكاسا لأوضاعهم الاجتماعية، وشروطها المادية، وهي على أشكال مختلفة بعضها على صور أنسان، كود[206] والعزى[207] وسواع[208]، وبعضها على صورة حيوان أوطائر، فقد كان الحمام من بين الطيور التي عبد العرب أصنامها في الجاهلية، فأقاموا له صنما في الكعبة، ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم: لما نزل مكة، وقضى طوافه (دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها)[209]، فقد كان الحمام مقدسا في مكة في الجاهلية، ولا يزال يضرب المثل في الأمن بحمام الحرم، وكانت بعض الأصنام جمادا لاصورة لها كاللات[210].

ولهذه الأصنام معابد وسدنة وحجاب، فتحج القبائل إليها، وتطوف بها، وتقدم لها القرابين، والنذور، والعطايا لنيل رضاها عليهم، ودفع أذاها عنهم، فلكل قبيلة آلهتها الخاصة بها، وفي بعض الأحيان تشترك طائفة من القبائل في عبادة أوتعظيم إله معين كاشتراك قريش وبنوكنانة، وخزاعة، وجميع مضر في تعظيم العزى التي كان سدنتها بنوشيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم[211]، واشتراك الاوس

---

[206] أبن الكلبي: الأصنام ص 56

[207] أبن الكلبي: الأصنام ص18، الالوسي ج2 ص203

[208] أبن الكلبي: الأصنام ص 57، أبن هشام السيرة ج1 ص 80

[209] أبن هشام: السيرة ج4 ص 54

[210] أبن الكلبي: الأصنام ص 16 – 102، أبن حبيب (أبي جعفر محمد) المحبر مكتبة المثنى ببغداد 1361 هـ – 1942 م ص 315 يختصر إلى المحبر، ياقوت مادة لآت، البداية والنهاية ج2 ص 192

[211] أبن الكلبي: الأصنام ص 27، الالوسي ج2 ث 205

والخزرج وقريش وهذيل وخزاعة في عبادة منآة، وثقيف وقريش وجميع العرب في تعظيم اللات[212].

هذا ماحض قريش على جمع أصنام العرب، وضمها إلى الكعبة، فعظمت جميع القبائل هذا المجتمع من الأصنام، وحجت إليه سنويا، وفي ذلك دليل على توجه العرب نحوالتضامن والوحدة، لأن تعدد الآلهة تعبير عن العلاقات القبلية التعددية الانقسامية.

قيل أن أول من أدخل عبادة الأوثان إلى مكة حسب أغلب الروايات عمروبن لحي، عندما مرض وخرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ فقالوا له: هذه أصنام فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: آفلا تعطونني منها صنعا فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنما يقال له هبل، فتقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته[213]، ثم شاعت عبادة الأصنام بين الناس، لكن بعض الأساطير تشير إلى الوثنية منذ عهد عاد[214].

وزعم أبن الكلبي أن خمسة أصنام من أصنام العرب كانت من زمن نوح وهي: ود وسواع، ويفوت، ويعوق ونسر[215] وقد ذكرت في القرآن الكريم "قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً"[216]، فلما صنع عمروبن لحي ماصنع دانت العرب لهذه الأصنام وعبدوها واتخذوها من جملة ما عبدوواتخذوا[217]، ومن ثم كان لجرهم صنمان من حجر اساف ونائلة[218]، وكان

---

[212] أبن الكلبي، الأصنام ص 16 – 102، المحبر ص 310، ياقوت مادة لآت، البداية والنهاية ج2 ص 192.

[213]:أبن هشام: السيرة ج1 ص 79 اليعقوبي: تاريخ ج1 ص 295، مروج الذهب ج2 ص 29، الوسي ج2 ص 201، جواد: المفصل ج4 ص 14.

[214]: مروج الذهب ج2 ص 124، جرجي: العرب قبل الاسلام ص 85

[215] أبن الكلبي: الأصنام ص 13

[216] سورة نوح: الآية 21 وما بعدها.

[217] أبن الكلبي:الأصنام ص 13

لها أيضا تمثالا غزالين من ذهب[219]، وهذا دلالة كافية على أن عرب الحجاز كانوا يدينون بالوثنية منذ عهد طويل قبل ظهور عمروبن لحي سيد خزاعة على مسرح الأحداث في تاريخ مكة والحجاز.

فلربما نسبت عبادة الأوثان إلى عمروبن لحي لأنه مركزها في الكعبة، وجعل لها أشكالا متقنة ليستثمرها فيما بعد الملأ لتعزيز نفوذه،

وكان لهذه الآلهة دور هام في جميع أمور الحياة آنذاك فقد أشركتها القبائل معها في الحرب كقول الشاعر[220]:

وسـارينـا يغـوث إلى مـراد   وناجزنـاهم قبـل الصـباح

وحملت قريش في معركة أحد اللات والعزى لحمايتها، وبعث الحماس في نفوس محاربيها[221]، وأشركوا هبل كبير آلهة قريش في الاستفتاء بمشاكلهم الخاصة والشخصية كالزواج والولادة، والختان والسفر، والعمل والخصومات وما شابه ذلك وكأننا بهم مسيرون بأوامر الآلهة وقراراتها، فنفوا عن أنفسهم كل مسؤولية ووضعوها على عاتق الآلهة. ولشدة تقديسهم لهبل فقد كان على صورة رجل من عقيق أحمر مكسور اليد اليمنى أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب[222]، فمتى تم ذلك ؟

من الطبيعي أن يكون قد تم ذلك عندما أثرت قريش عن طريق التجارة والحج والربا. واستثمار الأموال، فأرادت أن تعكس ذلك على ألهتها فميزتها بيد ذهبية، ولعل ذلك دليل على شدة تعظيم قريش لها، وبالتالي ليكون ذلك عاملا مهما في

---

[218] أبن الكلبي: الأصنام ص 29

[219]: ابن هشام: السيرة ج1 ص 154.

[220] أبن الكلبي: الأصنام ص 10، سعد: في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 341

[221]: تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 193.

[222] أبن الكلبي: الأصنام ص 28، أبن هشام: ج1 ص 84، أخبار مكة ج1 ص119، سبائك ص 436،عاقل ص 254

تنشيط التجارة القرشية، ولذا عملت الزعامة القرشية جهدها للإبقاء على الشرك، والمحافظة على التقاليد الوثنية المتعلقة بالكعبة. أضف إلى ذلك ظهور فئات لها تقاليد وأساليب في العبادة تختلف عن الشائع والمألوف عند غيرهم كالحمس والحلة والطلس، فالحمس والاحمس المتشدد على نفسه في الدين[223]، والحماسة الشجاعة[224]، والحمس قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش خاصة من العرب، وبنوربيعة بن عامر، وهم ربيعة وكلاب وعامر ولدتهم مجد بنت تيم بن مرة، وكانوا حمسا، وبرواية أخرى الحمس قريش وبنوعامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ومد لج وعدوان والحرث بن عبد مناه، وعضل أتباع قريش وسائر العرب الحلة[225].

فمن أيت أتتهم التسمية ؟ هل لتشددهم في الدين ؟ لأنهم كانوا لا يخرجون من الحرم إذا حجوا، وكانوا لا يسلوؤن السمن، ولا ينسجون مظال الشعر، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم، وشرعوا لمن قدم من الحاج أن يطوف بالبيت وعليه ثيابه مالم يذهبوا إلى عرفة، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة، أوفي ثوب أحمسي.

وأن طافوا في الثياب لم يحل لهم أن يلبسوها وكانوا لا يستظلون أيام منى زيادة في تحمل المشاق، وإمعانا في تعذيب النفس، وهم يؤدون طقوسا من طقوس الحج، كما أنهم لا يدخلون إلى عرفات بل يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل الله ولا نخرج من الحرم[226].

---

[223] أخبار مكة ج1 ص 181، أبن دريد (أبي بكر محمد بن الحسن) الاشتقاق تحقيق عبد السلام محمد هارون نشر مؤسسة الخانجي بمصر مطبعة السنة المحمدية 1378 هـ – 1958 ج1 ص 250 يختصر إلى أبن دريد: الاشتقاق

[224] لسان العرب مادة حمس

[225]: أخبار مكة ص 179 – 180، المحبر ص 178، شفاء الغرام ص 42

[226] أبن هشام: السيرة ج1 ص 211 وما بعد، أخبار مكة ج1 ص 179 – 180 شفاء الغرام ج ص 41، العلي (صالح أحمد) محاضرات في تاريخ العرب ط3 مطبعة الإرشاد بغداد 1964 ج1 ص213 يختصر إلى محاضرات في تاريخ العرب.

أم آتتهم التسمية من الشجاعة والمنع والمحاربة ؟ ولكننا نستعبد ذلك فقريش كما نعلم قوم تجار، والتاجر يهمه الأمن والسلام والهدوء، لان توفير هذه الأشياء من شأنها أن تشيع في نفوسهم مشاعر الاطمئنان، فيزداد عدد الوافدين للحج مما يجلب المنافع المادية لأهل مكة، ولكبار تجارها وسدنة معابدها بخاصة.

ولعل التفسير الأقرب للصحة أنه آتتهم التسمية من التشدد في الدين، خاصة وأنهم اعتبروا أنفسهم أرفع مكانة ممن سواهم، على كل الأحوال الحمس ظاهرة دينية تتعلق بالناحية الاقتصادية قصد منها بيع الثوب الاحمسي، فكل حاج قدم لمكة، إما أن يطوف عريانا، أويشتري ثوبا أحمسا، فكأنهم خلطوا بين الدين والناحية المعاشية.

الفئة الثانية الحلة: كانوا إذا دخلوا مكة تصدقوا بكل حذاء، وكل ثوب لهم، ثم استأجروا من ثياب الحمس تنزيها للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم، فان لم يجدوا ثيابا طافوا عراة، وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس، يأخذ ثيابه فمن لم يجد ثياباً طاف عريانا، فكانت الحلة تستأجر الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت، لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا شراء شيء، ولا بيع شيء حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم[227] وقبائل الحلة هي تميم وضبة ومزينة، والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ماخلا عدوان، وثقيف وعامر بن صعصعة، وربيعة بن نزار كلها، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد[228].

أما الخلاف الرئيس بين الحلة والحمس هو في الوقوف بعرفة عند بداية الحج، وهومالم تكن تفعله الحمس لأن عرفه تقع خارج الحرم – حرم مكة – والخلاف الثاني هو في لباس الإحرام. ووجدت فئة ثالثة هم الطلس بين الحلة والحمس يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس،

---

[227] أبن هشام: السيرة ج1 ص211 وما بعد، المحبر ص 181، شفاء الغرام ج2 ص 42 – 43 محاضرات في تاريخ العرب ج1 ص 214

[228] المحبر ص 179 اليعقوبي: تاريخ ج1 ص 298

وكانوا لا يتعرون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثيابا ويدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا لا يئدون بناتهم ويقفون مع الحلة، ويصنعون ما يصنعون[229].

وعلى الرغم من انتشار عبادة الأوثان وشيوعها، ووجود الفئات الأنفة الذكر، آمن البعض من عرب الحجاز بالزندقة[230] انتقلت إليهم عن طريق الفرس[231] وقد أشار ابن حبيب إلى وجود الزندقة في قريش[232]، وفي الزندقة قوله تعالى:

"وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"[233]

وتسربت اليهودية إلى الحجاز عن طريق الهجرة والتجارة ولكنها انحصرت في الواحات كيثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء[234]، والمراكز الواقعة على طريق المواصلات والتجارة البرية والبحرية، كان من عشائر اليهود بنوالنضير بنوقريظة، بنوقينقاع، بنوبهدل وغيرهم[235]، اختلطوا بالعرب وتعايشوا معهم وكانوا في حياتهم الاجتماعية والسياسية كالعرب حتى أن أسماءهم تحمل الطابع العربي والبعض منهم تعرب كالشاعر السموآل بن عاديا[236]، إلا أنهم على الرغم من ذلك لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب وأن كان قد ذكر اليعقوبي " نهود قوم من الاوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير"[237]، ويرجع ذلك إلى

---

[229]: المحبر ص 181.

[230] الزندقة نوعان ثنوية وهي القول بالنور والظلمة ودهرية لقول من يؤمن بها بالدهر، سالم ص 480.

[231]: سالم ص 480

[232]: سورة الجاثية: الآية 24

[233]: سمهودي ج1 ص 163، الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص 56، حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج1 ص 87،

[234]:حسن تاريخ الاسلام السياسي ج1 ص 87، محاضرات في تاريخ العرب ج1 ص 171، سالم ص485.

[235]:سمهودي ج1 ص 163، الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص56، حسن تاريخ الاسلام السياسي ج1ص87.

[236]: علي: المفصل ج9 ص 771

[237] اليعقوبي: تاريخ ج1 ص 298.

أسباب، منها عدم اهتمامهم بالتبشير بدينهم اعتقادا منهم بأنهم شعب الله المختار وأن من سواهم من الشعوب غير جدير بذلك.

كانت هذه الديانة جامدة خامدة لآيهم أتباعها نشر الدين بقدر ما يهمهم المحافظة على حياتهم، وعلى أملاكهم، وعلى تجارتهم التي تعود على ملاكهم وأحبارهم وتجارهم ومرابيهم بنفع كبير وبمال وفير، ودخلت النصرانية إلى الحجاز عن طريق التجارة والرقيق لاسيما الرقيق الأبيض، فقد وجد في يثرب نفرمن النصارى، استورد للخدمة وللقيام بالأعمال والخدمات اللازمة لأثرياء مكة، وقد أثر هؤلاء بالبعض فتنصر قوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وورقة بن نوفل بن أسد[238].

ولم يقتصر أمر النصرانية على مكة، فقد كان في الطائف نفر من الموالي على دين النصرانية[239] منهم عداس مولى عتبة بن ربيعة[240]، وقد ساعد وجود اليهودية والنصرانية في الحجاز على تغيير الوعي الديني باتجاه النظر التجريدي نحومشكلة الوجود متجاوزا النظرة الوثنية الحسية وفي خلق ظاهرة الحنفاء، فالحنيف بالأصل الرافض لعبادة قومه، والخارج على الأصنام والوثنية، لأن الحنيفية ثورة على الوثنية، وتعدد الآلهة، ودعوة إلى التوحيد الإلهي وهي أشبه بحلقة ذات شأن كبير في مرحلة الانتقال من الجاهلية الأخيرة إلى الاسلام من الرجال الذين كانوا أحنافا قس بن ساعدة الأيادي، زيد ين عمروبن نفيل، أمية بن أبي الصلت، ورقة بن نوفل، الملتمس ابن أمية الكناني، زهيربن أبي سلمى، كعب بن لؤي00 وغيرهم[241].

كل هؤلاء تشككوا في عبادة الأصنام ، وساحوا في الأرض بحثا عن الدين الصحيح، دين إبراهيم، وزهدوا في المجتمعات الوثنية، واعتزلوا عن الناس في

---

[238]: اليعقوبي: تاريخ ج1 ص 298، دلوج2 ص 224

[239]: أسد الغابة ج3 ص 389، دلوج2 ص 224

[240]: مروج الذهب ج1 ص 88

[241]: مروج الذهب ج1 ص 88، آلوسي ج2 ص 244، جواد: المفصل ج6 ص 463، شلبي (رؤوف) المجتمع العربي قبل الاسلام، المكتبة العصرية صيدا – بيروت ص 31 وما بعد يختصر إلى شلبي: المجتمع العربي قبل الاسلام

كهوف للتأمل والعبادة والصلاة، واعتقدوا بوحدانية الله خالصة، مما كان لهذا عظيم الأثر في تقويض الوثنية، فأخذت تتداعى أمام هذه الأفكار، وكثر اخفار الآلهة، لان المتحنفون آمنوا بالله وبيوم الحساب[242]، فواكبت الحنيفة بذلك تطور المجتمع المكي وحاجاته وتطورت معه إلى أن دخلت مرحلة جديدة يمكن عدها المرحلة التي مهدت لظهور الاسلام، هذه الألوان والأنماط من التفكير والسلوك الديني، أعطتنا فكرة عن الحياة التي ذخرت بها حياة المجتمع العربي في الحجار قبل الاسلام.

أناس جعلوا لانفسهم مكانة أعلى وأرقى من البقية، فالذين دانوا بالحمس عدوا أنفسهم وكأنهم فوق مستوى البشر، لذلك استتبعوا سلوكا خاصا متشدداً متحمسا في التعبد.

2 -باحثون ابتلعهم التفكير ففكروا بالبحث والتنقيب، وقالوا: إن لله دينا هو أرضى مما أنتم عليه اليوم.

3 - حكماء 00 ما فتئوا يعظون الناس، ويتنبئون للبشرية بالخلاص من حيرة الفراغ من الوحي المعصوم، والخروج إلى دائرة اليقين.

وترقب الناس بهذه الإرهاصات يوم الخلاص، وانتظرت البيئات الاجتماعية لحظة النور، ليدركوا أن فجر الحقيقة قد آذن بالشروق.

---

(242): عوض الله (أحمد أبوالفضل) مكة في عصر ما قبل الاسلام ط 2، 1401 هـ – 1981 م مطبوعات دار الملك عبد العزيز ص 96 – 97 – 98 يختصر إلى عوض الله مكة، حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 87، عاقل: تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ص 284 وما بعد.

الفصل الثاني

القبيلة العربية في الحجاز قبل الاسلام

القبيلة العربية في الحجاز قبل الاسلام

من الواضح أن النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لعرب الجاهلية هي حصيلة التفاعل بينهم وبين البيئة التي عاشوا فيها، فقد خضعوا لشروط بيئتهم، وكيفوا حياتهم الاجتماعية مع الظروف الطبيعية التي نشأوا فيها، وقد اتصفت ظروف معيشتهم بالقسوة والإملاق، السماء شحيحة بالمطر، والأرض صحراوية قاحلة محدودة الثروة، فقيرة الإنبات، والمناطق تجف واحدة تلوالاخرى، أما الواحات فهي على الأطراف.

لذلك اضطر السكان إلى التدرج من حياة النقلة الدائمة تبعا للجفاف الدوري إلى الاستقرار الدائم وبناء الحواضر ﴿ الواحات.

فالإنتاج يحدد نوع الحياة، ويتبدل شكل الحياة بتبدل شكل الإنتاج، حيث أوجبت هذه الظروف أن تكون حياة العرب ﴿ الحجاز عبارة عن بدووحضر فالحضر سكان القرى والواحات الغربية ﴿ الحجاز والبدوسكان البادية المتنقلون سعيا وراء العشب والماء.

القبيلة العربية:

على الرغم من وجود البدووالحضر، قام التنظيم الاجتماعي على نظام القبيلة، وقد استعملت كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع ﴿ العصر الجاهلي غلب على الأقسام الأخرى، فهناك ما هوأصغر، وهناك ما هوأكبر وهي بالترتيب:

1ـ الجذم وهوالأصل.

2ـ الجماهير، والتجمهر الاجتماع والكثرة، ومنه جماهير العرب.

3ـ الشعوب وأحدها شعب

4ـ القبائل وأحدها قبيلة

5ـ العمائر وأحدها عمارة

6ـ البطون وأحدها بطن

7 ــ الأفخاذ وأحدها فخذ

8 ــ العشائر وأحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة أباء سميت بذلك لمعاشرة الرجل إياهم.

9ـ الفصائل واحدها فصيلة وهم أهل بيت الرجل.

10ــ الرهط: وهم رهط الرجل وأسرته، والرهط مادون العشرة، والأسرة أكثر من ذلك[1]، فإذا تأملنا هذا القسم تبين لنا أن الرهط والأسرة والفصيلة أصغر الوحدات في حياتهم الاجتماعية، إذ كلها بمعنى واحد، وكل منها يدل على أهل بيت الرجل، وما الفرق بينهم إلا في الحجم، فالرهط مادون العشرة، والأسرة أكثر من ذلك، والفصيلة أكثر من هذه وتلك، على أن هناك ترتيبات أخرى في كتب علم الأنساب، وفي كتب التاريخ المختلفة[2]، وكلها ترتيبات قد تكون اجتهادية، أخذت من أفواه العلماء والرواة[3] ومن الأوضاع القبلية التي كانت سائدة في أيامهم، ومن اجتهادهم أنفسهم، وكلها تصل في النهاية إلى الأسرة، أي البيت الذي هونواة القبيلة، ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة، فهل كان للأسرة أهمية في ذاك الوقت كأسرتنا الحالية ؟ بالطبع لا أهمية للأسرة بمعناها الحالي، وذلك لأن الأسرة في المجتمع الجاهلي كانت تنتظم جميع أفراد العشيرة الواحدة، فلم يكن لديهم فرق

---

[1]: نهاية الأرب ج2 ص 277 وما بعد، جمعة (محمد محمود) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، مطبعة السعادة بالقاهرة 1949 ص 9 يختصر إلى جمعة، سعد: تاريخ العرب قبل الاسلام ص 304.

[2]: أبن الكلبي (هشام أبوالمنذر بن محمد بن السائب) جمهرة النسب – دار اليقظة العربية، ج1 ص 430 يختصر إلى أبن الكلبي: النسب، العقد الفريد ج3 ص 289، سبائك ص 13 – 14.

[3]: أبن رشيق: (أبي علي الحسن القيرواني) العمدة في صناعة الشعر ونقده ط 1 1344 – 1925 مطبعة أمين هندية بمصر ج2 ص 154 يختصر إلى أبن رشيق العمدة، الوسي ج3 ص 188. علي: المفصل ج4 ص 318، برو، ص 255.

بين أسرة وعشيرة، قال تعالى: " وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ "[4] مما يوضح أن الحياة الاجتماعية في أقدم مراحلها كانت تدور حول العشيرة لاحول الأسرة والقبيلة، إذ لم يظهر النظام القبلي إلا متأخراً، وذلك عندما اضطرت العشائر إلى أن تزدلف بعضها إلى بعض لضرورة حربية أولأغراض اقتصادية[5].

فالقبيل الجماعة من أباء شتى، وجمعه قبل، والقبيلة الجماعة المنتمية إلى آب واحد، وجمعها قبائل، وقد قيل سميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها[6].

وهي عبارة عن ((مجموعة من العشائر، والجماعات النسبية أوالنجوع والقرى ولها أرض مخصصة، ولغة مشتركة بين عشائرها وقراها، ويسودها تضامن اجتماعي وثيق يربط أفرادها بعضهم ببعض، ويلقي عليهم مسؤولية مشتركة، ويحملهم واجبات في الدفاع عن أرضهم وشرفهم، وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم المشتركة، وهوتضامن لا شعوري تمليه رابطة القرابة والدم)) [7]، وعندما استوطنت الأسر ولزمت مواطنها، واعتمدت في رزقها بالأكثر على استغلال الأرض وتربية الماشية وبالأقل على الغزو، تكونت العشيرة التي انحصرت فيها السلالة، وكان ذلك في آخر أدوار الهمجية والوحشية أوبالأحرى في بدء أدوار المدينة والحضارة [8]وعلى كل الأحوال لا يكون تكون القبيلة من انضمام العشائر والأسر. بل كثيرا ما يفضي الزحام أوالصدام إلى انضمام شراذم أخرى غريبة إلى القبيلة، وعلى التمادي تصبح هذه الشراذم من جسم القبيلة[9]. وسنفصل ذلك أثناء الحديث عن تركيب القبيلة.

---

[4]: سورة الشعراء: الآية 214

[5]: جمعة ص 91

[6]: لسان العرب مادة قبل، آلوسي ج3 ص188

[7]: معجم العلوم الاجتماعية، أعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب الهيئة، المصرية العامة للكتاب 1975 م ص 465 يختصر إلى معجم العلوم الاجتماعية.

[8]: حداد (نقولا) حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها، عني بنشرة الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بالفجالة بشارع الخليج الناصري رقم 6 بمصر ص 257 يختصر إلى حداد.

[9]: حداد ص 257

ولذلك لا ينتظر دائما أن تكون القبيلة سلالية نقية، بل تكون شعبية، أي مزيجا من سلالا ت مختلفة، كذلك لا ينتظر دائما أن تكون القبيلة جامعة كل أفراد السلالة بل كثيرا ما تكون السلالة مشتتة هنا وهناك، وإذا كانت البقعة واسعة، والقبائل مشتتة فيغلب أن تكون هذه القبائل مسلسلة من سلالة واحدة، ولغتها تدل على وحدانية سلالتها[10]،

والرابط الذي يربط أبناء القبيلة ويجمع شتاتها النسب الذي بواسطته حافظت القبيلة على أواصر القربى قال تعالى: ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**))[11].

فمن لا يعرف النسب لا يمكنه معرفة الناس وأصولها، فالنسب بمثابة الروح التي تهب الحياة، والدعامة القوية التي قام عليها نظام القبيلة فلا يمكن أن نتتبع تطور القبيلة إلا إذا تابعنا المراحل التي تطور معها النسب، طالما أن النسب هوروح القبيلة، والقبيلة والنسب توأمان متلازمان يستمد أحدهما وجوده من الآخر، أي أن أي تطور على طرف يتأثر به الطرف الأخر مباشرة، قال أبن خلدون: ((**اعلم أنه من البين أن بعضا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أوحلف أوولاء، ثم أنه قد يتناس النسب الأول بطول الزمان، ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر، ومازالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخر**))[12].

فحفظ النسب استمرار لما كان عليه الجاهليون، وهويبدأ بالأب في الغالب، وبالأم في حالات قليلة، وقد عرف بعض علماء اللغة النسب بأنه القرابة[13]، فالقرابة وصلة الدم هي المقومات التي قام عليها نظام القبيلة، ولم تحدد الشروط في الحد الأدنى، أوالحد الأكبر للقبيلة، وذلك من ناحية عدد العشائر والبطون والأفخاذ، ولم يعثر كذلك على حد معين إذا بلغته جماعة من الناس، وجب إطلاق لفظة قبيلة

---

[10] حداد ص 258، 259

[11] سورة الحجرات: الآية 13

[12] ابن خلدون: المقدمة ص 130

[13]: لسان العرب مادة نسب، علي: المفصل ج4 ص 354

عليها، بل نجد علماء النسب يطلقونها أحيانا على بطون وأفخاذ، فيقولون مثلا قبائل قريش، ويذكرون أسماءها، بينما هي في الواقع أرهاط وبطون.

صفات القبائل:

القبائل مثل الدول أنماط ودرجات منها قبائل قوية نشطة تعتمد على نفسها في الدفاع عن كيانها، ومنها قبائل صغيرة تركن إلى التحالف مع القبائل الأخرى لتحافظ على وجودها، وبسبب ذلك وجد لكل قبيلة صفة وتسمية تميزها عن غيرها، فالقبائل التي تستقل بنفسها، وتستغني عن غيرها سميت بالأرحى[14]، شبهت بالأرحى لأنها لم تبرح أوطانها، ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها، إلا أن ينتجع في البر حاء وعام الجدب وذلك قليل منهم[15].

ولعلنا نستطيع أن نطلق على هذه القبائل تسمية القبائل نصف المتجولة، فالأرض تدور حول نقطة ثابتة مركزية وكذلك هذه القبائل، فمن أرحاء القبائل الست: اثنتان في مصر تيم بن مرة، وأسد بن خزيمة[16].

أما القبيلة التي تفرعت منها قبائل وبطون، واستقلت بأسمائها وصارت كأنها جسد قائم، وكل عضومكتف باسمه معروف بموضعه[17]، فأطلق عليها لفظ الجمجمة، وكأننا بها من القبائل الرئيسة عند الجاهليين وأنها بمنزلة الرأس من جسم الإنسان.

وقد قيل أن جماجم العرب ثمان، أربع منها في مصر، اثنتان في قيس، واثنتان في خندف، ففي قيس غطفان وهوازن، وفي خندف تميم وكنانة[18]..

---

[14]: لسان العرب مادة رحا، علي: المفصل ج4 ص 332

[15]: العقد الفريد ج3 ص 289

[16]: العقد الفريد ج3 ص 289.

[17]: العقد الفريد ج3 ص 289.

[18]: لسان العرب مادة جمر، علي: المفصل ج4 ص 332

أما جمرات العرب فهي القبائل التي تجمعت على أنفسها، فلم تدخل مع غيرها في أحلاف قبلية مأخوذة من التجمير وهوالتجميع، أومن الجمر لقوتها، والجمرة اجتماع القبيلة الواحد ة على من ناوأها من سائر القبائل[19].

وذكر بعضهم أن الجمرة القبيلة التي يكون فيها ألف فارس، وقيل ثلاثمائة فارس أونحوها، أي أن الجمرة هي القبائل القوية التي تعتمد على نفسها في القتال، وعلى هذا لعل التكوين العسكري، هوالسبب في تسميتها الجمرات، فقبيلة فيها ألف فارس أوأكثر أوأقل من الطبيعي أن تكون ذات قوة وبأس شديد، وجمرات العرب أربعة وهم بنونمير بن عامر بن صعصعة، بنوالحارث بن كعب، بنوضبة كعب بن بغيص[20].فطفئت منهم جمرتان بنوضبة لأنها صارت إلى الرباب فحالفتها، وبنوالحارث لأنها صارت إلى مذ حج فحالفتها،ومن القبائل الرضفات وهي أربع عرفت بشدتها وبأسها كشيبان وتغلب وبهراء وأياد[21].

أما سليم وهوازن من قيس عيلان، وغطفان وأعصر ومحارب بن خصفة فقد عرفت بأثافي العرب [22]،والأثافي العدد الكثير والجماعة من الناس[23]، هذه القبائل التي تفرعت منها جملة قبائل ولنسميها أم القبائل، لقبت كل قبيلة تفرعت منها بلقب أشار إلى صفة لها، فبعض الألقاب أشارت إلى القوة والبأس كبنوأسد تشبيها لها بالأسد[24]،وبعضها الاخر أشار إلى المكان الذي أقامت فيه القبيلة كبنوغسان[25] ، أوالعمل الذي قامت به كالرباب قيل لأنهم تحالفوا فقالوا:

---

[19]: لسان العرب مادة جمر، علي: المفصل ج4 ص 332.

[20]: المحبر ص 234، العقد الفريد ج3 ص 318، سبائك ص 172، لسان العرب مادة جمر، تاج العروس مادة جمر، علي المفصل ج 4 ص 332 – 333

[21]: المحبر ص 234، علي: المفصل ج4 ص 334

[22]: المحبر ص 234، علي: المفصل ج4 ص 334

[23]: لسان العرب مادة أثف

[24]: أبن دريد: الاشتقاق ج2 ص 435

[25]: أبن دريد: الاشتقاق ج2 ص 435

اجتمعوا كاجتماع الربابة وهي خرقة تجمع فيها القداح وقال قوم بل غمسوا أيديهم في رب وتحالفوا[26]، وكبنوخزاعة من قولهم انخزع القوم عن قوم إذا انقطعوا عنهم وفارقوهم، وذلك انهم أنخزعوا عن جماعة الأسد أيام سيل العرم لما أن صاروا إلى الحجاز[27]، فذهب هذا النعت بين الناس وصار سمة لها، أما إذا كان في القبيلة اسمان متوافقان كالحارث مثلا وكان أحدهما ولد الآخر وبعده في الوجود ـ أي أحدهما والدا والآخر ولدا – عبروا عن الوالد أوالسابق منهما بالأكبر، وعن الولد والمتأخر بالأصغر، على أن هذا التعبير ينطبق أيضا على الأخوين إذا كان أحدهما أكبر من الأخر ويحمل الاسم نفسه[28]، وسميت القبائل في أغلب الأحيان بأسم الأب الوالد للقبيلة كمضر، أوباسم أم القبيلة كخندف، وربما نسبت إلى الحاضنة كقبيلة بأهلة، وفي أحوال نادرة، كان أسم القبيلة يؤخذ من مناسبات خاصة، وقد يكون أسم حلف تألف أواسم موضع أقامت به القبيلة أواله عبد[29]، 00000 الخ.

فقريش عمارة من قبيلة كنانة [30]، تولت أمر مكة قبل الاسلام ما يقصر عن مائة سنة، وربما أزيد من ذلك، وقد وليت أمر البيت بعد خزاعة[31].

---

[26]: أبن دريد: الاشتقاق ج1 ص 180

[27]: أبن دريد: الاشتقاق ج2 ص 468

[28]: صبح الأعشى ج1 ص 312، القلقشندي (أبي العباس) قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري – دار الكتب الحديثة – القاهرة ط1 1383 – 1963 ص 22 يختصر إلى قلائد الجمان،

[29]: أبن سلام (أبي عبيد القاسم) النسب، تحقيق مريم محمد خير الدرع، جامعة دمشق 1986 – 1987 ص 108 يختصر إلى أبن سلام النسب، سبائك ص 18، قلائد الجمان ص 21، علي: المفصل ج4 ص 340 وما بعد.

[30]: السمعاني (أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي) الأنساب، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى بيروت – لبنان 1980 م، ص 50 يختصر إلى السمعاني الأنساب سبائك ص 13، أبن رشيق: العمدة ج2 ص 154، جواد: المفصل ج1 ص 509

[31]: أبن هشام:السيرة ج1 ص 130، وما بعد، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 256، وما بعد، الكامل في التاريخ ج 2 ص 19 وما بعد، شفاء الغرام ج1 ص 105

نستطيع أن نطلق عليها اصطلاحا اسم قبيلة، فنقول: هي قبيلة كبيرة من نسل فهر بن مالك بن النضر[32]، وهي من القبائل العدنانية، وقد قيل قريش اسم وفهر لقب غلب عليه[33]، فما كان فوق فهر فليس يقال له قرشي، وانما يقال له كناني[33] تبدأ المعرفة بقبيلة قريش ابتداء من قصي زعيم قريش، ومجمعها الذي أخذ أمر مكة فوضعه في يديه، ثم في أيدي أولاده من بعده، فقد كان صهرا لحليل ابن حبشية[34]، فلما توفي ولي أمر الكعبة بعد أن حارب خزاعة، وانتصر عليها مع ما تجمع له من رجال قريش، وبمعونة أخيه لأمه وأخواله العذريين، فكان أول رجل من كنانة أصاب ملكاً[35]، أي أن قصيا أكتسب الأولوية في سدانة البيت، وزعامة مكة، فإلى أي شيء استند ؟

بالطبع استند إلى المال على حد تعبير ابن إسحاق ((وعندما هلك سيد خزاعة 000 وانتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه 000 رأى أنه أولى بالبيت وأمر مكة))[36]، فانتشار الولد لم يكن وحده معيارا للأولوية، والشرف على ما يبدومن نص الرواية إنه أمر أكتسب اكتسابا في زمن معين وهوغير الشرف الموروث الذي كان من المعايير القبلية، بل هوالشرف الحادث في نجاحه في تحصيل المال ويشكل

---

[32]: المصعب الزبيري (عبد الله) نسب قريش، نشر ليفي بروفنسال – دار المعارف ص 5 وما بعد يختصر إلى نسب قريش، أبن خلدون: العبر ج2 ص 324، نهاية الأرب ج2 ص 280، علي: المفصل ج4 ص 18.

[33]: نسب قريش ص 12، قلائد الجمان ص 137

[33]: أبن الكلبي: النسب ج 1 ص 8، أخبار مكة ج1 ص108 – 109، المبرد: الكامل ج1 ص 214، نهاية الأرب ج2 ص 352، البداية والنهاية ج2 ص 200، شفاء الغرام ج2 ص 63، -64 –65، أبن خلدون: العبرج2 ص 124، تاج العروس مادة قريش، برو، ص 172،

[34]: أبن الكلبي: النسب ج1 ص 13، ابن هشام: السيرة ج1 ص 123، أخبار مكة ج1 ص 105 نسب قريش ص 14، انساب الأشراف ج1 ص 49 وما بعد، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 255 –256، الكامل في التاريخ ج2 ص 19، البداية والنهاية ج2 ص 205 وما بعد، بخيت (عبد الحميد) ظهور الاسلام وسيادة مبادئه، مكتبة الانجلوالعصرية ص 40 – يختصر إلى ظهور الاسلام،

[35]: أبن هشام: السيرة ج1 ص 24، أخبار مكة ج1 ص 105 وما بعد، انساب الأشراف ج1 ص 50، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 256و مابعد، الكامل في التاريخ ج2 ص 20 وما بعد.

[36]: أبن هشام: السيرة ج1 ص 123 – 124 وانظر أيضا تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 255 الكامل في التاريخ ج2 ص 19.

هذا انعطافا اجتماعيا في مكة قبل الاسلام، إذ أنه عنى أن زعامة مكة، والوصول إليها أصبحت منذ عهد قصي تستند إلى المال بالدرجة الأولى، وليس إلى عرف قبلي تقليدي مقرر، حيث أثر المال في مجريات الواقع الاجتماعي النا شيء عن ذلك التطور.

وصارت قريش بذلك صاحبة مكة، وبالتجارة كانوا يعرفون ولذلك قالت كاهنة اليمن للّه در الديار لقريش التجار، على أنه لم يكن لهم أب يسمى قريشا فينسبون إليه، ولكنه اسم اشتق لهم كما يرجح من التجارة والتقريش[37]، وقريش بالأصل طبقتان: قريش البطاح الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها، وهم سادة القرشيين، فيهم بنوهاشم، وبنوأمية ومنازلهم بين أخشبي مكة (جبلاها) وهم صبابة قريش وصميمها وساداتها وأغنياؤها اختطوا منازلهم في البطحاء وأنزلوها، فالبطون التي تعد من قريش البطاح هم: عبد مناف، بنوعبد الدار، بنوعبد العزى، بنوعبد قصي بن كلاب، بنوزهرة بن كلاب، بنوتيم بن مرة ، بنومخزوم بن يقظة ابن مرة، بنوسهم، بنوجمح، ابنا عمرو بن هصيص بن كعب، بنوعدي بن كعب، بنوحسل بن عامر بن لؤي، ضبة ابن الحارث بن فهر، بنوعتيك بن عامر بن لؤي[38]،والقسم الثاني قريش الظواهر هم: بنومعيض بن عامر بن لؤي، بنوالادرم بن غالب بن فهر، والحارث ابنا فهر، إلا بني هلال بن أهيب بن ضبة وبني هلال بن مالك بن ضبة، وعامة بني عامر بن لؤي وغيره، عرفوا بقريش الظواهر لانهم لم يهبطوا مع قصي الابطح[39]، فسكنوا خارج مكة في أطرافها، وكانوا على ما

---

[37]: ابن هشام: السيرة ج1 ص 96، هناك اشتقا قات أخرى لاسم قريش انظر أخبار مكة ج 1 ص 108 (أبي عثمان عمروبن بحر بن محبوب) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ص 156، يختصر إلى رسائل الجاحظ، البداية والنهاية ج 2 ص 201.

[38]: المحبر ص 167، مروج الذهب ج 12 ص 32 ص 269، العقد الفريد ج 3ص 273، ابن خلدون: العبر ج2ص324، قلائد الجمان ص 138، ابن رشيق: العمدة ج 2 ص 156، علي: المفصل ج4 ص 27.

[39]:: المحبر ص 167، مروج الذهب ج 12 ص 32 ص 269، العقد الفريد ج 3ص 273، ابن خلدون: العبر ج2ص324، قلائد الجمان ص 138، ابن رشيق: العمدة ج 2 ص 156، علي: المفصل ج4 ص 27. البكري: معجم ما استعجم ج1 ص89.

يبدو أعرابا لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر، وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال، وانهم يقاتلون عنهم وعن البيت، فهم يعتاشون من وراء الرعي ويمارسون الغزووالغارات بينما اتخذ القسم الأول التجارة ورعاية البيت الحرام موردا يعتاشون منه فأثروا ثراء عظيما.

فإن دل هذا على شيء فانه يدل على الانقسام الاجتماعي داخل قبيلة قريش، فقريش البطاح هي الجماعة الثرية صاحبة الامتيازات والشهرة، وهم السادة أصحاب القوافل والجاه، وقريش الظواهر أدنى مكانة ومنزلة من قريش البطاح، إذا قريش بادية وحاضرة[40] على سبيل المثال.

وبما أن قريش البطاح قد اعتاشت من وراء التجارة، وخدمة البيت فقد خالطت أقوامها من ذوي المدنيات، وهذا ما اكسبها فوائد معنوية وادبية واجتماعية وحضارية، مما جعل بعضهم يشيد بفضلها على سائر العرب، عن عبد الله بن مسعود أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: **قريش الجؤجؤ، والعرب الجناحان والجؤجؤ لا ينهض إلا بالجناحين**(41) فلقريش مكارم وخصال بانت بها على جميع الناس[42]. وهذه الإشادة من المؤرخين ربما أتتها لان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان من قريش.

واستوطن في الطائف بعض القرشيين واتخذوا الأموال والاطام والمزارع، فلم ينسبوا لا إلى البطاح ولا إلى الظواهر.

وسكن إلى جانب هؤلاء جميعا جماعة من العرب مثل خزاعة، وبنوكنانة فقريش كما قلنا وان كانت من كنانة إلا أنها ميزت نفسها عنها وفرقت بينها وبين كنانة [43].

---

(40): علي: المفصل ج4 ص 281

(41): العقد الفريد ج3 ص 277

(42): ابن حبيب (أبى جعفر محمد) المنمق، صححه خور شيد احمد فارق ط1 – عالم الكتاب بيروت 1405 هـ – 1985 م ص 421 يختصر إلى المنمق، المحبر ص 165، رسائل الجاحظ ص 114 – 115 وما بعد.

(43): انظر قبل صفحات من هذا الفصل.

ووجد في مكة الأحابيش حلفاء قريش وهم بنوالمصطلق، وبنوالحارث بن عبد مناة، وبنوالهون بن خزيمة أضف إلى ذلك عدد من العبيد والنصارى من المرجح انهم دخلوا مكة تجار ومبشرين وحرفيين وأرقاء[44]، جاء بعضهم من داخل شبه الجزيرة وجاء بعضهم الآخر من خارجها.

وأقامت ثقيف في الطائف، تقول الأخبار أن ثقيف هوقسي بن منبه بن بكر بن هوازن[45].نزل على عامر بن الظرب مستجيرا فزوجه ابنته زينب، أنزله منزله فولدت له عوفا وجشما، ثم ماتت فزوجه أختها فولدت له سلامة، ودارسا فانتسبا في اليمن فدارس في الأزد، والآخر في بعض قبائل اليمن ولم يزل ثقيف مع عامر حتى كثر ولده، وقوي جأشهم فتغلب عليهم واخرجهم من الطائف وملكها[46]، وأصبحت ثقيف اعز الناس بلدا، وأمنعه جانبا وأفضله مسكنا وأخصبه جنابا مع توسطهم الحجاز وإحاطة قبائل مضرواليمن قضاعة بهم من كل وجه فحمت دارها، وكاوحت العرب عنها[47]، وضاهت مكة في الغنى والازدهار، وبنتيجة اشتغال أهلها بالزراعة والتجارة حتى قيل لها المكتين اوالقريتين وفي القران الكريم إشارة إلى ذلك في قوله تعالى، منوها باستكبار المشركين أن يبعث محمدا رسولا بينما في مكة والطائف من هم في زعمهم اكبر حظا منه " وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ "[48].

إن عناية أهل الطائف بالزراعة واهتمامهم بالتجارة مؤشرات على مدى التقدم الذي أحرزته هذه الواحة الجميلة ولهذا المستوى من التقدم اقترن اسمها بمكة،

---

[44]: اليعقوبي: تاريخ ج1 ص278، نسب قريش ص9، انساب الأشراف ج1ص76، تاج العروس مادة حبش، علي: المفصل ج4 ص 30 – 31، جرجس أديان ص 81، بروص 174 حاشية.

[45]: ابن هشام: السيرة ج1 ث 48، أنساب الأشراف ج1 ص 26، ياقوت مادة طائف، الكامل في التاريخ ج1ص684، ابن خلدون العبر ج2 ص 309 – 338، سالم ص 378، سعد: في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 250 حاشية،

[46]: ابن خلدون: العبر ج2 ص 338، الكامل في التاريخ ج1 ص 684 وما بعد ياقوت مادة طائف،

[47]: انساب الأشراف ج1 ص 27، البكري: معجم ما استعجم ج1 ص 64 – 67، ياقوت مادة طائف، كاوحت ردت لسان العرب مادة كوح.

[48]: سورة الزخرف الآية 31

فكانت بالطبع معظم أراضي الطائف وأخصبها ملكا لأرستقراطيتها ولبعض أثرياء مكة ذلك إن إنتاجية الزراعة المربحة، كانت تجذب كما سبقت الإشارة كبار تجار مكة إلى توظيف بعض أموالهم في تملك الأراضي والى ترابط المصالح بين مكة والطائف.

ولعلنا نجد أن ثقيف حزبان: الأحلاف وبنومالك[49]، فالأحلاف منهم غيلان بن سلمة وكنانة بن عبد يا ليل، والحكم بن عمروبن وهب بن معتب وربيعة ابن عبد ياليل وشرحبيل بن غيلان بن سلمة وعثمان بن أبى العاص واوس بن عوف ونمير بن خرشة بن ربيعة[50] وذكرت بطون أخرى من ثقيف كبنوعوف، وبنوسعد والتوسة[51]، وكان يسكن الطائف إلى جانب بني ثقيف جماعة من حمير من أزد السراة وقوم من قريش من كنانة وعذرة[52]، كما سكنها جماعة من هوازن، والاوس والخزرج ومزينة وجهينة[53]، وجماعة من اليهود " طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة 00 ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف[54]، وسكن جبل غزوان قبائل هذيل[55]، وسكنها أيضا قوم من الروم[56] وقبائل من بني هلال[57]،أما الاوس والخزرج، وهما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمروبن عامر بن حارثة بن امروء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وأمهم قيلة بنت الأرقم بن عمروبن جفنة، وقد اختلف في نسب أمهم[58]،

---

[49]: الكامل في التاريخ ج1 ص 685، سبائك ص 152، علي: المفصل ج4 ص 150

[50]: ابن سعد: الطبقات ج1 ص 312 وما بعدها – علي: المفصل ج4 ص 150

[51]: سبائك ص 152

[52]: ياقوت مادة طائف

[53]: ياقوت مادة طائف، جواد: المفصل ج1 ص 147 سالم ص 380، جرجس: أديان ص 228 – 229،

[54]: فتوح البلدان ص 67 – 68

[55]: ياقوت مادة طائف

[56]: ابن هشام: السيرة ج2 ص62، انساب الأشراف ج1 ص 489، جرجس: أديان ص 81،

[57]: الصفة ص 260

[58]: ابن خلدون: العبر ج2 ص 288، ياقوت مادة طائف، سمهودي ج1 ص 167 ـ173 علي: المفصل ج4 ص 136.

وقد هاجرت قبائل الأزد بعد حادثة سيل العرم إلى الشمال، وتوزعوا في أماكن متعددة، كان منهم الاوس والخزرج الذين استقربهم المطاف في يثرب وحين نزلوها كان بها جماعة من اليهود أمثال بنوقريظة، بنوالنضير بنومحمحم بنوزعورا، بنوقينقاع، بنوثعلبة، أهل زهرة، أهل زبالة، وأهل يثرب وبنوعكوة وبنومرانه[59]، كان ملكهم رجلا مستبدا يعتدي على نساء الاوس والخزرج فقتله منهم مالك بن العجلان بن زيد السالمي الخزرجى، وصار الاوس والخزرج منذ ذلك الحين سادة يثرب، وصارت لهم الأموال والأطام وتفرقوا في عالية المدينة وسافلتها[60]، هذا الخليط من السكان في يثرب يضاف إليه بطون الخزرج الخمسة وهي: عمروبن الخزرج، عوف بن الخزرج، جشم بن الخزرج، كعب بن الخزرج، الحارث بن الخزرج[61]. وبطون الأوس عوف بن مالك، عمروبن مالك، مرة بن مالك، جشم بن مالك امروء القيس بن مالك[62]، لم يكن لهم غاية مشتركة، مما جعلهم في نزاع مستمر أضف لذلك استبداد ملك اليهود، وغيرة العربي على العرض والشرف مما حدى بواحد منهم إلى التمرد على الظلم وقتل الظالم عندما سنحت له الفرصة.

بعد ذلك عاش الاوس والخزرج متفقي الكلمة، متحدي الصفوف حينا من الزمن، إلى أن وقع الخلاف بين الأخوين، وانتهى الأمر بقيام حروب بينهما أولها حرب سمير وآخرها يوم بعاث[63]، تدل هذه الحروب على تفكك الروابط الجماعية، وظهور الملكية الخاصة، والرغبة في التحرر من هيمنة القبائل الأقوى، والتخلص من

---

[59]: شفاء الغرام ج2 ص 315 ـ 326، الأغاني ج22 ص 109، سمهودي ج1 ص 160، الخطراوي (محمد العيد) شعر الحرب في الجاهلية عند الاوس والخزرج دار القلم – دمشق بيروت ط1 1400 هـ – 1980 ص 35، يختصر: خطراوي: شعر الحرب

[60]: ياقوت مادة يثرب، سمهودي ج1 ص 177، 190، وما بعد، سالم ص 392

[61]: ابن حزم الأندلسي (محمد علي بن أحمد بن سعيد) جمهرة انساب العرب تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون – دار المعارف بمصر 1382 هـ 1962 م ص 346 يختصر إلى جمهرة انساب العرب، ابن خلدون: العبر ج2 ص 288، سمهودي ج1 ص 177،

[62]: جمهرة انساب العرب ص 332، ابن خلدون العبر ج2 ص 288، سمهودي ج1 ص 176 وما بعد،

[63]: الكامل في التاريخ ج1 ص 658 – 680، سمهودي ج1 ص 215 وما بعد، جاد المولى، أيام العرب ص 62 – 73

الظلم والتعسف والتبعية، وإلى التسابق للسيطرة وامتلاك عدد أكبر من الأراضي وتدل أيضا على بقاء الروح الأعرابية حيث كان الغزو في نظرهم بمثابة مورد اقتصادي يفيد منه جميع أفراد القبيلة، فلم تتميز حياة البطون اليثربية بشيء عن حياة القبائل البدوية في الجزيرة العربية إلا بالاستقرار الذي فرضته عليها الحياة الزراعية.

العناصر التي تتألف منها القبيلة:

كانت القبيلة العربية قبل الاسلام على مثال غيرها من القبائل القديمة فيها جميع الأقارب من ناحية الذكور (العصبة)[64]، وهم أبناء القبيلة الصرحاء وفيها في كثير من الاحيان الموالي والأدعياء والعبيد... الخ.

الذين ألفوا من الناحية القانونية والاجتماعية ما يشبه الشخص الواحد، فاندمجوا في القبيلة عن طريق الحلف أوالجوار أوالمؤاخاة... الخ.وكان التمايز الاجتماعي واضحا بين الفئة العليا وبين الفئات السفلى التي تؤلف سواد العرب.

1ـ الصرحاء:

وهم الفئة الممتازة التي لها الصدارة في القبيلة والمركز المرموق، وهم بنية القبيلة الذين يجمعهم نسب واحد، ودم مشترك لم تلحقه هجنة[65]، والصريح النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم [66] حسب قول ابن خلدون. تمتعت هذه الفئة بحقوق كثيرة يقابلها في كثير من الاحيان كثير من الواجبات نظمها القانون العرفي على أساس التضامن التام بين الفرد والجماعة.

---

[64]: وافي ص 9،الجمالي (حافظ) علم الاجتماع – مطبعة الجامعة السورية 1373 هـ ـ 1954 م ص 17، يختصر إلى جمالي: علم الاجتماع.

: الهجين ابن الامة لسان العرب مادة هجن

[65]: التبريزي: (أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب) ديوان الحماسة، دار القلم بيروت لبنان ج1 ص 30 يختصر إلى التبريزي، ديوان الحماسة،

[66]: ابن خلدون، المقدمة ص 129

فمن حق الفرد على القبيلة حمايته حيا وميتا ، فإذا قتل لم تترك دمه يذهب هدرا[67] ، وهي مسؤولة عن أية جريمة يرتكبها ، وعليها واجب الانتصار له مظلوما ، والوقوف إلى جانبه ظالما ، وكان يكفي أن يستغيث فإذا السيوف مسلطة والرماح مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب لاقل الأسباب، لان فخر العرب بالنسب الصريح قال السموأل[68]:

علونا إلى خير الظهور وحطنا لوقت إلى خير البطون نزول

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل

ومنحت القبيلة الصريح حق التصرف كالإجازة، وهي أبرز حقوق المواطنة في القبيلة العربية وأخطرها ، فإذا أجار أحد الصرحاء في القبيلة رجلا آخر من قبيلة أخرى، تعين على القبيلة إن تقر ذلك، ولوكان المجير صغيرا ، أوكان امرأة مادام من صميمها[69].

ومقابل ذلك كان من واجبه تجاه قبيلته أن يتضامن معها ، وأن يهب لتلبية نداءها وأن يعمل من أجلها ولا يتصرف إلا في حدود النطاق الجماعي الذي يحفظ عليها وحدتها ، فلا يخرج عن العرف والتقاليد ، ولا يحملها ما لا تطيق ويهدر في سبيلها كل نزعة فردية أوانفصالية من نفسه ، فهويضحي لها بنفسه كما يضحي لها بماله ، فهي حياته وكيانه ، وهومع اعتزازه بشخصيته وحريته يعيش لها وتحت إطارها ، فحين يتكلم فباسمها ، وكأن شخصيته انحلت بداخلها.

قال الشاعر[70]

---

[67]: **شريف ص** 32

[68]: **التبريزي: (أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب) ديوان الحماسة، دار القلم بيروت لبنان ج1 ص** 30 **يختصر إلى التبريزي، ديوان الحماسة،**

[69]: **ابن هشام: السيرة ج2 ص** 8 -9

[70]: **التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص** 337**، الأغاني ج10 ص 8 جرجس: أديان ص** 141 – 142.

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ففي مكة اعتبر قرشيوها أصل المجتمع المكي، وكل من عداهم من العرب الأحرار، انضم إليهم عن طريق التبعية أوالجوار أوالولاء فكانوا أما موالي لهم أوعبيد، وكان في أعلى السلم الاجتماعي قريش البطاح فهم الذين استأثروا بالحكم والرياسة، والثروة، وكانوا أصحاب الكلمة العليا في مكة وفي المجتمع الحجازي

2- الموالي:

إن كلمة مولى تحمل معاني كثيرة، فهي تعني المالك والعبدوالمعتق والصاحب والجار والحليف والناصر والصديق والشريك وابن العم والأخ والابن[71]. قال تعالى ((يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ)) [72] وقال عز وجل ((وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ))(73).

فالموالي أنواع: موالي نسب، موالي جوار، وحلفاء قال النابغة الجعدي[74]:

موالي حلف لا موالي قرابة ولكن قطينا يسألون الأعاديا

وأنشد غيره [75]،

نبئت حيا على نعمان أفردهم مولى اليمين ومولى الداروالنسب

فمولى اليمين الحليف، ومولى الدار الجار، ومولى النسب ابن العم[76] يضاف إلى هذه الطبقة الخلعاء الذين خلعتهم قبيلتهم وفصلتهم عنها وتبرأت منهم لجرائم

---

(71): لسان العرب مادة ولي،

(72): سورة الحج: الآية 12 – 13

(73): سورة الحج: الآية 78

(74): لسان العرب مادة ولي، الجعدي (النابغة) ديوانه: دار صادر، بيروت ص 178 – يختصر إلى ديوان النابغة الجعدي

(75): ابن رشيق: العمدة ج2 ص 159، علي: المفصل ج4 ص 368

ارتكبوها، ثم دخلوا في قبيلة أخرى على أساس الموالاة بالجوار، ودخل فيها الصعاليك المغامرون، والعتقاء الذين كانوا بالأصل عبيدا ثم اعتقوا وسنفصل الحديث عن كل هؤلاء فيما بعد.

أما من حيث حقوق وواجبات كل منهم، فهي مختلفة فأبن العم هو من أبناء القبيلة الصرحاء، وبالتالي ليس بمنزلة الجار والحليف، بل هما أدنى منزلة منه لعدم التكافؤ في القوة والنسب، فلا يحق للمولى الزواج إلا من موالي بعض القبائل، ويدعى في هذه الحالة بمولى الرحم[77]، ولا يحق له الإجارة لأنه يكون حليفا، والإجارة كما وجدنا من حق الصرحاء فقط[78].

ودية المولى نصف دية الصريح[79]، فقد ورد في الحديث عن يوم سميحة أن دية الحليف خمسين والصريح مائة[80] وذلك لان الرابطة التي تربط المولى بالقبيلة تحل بمجرد خروجة من حمى القبيلة، ومولى الحلف أوثق من مولى الجوار، فرابطة الجوار موقوتة، تبقى ببقاء الجار في كنف مجيره، وتحل بخروجه، ومن ثم مولى الحلف يقسم عند الانضمام إلى القبيلة فيكون ولاوءه مقدسا[81]، وسنفصل ذلك في الأحلاف القبلية، ودخل في إطار الموالي كما قلنا العتقاء، وهم الذين كانوا في الأصل عبيدا ثم اعتقوا[82]، وارتبطوا بالسيد برابطة الولاء[83].

---

[76]: المفضليات ص 654، علي: المفصل ج4 ص 368 .

[77]: زيدان تاريخ التمدن الإسلامي ج4 ص 31 علي: المفصل ج4 ص 368، صباغ المرآة ص 152،

[78] ابن هشام: السيرة ج2 ص 20

[79]: صفوت (أحمد زكي) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة – دار الحداثة، ط1 1985 م ص 13 يختصر إلى جمهرة خطب العرب.

[80]: ديوان حسان بن ثابت ص 39 – 40

[81]: التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص 147 حاشية

[82]: لسان العرب مادة عتق زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج4 ص 29، شوقي، العصر الجاهلي ص 67.

[83]: لسان العرب مادة ولي، زيدان تاريخ التمدن الإسلامي ج4 ص 29، شوقي، العصر الجاهلي ص 67، سالم ص 436.

ويبدومن روايات أهل الأخبار أن عدد موالي قريش كان كبيرا، وقد تمتعوا بمركز كبير، وأصبح بعضهم مسموع الكلمة، مطاعا بين مواليه لان المجتمع المكي أفسح صدره لهم، وأحل لهم منزلة رفيعة تبعا لسياسته العامة التي قامت على تنشيط التجارة، والرغبة في الإفادة من جهودهم وخبراتهم، والحرص على إشراك القبائل العربية في تجارتها، والرغبة في حسن الصلة معها.

بالمقابل أخلص هؤلاء لقريش إخلاصا شديدا، فقاتلوا في صفها، واعتمدت عليهم اعتمادا كبيرا في صراعها ضد يثرب بعد الهجرة النبوية، وتحملوا 40 ٪ من الخسائر[84]، والنظر إلى قائمة المهاجرين مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى يثرب يتبين لنا فخامة العدد، وكانوا ممن ارتبط بقريش عن طريق الحلف كما أسلفنا القول. وقد حصل بعض الموالي في مكة على ثروات طائلة، وأسهموا في حياة البلد العامة، وتمتعوا بمكانة رفيعة، وبنفوذ كبير في المجتمع المكي مثل الاخنس بن شريق بن عمروبن وهب الثقفي الذي أثر على حلفائه من بني زهرة، فأقنعهم بالرجوع وعدم المشاركة في موقعة بدر مع إجماع قريش على الخروج لقتال المسلين، فرجعت بنوزهرة مع الأخنس، ولم يشهدها زهري واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً[85].

3ـ الرقيق:

هي الفئة الدنيا في القبيلة، وكانت تؤلف عددا كبيرا في المجتمع القبلي في الجاهلية، وهم إما رقيق أبيض، وإما رقيق أسود، لا يملكون أية وسيلة للإنتاج، بل هم أنفسهم مملوكون يعملون في خدمة الأرستقراطية البدوية والحضرية وأثرياء التجار.وكانت مصادر الرقيق في الجاهلية من السبي، والنخاسة، وعبودية الدين فالأرقاء من مصدر الأسر، هم أولئك العرب من الرجال والنساء الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبها، وقد تكرر في الأخبار ذكر السبي والسبية والسبايا،

---

[84]: ابن هشام: السيرة ج2 ص 112 وما بعد، عوض الله: مكة ص 155 – 156، دلوج1 ص 173

[85]: ابن هشام السيرة ج2 ص 271، دلوج1 ص 173

والسبي النهب واخذ الناس عبيدا وإماء. والسبية المرآة المنهوبة[86]، فسبي الرجال والنساء أمرا أساسيا في كل غارة.

وكان يحدث أحيانا أن تبيع القبيلة أسراها، فالأسير الذي لا يفتديه قومه يسترق ويباع في الأسواق، مثال على ذلك سلمان الفارسي اختطف أثناء خروجه من العراق إلى الشام، فاسترق وبيع لبعض يهود المدينة[87]، وكان زيد ين حارثة مولى الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم من قضاعة أصابه سباء في الجاهلية لأن أمه خرجت به تزور قومها بني معن فأغارت عليهم خيل بني القين بن جسر فأخذوا زيدا، فقدموا به سوق عكاظ فاشتراه حزام لعمته خديجة وقيل اشتراه من سوق حباشة فوهبته خديجة للنبي[88]، وسبيت أم عمروبن العاص وبيعت في سوق عكاظ [89].

يستنتج مما تقدم أن بيع الأسرى كان نشطا في أسواق مكة وكانت تجارة الرقيق منتظمة تروجها الحروب التي كانت تقوم بين القبائل المجاورة.

وتجدر الإشارة إلى أن الأسرى العرب في الحروب القبلية كانوا قلة بالنسبة للأرقاء الأجانب وذلك لأنهم يتحررون من الأسر بحرب مضادة تشنها القبيلة التي ينتمي إليها الأسرى على القبيلة التي أسرتهم وما بتقديم الفدية، ولم يكن يصير إلى العبودية من الأسرى العرب إلا من لم يكن يتيسر له أحد يدفع فديته، أولم يكن بقدرته أن يفدي نفسه.

وأكثر عبيد الحجاز في فترة الجاهلية الأخيرة كانوا من الغرباء الأجانب سودان استقدموا من سواحل أفريقية الشرقية ومن الحبشة بخاصة، وبيض من بلاد فارس والروم كسلمان الفارسي السابق الذكر وصهيب الرومي، على أن الرقيق الأبيض كان أغلى ثمنا من سواه لأنه أكثر ثقافة، وكان يحسن من الأعمال ما لا يحسنه العبيد السود، فوكل إليهم إدارة المبيعات، والقيام بالحرف التي تحتاج إلى خبرة

---

[86]: لسان العرب مادة سبي.

[87]: أنساب الأشراف ج1 ص 486 – 487.

[88]: أسد الغابة ج2 ص 224

[89] أسد الغابة ج4ص 116، أسواق ص 278 حاشية، برو ص 258.

ومهارة، وفن كالبناء والنجارة فقد أشير إلى عامل رومي أستخدم في بناء الكعبة عندما أرادت قريش تجديدها[90].

عرف تجار الرقيق باسم النخاسين وكان منهم عبد الله بن جدعان[91]، فمع نموالحركة التجارية واستفحال الربا والاستثمار الربوي، كان عدد العبيد يتزايد بما ينضاف إليهم من رقيق الدين، وهم من الأحرار العرب كانوا يستعبدون عند عجزهم عن دفع الدين وفوائده الفاحشة للمرابين. وبالنظر لثراء الأرستقراطية المكية وتوسع أعمالها وتشعبها فقد استخدموا في أعمال إنتاجية وفي أنواع الحرف. واستخدموا أيضا كمحاربين في القتال لصالح أسيادهم، وكحماة وحراس للقوافل التجارية الخاصة بالأغنياء، وفي أعمال الخدمة البيتية في منازل أثرياء التجار والمرابين ووجهاء القبائل، حيث كان كل شريف من الأشراف يحرص ألا يخلوداره من عبيد.

وساء وضع العبيد على الإجمال فقد سلبتهم الأرستقراطية العربية من جميع الحقوق وفرضت عليهم من الواجبات ما أرهق كاهلهم وأهدر إنسانيتهم، وباعدت بينهم وبين الحد الأدنى من حياة اجتماعية، فليس للعبد الحق أن يتزوج إلا بأذن سيده على أن يتزوج عبدة مثله، ولم يكن من السائغ أن يقتص حر بعبد فإذا قتل أحدهم عبدا فلا يجوز أن يقتل به، ويقتل العبد بالحر طبعا[92]، وبلغ من سوء وضع العبد أن أحدهم إذا امتلك عبدا، وضع في عنقه حبلا وقاده كما تقاد الدابة إلى منزله، وكانوا يبتاعون الأرقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الأمتعة، وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس[93].

---

[90] أخبار مكة ج1 ص 157.

[91]: تاج العروس مادة نخس، حسن: النظم الإسلامية ص 360

[92] دروزة عصر النبي ص 383

[93]: خليل (أحمد خليل) مضمون الأسطورة في الفكر العربي دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ط1 حزيران 1973 ص 83 يختصر إلى مضمون الأسطورة في الفكر العربي.

وأكثر من ذلك أن الرجل كان يتسرى بإمائه، وكانت الأمة مصدر بهجة ومتعة تدخل السرور إلى مالكها، فإذا ولدت ألحق هؤلاء الأولاد بالعبيد لأنهم جاؤوا ثمرة لصلة غير متكافئة كعنترة بن شداد[94]، كان من أغربة العرب.

وبسبب دنو منزلة هؤلاء تطلع بعضهم إلى استرداد حريته وكان يتم ذلك بعدة طرق، فإن أدى العبد إلى سيده خدمة عظيمة كأن ينقذه هوأوأهل بيته من هلاك محقق، ويظهر في ذلك شجاعة نادرة تكون هذه الشجاعة شفيعة للتحرر كما حدث لعنترة بن شداد عندما أغار على بني عبس وأبلى بلاء حسناء كان سببا في عتقه وإلحاق نسبه بابيه[95].

وتحرر العبد بطريق المكاتبة، وهوأن يكتب لمواليه بعتقه فالرقيق الذي يتحرر بهذه الطريقة يقال له المكاتب[96]، على أن هناك طريقة أخرى لتحررهم وهي أن يوصي سيده بعتقه بعد وفاته تقربا للألهة ويسمى هذا بالمدبر[97].

وبالنظر لانشغال أهل مكة بالتجارة الواسعة وتوسيع أعمالهم كما ذكرنا سابقا فقد وجدت هذه الفئة بكثرة في المجتمع المكي، وكانوا أكثر حظا من مثيلهم في القبائل الاخرى، ثم مالبثت يثرب أن نافست مكة في الثراء وامتلاك الرقيق. ولعل مما يدل عل كثرتهم المفرطة أن هندا بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبدا من عبيدها، كما اعتق أبو أحيحه سعيد بن العاص مائة عبد أيضا[98].

إذا كان الرقيق بضاعة ضرورية لا بد منها لاهل المال تدر عليهم أرباحا عظيمة، فهم آلات ذلك العصر، ومصدر من مصادر الاستغلال للحصول على الثروة ومكة بلد الأثرياء والتجار، لكن على الرغم من دنومنزلتهم فقد اندمج بعضهم بالمجتمع العربي الجاهلي اندماجا كاملا أوشبه كامل، واعتبر جزءا من الأسرة، ولنا في أم

---

[94]: الأغاني ج2 ص 239، ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص 130، عوض الله مكة ص 157 سالم 497 .

[95]: الأغاني ج8 ص 239 وما بعد.

[96]: انساب الأشراف ج1 ص 487، الأغاني ج17 ص 327 زيدان، تاريخ التمدن إلا سلامي ج 4 ص 29

[97]: لسان العرب مادة دبر، شريف ص 309

[98]: عوض الله: مكة ص 157، دلوج1 ص 170

أيمن التي شاركت في تربية الرسول صل الله عليه وسلم، واعترف لها بذلك، فقربها وأكرمها وناداها يا أمة خير مثل على ذلك[99]، إلا أن هذا لا يعني ارتفاع شأن العبيد عند كل القبائل، فقد بقوا أقل شأنا من غيرهم وظل التفاوت الاجتماعي قائما حتى سمعنا بالمشاركة في امتلاك العبد أوالأمة[100]، فلا تستطيع الحرة أن تتزوج من عبد، وإذا أراد أحدهم شتم آخر قال: يا ابن حمراء العجان أي يا ابن الأمة[101].

ومما يلاحظ أن العبد الذي يعمل داخل المنزل يفضل أن يكون خصيا، وإذا ما أسلمت المرآة الحرة لعبدها مراقبة أولادها أومرافقتهم فإنها تجيز ذلك للذكور دون الإناث خشية الإساءة لهن ويبدوأنه كان يسمح للعبد بالتجول في داخل المنزل، والدخول إلى الغرف الخاصة، أما العمل الخارجي الذي قد تكلف به المرأة العبد هومعاونتها في تجارتها كما فعل ميسرة غلام خديجة عندما بعثته في تجارتها مع محمد صل الله عليه وسلم[102].

وبسبب استثمار أتعاب العبيد فمن الطبيعي أن توحد ظروف الاستغلال والشقاء المادي والمعنوي والعبودية بين العوام والأرقاء، وسائر المعدمين والبؤساء المضطهدين في النضال المشترك ضد الأرستقراطية العربية، والمكية بخاصة، في سبيل تحسين أوضاعهم وتحررهم من الظلم الاجتماعي والرق.

4 ـ الاستلحاق:

الادعاء، واستلحقه أي ادعاه، والملحق: الدعي والملصق[103]، كانت العرب في الجاهلية تستلحق شخصا ما بنسبها، وتجعله في حمايتها ورعايتها، أي في عصبيتها، من الممكن أن يكون هذا الشخص صريح النسب أسيرا، أومولى، أوعبدا، ومن

---

(99): مروج الذهب ج2 ص 275، كحالة: أعلام النساء ج1 ص 107، صباغ المرآة ص 272

(100): دروزة عصر النبي ص 382

(101): لسان العرب مادة حمر، تاج العروس مادة حمر

(102) ابن هشام: السيرة ج1 ص 199، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص 280 الكامل في التاريخ ج2 ص 39، البداية والنهاية ج2 ص 293.

(103) لسان العرب مادة لحق.

الممكن أن يكون لرجل عربي جوار غير عربيات فيلدن له أولاد من غير زواج شرعي، فهذا الرجل له الخيار في أن يلحقهم بنسبه أولا يلحقهم، فان فعل ذلك أصبحوا يحملون نسب القبيلة[104]، ومن هذا القبيل أبناء الإماء البغايا لانه كان لاهل الجاهلية إماء بغايا، وكان سادتهن يُلِمّون بهن[105] فإذا جاءت إحداهن بولد ربما ادعاء السيد أوالزاني فيقع الخلاف بينهما على الولد، حدث مثل ذلك أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، فقضى بإلحاقة بالسيد، لان الامة فراش كالحرة، فان مات السيد ولم يستحلقه، ثم استلحقه ورثته من بعده لحق بأبيه وفي ميراثه خلاف[106]، وكذلك كانت العرب في الجاهلية تتزوج المرأة وهي حامل من رجل أخر. فإذا ولدت على فراش زوجها الجديد، فان هذا الزوج يلحق الولد به[107].

5 ـ الأدعياء

يقال للمستلحق كما وجدنا الدعي، وهوالمنسوب إلى غير أبيه وعشيرته[108] ومنه المتبنى الذي تبناه رجل فدعاه ابنه، ونسبه إلى غيره، فكان المقداد رجلا من بني بهر سفك دما فيها وهرب إلى كنده، وانتسب إليها، ثم عاد فسفك دما في عشيرته الجديدة وهرب إلى مكة حيث تبناه الأسود الزهري، وأصبح يعرف بعد ذلك بالمقداد بن الأسود الزهري[109].

وقد كان باستطاعة الرجل أن يتبنى من يشاء من الأولاد رغبة في ولد نجيب أومقدام، قال تعالى: ((وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ))[110].

ويتمتع المتبني عادة بالحقوق المعترف بها للأبناء، لأنه أصبح واحدا من العائلة يرث كما يرثون، ولا يجوز لأبيه الذي تبناه أن يتزوج من امرأته، كما جرى في

---

[104] فروخ: تاريخ الجاهلية ص 150، بروص 257،

[105] مقاربة المعصية لسان العرب مادة لمم.

[106] لسان العرب مادة لحق، علي: المفصل ج4 ص357 – 358

[107] انظر فصل الأسرة

[108] لسان العرب مادة دعا

[109] الزركلي: الأعلام ج8 ص 208، جمعة ص 49

[110] سورة الأحزاب: الآية 4

عرف الدم والقربى بين الأباء والأبناء[111]، أي كان حكم الدعى من الناحية القانونية في حكم النسب الصريح والبنوة الشرعية، وإذا كان الرجل دعي في رهط، وكان الرهط دعي في قبيلة يسمى حينئذ داعي أدعياء، مثل ابن هرمة كان دعيا في الخلج وكان الخلج دعيا في قريش[112]، ووجدت للدعي أسماء متعددة وكلها تعني من كان في القبيلة وليس من أبنائها الصرحاء، كالنقيل والحميل، والدخيل، والمولى، والمذبذب، والمنوط، والملصق[113].

6- الجوار:

يقال للذي يستجير بك جار، والجار الذي أجرته من أن يظلم وأجاره أنقذه من شيء يقع عليه[114].

وللجوار صلة بالنسب والعصبية، لأنه حين يتوثق، وتتقوى أواصره يصبح نسبا. فيدخل عندئذ نسب المستجير بنسب المجير، وهومن السنن التي حافظ عليها الجاهليون، واعتبروها كالقوانين، فاذا استجار شخص ما بآخر، أواستجارت قبيلة بأخرى، اكتسب هذا الجوار صيغة قانونية، ووجب على المجير المحافظة على حق الجوار، وإلا نزلت السبة بالمجير، وازدراه الناس[115]، لان حماية الجار فرض على القبيلة كلها تدافع عنه، وتقاتل طلبا لثأره، كما تقاتل طلبا لثار الصريح منها[116]، فكان لمالك بن العجلان جار قتله رجل من بني عوف يقال له سمير، فبعث إليهم مالك قائلا أنكم قتلتم قتيلا فأرسلوا إلينا بقاتلة، فأبوا أن يعطوه إياه، وعرضوا عليه الدية فقبلها، فأرسلوا إليه يقولون: أن صاحبكم حليف وليس له إلا نصف الدية، فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية الكاملة، أويقتل سميرا، ومن

---

(111) صباغ: المرأة ص 85

(112) الأغاني ج4 ص 368، علي: المفصل ج4 ص 359

(113) لسان العرب مادة نوط، علي: المفصل ج4 ص 357.

(114) لسان العرب مادة جور، تاج العروس مادة جور

(115) علي: المفصل ج4 ص 360

(116) انساب الأشراف ج1 ص 73 – 74 الأغاني ج3 ص 59 – 60 وما بعد، شريف ص 23

أجل ذلك نشبت الحرب بين الاوس والخزرج ولبثوا متحاربين عشرين سنة، يتعاودون القتال في تلك السنين إلى أن احتكموا إلى ثابت بن المنذر، فحكم بأن يؤدي حليف مالك دية الصريح ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه في الصريح على ديته والحليف على ديته[117] ولهذا امتدحت العرب ذمة الجار وقالت: فلان منيع الجار حامي الذمار كقول الشاعر[118]:

هـم يمنعـون الجـار حتـى كأنـه ... كثيبـة[119] زور بيـن خـافيتي نسـر

وكقول حجر بن خالد الثعلبي[120]:

ونحـن الـذين لا يـزرع جارنـا ... وبعضـهم للغـد صـم مسـامعه

ندهـدق بضـع اللحـم للبـاع والنـدى ... وبعضـهم تغلـي بـذم مناقعـه

وقال السموآل[121]:

لنـا جبـل يحتلـه مـن نجـيره ... منيـع يـرد الطـرف وهو كليـل

وتتلخص حقوق الجار بالقول التالي: قد لزمني ذمامك، وأنا ما نعك مما أمنع منه نفسي وأهلي وولدي ما بقي من عشيرتي الادنين رجل، فضرب المثل بمن أحسن الجوار كأبي داوود، والقصة هي أن أبا داوود جاور كعب ابن مامة الأيادي، وكان إذا ما ت له بعير أوشاة أخلفها له[122]، فالجوار حق أمانة[123]:

فمـا أحـد منـا بمهـد لجـاره ... آذاه ولا مـزر بـه وهو عامـد

---

[117] جمعة ص 149

[118] العقد الفريد ج1 ص 121ـ 122

[119] كثيبة: مجتمعة لسان العرب مادة كثب.

[120] التبريزي ديوان الحماسة ج1 ص 198

[121] التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص 29

[122] الميداني:مجمع الأمثال ج1 ص 136، الأصمعيات ص 213،

[123] ديوان حسان بن ثابت ج1 ص 49 – 50

لانا نرى حق الجوار أمانة	ويحفظه منا الكريم المعاهد
أولئك قومي فان تسألي	كرام إذا الضيف يوما آلم
عظام القدور لأيسارهم	يكبون فيها المسن السنم
يواسون مولاهم في الغنى	ويحمون جارهم إذا ظلم

ولم يكتفوا بهذا القدر من الإجارة، فأجاروا الوحوش والهوام حتى قيل كأحمى من مجير الجراد، قالوا هومدلج بن سويد الطائي، وقالوا أيضا: كأحمى من مجير الطعن[124]، ولكن لماذا وجد الجوار؟ وجد الجوار لأجل من سلك سلوكا شائنا يضر بسمعة القبيلة، فان هذه القبيلة تخلعه أو أنه يخلع نفسه منها، ولصعوبة العيش فانه يلجأ إلى قبيلة أخرى يتصل بها، ويعيش في حماها على أساس الموالاة بالجوار بعد أن يطلبه من أحد أبناء هذه القبيلة، كذلك قد يخرج أحدهم لطلب ثأر من قبيلة أخرى، فيجد في نفسه ضعفا دون بلوغ غايته، فيلجأ إلى جوار أحد يحميه حتى يأخذ بثأره، اضافة إلى ذلك فان القبائل تجير من ترى فيهم الحمية والعزة لحمايتها والاعتزاز بجوارها، قال تعالى: ((وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ)) 0000[125]. ويتم الجوار أيضا بزواج رجل من قبيلة أخرى التحق بها، وأصبح في جوار قبيلتها فيتمتع بحمايتها، ويتصرف بأموال زوجته فيها[126].كما وجدنا من قس بن منبه عندما نزل على عامر بن الظرب مستجير[127].

---

(124) العقد الفريد ج1 ص 121 – 122 – الميداني، مجمع الأمثال ج1 ص 221، الالوسي ج1 ص 144، والظعن:الإبل عليها الهوادج، لسان العرب مادة ظعن.

(125) سورة النساء: الآية 36

(126) صباغ: المرأة ص 152

(127) ابن خلدون العبر ج2 ص 338، الكامل في التاريخ ج1 ص 684 وما بعد، ياقوت مادة طائف، سالم ص 378، سعد في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 250 خاشية.

وقد يستجير رجل بقبر كقبر عامر بن الطفيل[128]. وقد يستجير بمعبد كمكة وقد يستجير بجبل، فكانت العرب في الجاهلية إذا استجار أحدها بيثرب قيل له: قوقل في هذا الجبل ثم قد أمنت، فإذا فعل أحد ذلك وجب على أهل يثرب قبول جواره، والدفاع عنه، فقوقل رجل من الخزرج اسمه غنم بن عوف بن الخزرج سمي به لانه كان إذا أتاه مستجير قال له: قوقل في هذا الجبل وقد أمنت، أي أرتق، وقيل: لأنهم كانوا إذا أجاروا أحدا أعطوه سهما وقالوا له: قوقل به حيث شئت أي سربه حيث شئت، وذكروا أيضا أن القوقل اسم بطن من الأنصار اسمه ثعلبة بن دعد بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن الخزرج وقالوا: هوالنعمان بن مالك بن ثعلبة[129]،

وبالطبع تكون الإجارة من الأقوى إلى الأضعف، حتى يكون بوسع المجير أداء أمانة الجوار، وأنه كفوء لأن يجير، وهي ناتجة عن ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية، فالمخلوع مثلا لا يهدأ له بال حتى يجد حليفا أوجارا يتعهد له بحمايته، ويبذل العصبية له والدفاع عنه وهي دليل الرهبة والقوة وهذا مدعاة للفخر كقول الشاعر[130]:

إنما جاري لعمري ... فاعلموا أدنى عيالي

وأرى للجار حقا ... كيميني من شمالي

وأرى ناقة جاري ... فاعلموا مثل جمالي

إنما ناقة جاري ... في جواري وظلالي

أن للجار علينا ... دفع ضيم بالعوالي

---

(128) الأغاني ج17 ص 61، المفصل ج4 ص 363.

(129) علي: المفصل ج4 ص 362، جمعة ص 148.

(130) اليسوعي (لويس شيخو)، شعراء النصرانية قبل الاسلام، ط2، دار المشرق بيروت ص 546، يختصر إلى شعراء النصرانية،

فاقلي اللوم مهلا دون عرض الجار مالي

سأودي حق جاري ويدي رهن فعالي

وبالغوا في الإجارة، وحموا الجار حتى من الموت، أي إذا مات دفع حاميه ومجيره ديته إلى أهله، كما وجدنا في قصة جار مالك بن العجلان ومن ذلك قول الشاعر[131].

أيا سعد لا تغرر بنفسك واحترز فاني من قوم عن الجار أموات

ودونك أذوادي إليك فإنني خاذرة أن يغدروا ببنياتي

لعمرك لو أصبحت في دار معشر متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي

ومن طرق الجوار أنه إذا أتى رجل إلى آخر ليستجير به ولم يجده عقد طرف ثوبه إلى طنب البيت، فإن فعل ذلك عد جاراً ووجب على صاحب البيت أن يجيره وإذا خاف أحدهم وورد على من يريد الاستجارة به نكس رمحه فإذا عرفه المجير رفع رمحه، وصار في جواره[132]، وهذا ما فعله الحارث بن ظالم المري، حيث تنقل بين القبائل حتى وصل عكاظ، وبها عبد الله بن جدعان، فنكس رمحه أمام مضربة ثم رفعه حين عرفوه وأمن وأقام بمكة حتى أتاه أمان ملك الحيرة[133] ويتم الجوار أيضا بالطلب الصريح والإجابة، أوباتيان عمل على الملأ من الناس في أماكن الاجتماع في الغالب في المواسم مثل الحج والأسواق. فإن علم الناس الخبر، صار المجار في ذمة المجير، وترتب على المجير أن يكون مسؤولا عن كل ما يقع على المجير، ويصدر منه، وهذه الإجارة لا تكون عامة شاملة، بل يحدد الجوار بحدوده، كأن يحدد استجارته من قبيلة كذا، أومن القبائل الفلانية، أومن الشخص الفلاني، أومن

---

(131) شعراء النصرانية ص 155

(132) الأغاني ج3 ص 59، جواد المفصل ج2 ص 364.

(133) انساب الأشراف ج1 ص 42 وما بعد، علي: المفصل ج4 ص 364

عدوخاص، ولمدة معينة[134]، فان قبل المجير ذلك حدد جواره بما حدد في عقد الجوار، وإذا أراد خفرة الجار أعلن عن ذلك علانية حيث ورد أن خفرة الجار ثلاثة إلا إذا قبل المجير التجديد[135].

فإذا اعتدت على المستجير قبيلة أخرى، لم تذكر في نص الجوار، فلا ذمة للمستجير على المجير، وليس من حقه طلب مساعدته له، كما قد يحدد الجوار بزمن كإقامة شخص في مكان ما، أوإيصاله من موضع إلى موضع أوتعيين أمد له، ولذلك امتدح الجيران صنع مجيريهم لانهم قاموا بواجبهم نحوهم، ولم يغدروا بهم[136]

المانع الجار يوم الروع قد علموا ... وذوالفضول بلا من ولا كدر

أني شهدت كراما من مواطنه ... ليست بغيب ولا تقوال ذي هدر

أيام ذبيان إذ عض الزمان بهم ... كان الغياث لهم من هيشة الهور

ولما نزل قيس بن الحدادية عند بطن من خزاعة يقال لهم بنوعدي بن عمروبن خالد بعد أن خلعه قومة آووه وأحسنوا إليه فمدحهم بقوله[137]:

جزى الله خيرا عن خليع مطرد ... رجالا حموه آل عمروبن خالد

فليس كمن يعزوالصديق بنوكه ... وهمته في الغزوكسب المزاود

أولئك أخواني رجل عشيرتي ... وثروتهم والنصر غير المحارد

---

[134] علي: المفصل ج 4 ص 364 – 365، جمعة ص 152

[135] نهاية الأرب ج15 ص 358

[136] ثعلب (أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى. الدار القومية – القاهرة 1384 هـ – 1964 م ص 319 يختصر إلى ثعلب شرح ديوان زهير

[137] الأغاني ج14 ص 152 – 153.

وبالمقابل من غدر بالجار ذموه، ورفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به[138]، ولذلك كثيرا ما وقعت المناوشات بين القبائل بسبب اهتضام حق الجار، كحرب داحس والغبراء مثلا وحرب البسوس[139]، 0000 الخ وعلى الرغم من ذلك ظل الجار يشعر بالغربة والذل والهوان لانه في دار غير دار قومه[140].

أبى الله للجيران إلا مذلة ومن يغترب عن قومه يتذلل

كان هذا دافعا للبعض على مصالحة قومه، فهدر كرامته بين أهله أهون عليه من ظلم الأباعد.

7ـ المو ءاخاة:

هي العقد بين الأفراد، أوبين الجماعات كالعشائر والقبائل، وهي تدعوإلى التناصر والمؤازرة والمساعدة، قال تعالى: "هارون أخي أشدد به أزري"[141] وتؤدي إلى الموارثة، وليس لها شروط، فهي تكون بين بدووبدو، أوبين حضر وحضر، أوبين حضر وبدو، لأنها عقد، والعقد يقع بين كل الناس، كما تقع بين عربي وأعجمي، فالرسول صلى الله عليه وسلم آخى بين الأنصار والمهاجرين أثناء الهجرة للمدينة[142]، وآخى بين سلمان الفارسي وأبي الدر داء، وغيرهم كثر[142]، فان كانت الموءاخاة بين شخص من داخل القبيلة، وآخر من خارجها تقاسم هذا الأخير طعاما مع ابن القبيلة، أومص قطرات من جرح أحدثه في جسمه، فان فعل ذلك عدا

---

[138]: أسواق ص 283، حسن: حضارة ص 106

[139]: الكامل في التاريخ ج 1 ص 568 – 569، جاد المولى (محمد أحمد) أيام العرب دار أحياء التراث العربي ص 250 يختصر إلى (جاد المولى أيام العرب، خشروم (عبد الرزاق) الغربة في الشعر الجاهلي – منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1982 م ص 201 يختصر إلى خشروم: الغربة، جرجي: العرب قبل الاسلام ص 319

[140] خشروم: الغربة ص 202

[141]: سورة طه: الآية 30 ـ 31

[142] ابن هشام: السيرة ج2 ص 150، لسان العرب مادة أخا

[142] ابن هشام: السيرة ج2 ص 151 وما بعد

ابنا متبنى لهذه القبيلة مرغوبا فيه لتقوية العصبية القبلية، فالاخوة الصناعية تضارع الاخوة الطبيعية القائمة على علاقة الدم، وتصبح هذه مؤشرا نحوالتماسك[144].

8 ـ الخلع والصعلكة:

الخلع هوالترك للشيء أوالتبرأ منه[145]، والخليع يجني الجنايات يؤخذ بها أولياؤه، فيتبروؤن منه ومن جنايته ويقولون: أنا خلعنا فلانا فلا نأخذ أحد بجناية تجنى عليه ولا نؤاخذ بجناياته التي يجنيها.

فعندما تخلع القبيلة أحد الأشخاص، تسحب الجنسية القبلية عنه حسب التعبير الحديث للكلمة، فلم تعد مسؤولة عنه ولاسائلة أيضا، ولذلك كان إعلان الخلع أمرا خطيرا بالنسبة للإفراد، فالخليع يخرج من حمى قبيلته ليجد نفسه في موقف ضيق ووضع شاذ لانه أصبح فردا منفصلا عن قبيلة في الوقت الذي هوبحاجة لحماية قبيلته والعيش مع الجماعة[146]، فلا يرى أمامه إلا أحد طريقين، إما أن يلجأ إلى قبيلة أخرى يعيش في حماها جاراً لها أو مولى من مواليها. وإما أن يلجأ إلى الصحراء ليتخذ من الغزووالسلب، وقطع الطرق وسيلة للحياة، وأسباب الرزق معتمداً على قوته الشخصية في فرض نفسه، واثبات وجوده في مجتمع قطع معه كل صلة فالبراض بن قيس بن رافع الكناني كان سكيرا خلعه قومه وتبروؤا منه فشرب في بني الديل فخلعوه، فأتى مكة، وأتى قريشا، فنزل على حرب بن أمية فحالفه وأحسن جواره، وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه، فقال لحرب: أنه لم يبق أحد ممن يعرفني إلا خلعني سواك وانك إن خلعتني لن ينظر إلي أحد بعدك فدعني على حلفك وأنا خارج عنك وتركه وخرج فلحق بالنعمان بن المنذر بالحيرة[147]. فإذا قتل

---

(144) يحيى (لطفي عبد الوهاب) العرب في العصور القديمة ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ط2 1979 ص 369 يختصر إلى يحيى العرب في العصور القديمة.

(145) لسان العرب مادة خلع، تاج العروس مادة خلع،

(146) انساب الأشراف ج1 ص100 – 101، الكامل في التاريخ ج1 ص 590، آلوسي ج3 ص 27 وما بعد شريف ص 34، سالم ص 435، خشروم الغربة ص 130، جاد المولى أيام العرب ص 326،

(147) الأغاني ج22 ص 56 – 57، الكامل في التاريخ ج1 ص 590، سبائك ص 448، جاد المولي أيام العرب ص 326، حوفي: الحياة العربية ص 285 ،

فرد ما شخصا آخر من قبيلة، ورفض ذووالمقتول قبول الدية تصبح بشخص زعيمها مضطرة لقتل القاتل أو خلعه حفاظاً على وحدة القبيلة، ومن أساء إلى قبيلته بأفعاله المشينة، وألحق بها العار، خلعته، مفضلة التضحية بفرد بدلا من جماعة[148].

وحدث أحيانا أن خلع المرء نفسه من قبيلته كي لا تتحمل جريرة أفعاله كما حدث لعمروبن العاص، وعمارة بن الوليد، فقد خلع كل منهما نفسه من عشيرته، وسبب ذلك أنهما ذهبا في تجارة إلى الحبشة فاختصما في الطريق وأساء عمارة إلى عمرو، وأضمر له الشر، فكتب إلى أبيه أن يخلعه دفعا لما قد يجره عليه من المكروه إذا هوأذى عمارة، وكتب الآخر إلى أهله بمثل ما كتب الأول، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها، وأرسلوا مناديا إلى مكة[149]، لأن الخلع يتم في الأسواق والمحافل[150]، بالمناداة والكتابة، بأن القبيلة قد خلعت فلانا فإن جر أي أخذ بجريرة لم تضمن، وأن جر عليه أي قتل لم تطلب[151]، فيغادر هذا الفرد المخلوع قبيلته ملتجئا إلى غيرها، طالبا الحماية والحلف والجوار فحين خلعت خزاعة قيس ابن الحدادية أعلنت عن ذلك في سوق عكاظ، وأشهدت على نفسها بخلعها اياه، فلا تحتمل جريرة له، ولا تطالب بجريرة أحد عليه[152].

وفي بعض الأحيان تنفي القبائل خلعاءها إلى أماكن معينة مثل حضوضى وهوجبل في الغرب وقيل جزيرة في البحر[153].

فالرجل الذي نفاه قومه، ولم يجد من يجيره، ينسحب إلى الطبيعة هربا من مواجهة القهر الذي يمارسه المجتمع والحياة على الفرد، ليجمع حوله عصابة ممن هم مثله من الشذاذ والفتاك، ليشهروا السلاح في وجه الأغنياء، وأصحاب الإبل بخاصة من الإغارة والغزو، لينتزعوا منهم مقومات حياة كريمة وإنسانية، يدل ذلك أن

---

[148] لسان العرب مادة خلع، بروص 260.

[149] أنساب الأشراف ج1 ص 232 – 233 – خشروم الغربة ص 123

[150]: أسواق ص 283، عوض الله: مكة ص155

[151] لسان العرب مادة خلع، آلوسي ج3 ص 27

[152] الأغاني ج14 ص 145، أسواق ص 283، جمعة ص 150، علي: المفصل ج4 ص 412

[153] ياقوت مادة حضوض، تاج العروس مادة حضض، علي: المفصل ج4 ص 413.

هناك تمايزا اقتصاديا – اجتماعيا بين فئات المجتمع، وما نشوء هذه المجموعة من الناس التي يمكن أن نسميها الصعاليك إلا نتيجة مباشرة لهذا التمايز.

فالصعلكة في اللغة الفقر والصعلوك الفقير الذي لا مال عنده ولا اعتماد له على شيء أوأحد يعينه على شق طريقه في الحياة[154].

ينعكس ذلك في أخبارهم، وفي شعر شعرائهم حيث نجد إحساسا مريرا بوقع الفقر في نفوسهم، وشكوى صارخة من الظلم الاجتماعي، وهوان منزلتهم واستنكار للعبودية، والتمييز العنصري، فقيس بن الحدادية السابق الذكر يرى أنه لا يساوي عند قومه عنزا جرباء جد ماء[155]، وخبر تلك اللطمة التي لطمتها الفتاة السلامية للشنفرى والتي كانت سببا في تصعلكه، لأنها أنكرت عليه أن يرتفع إلى مقامها الاجتماعي على الرغم من أن بني سلامان كانت تعتبره واحدا منها حيث نشأ فيها فلم ترفع الحواجز التي تفصل بينهما، ففي ذلك خبر كبير الدلالة على ماكان يعانيه الصعاليك في مجتمعهم من ضيم ومذلة[156]،فلا عجب بعد ذلك أن نرى قيس بن الحدادية يجمع الكثير من أمثاله ويغير بهم على قومه ويستاق أموالهم[157] و لا عجب من إغارة الشنفرى على من نشأ فيهم وقتله تسع وتسعين رجلاً منهم[158]. لقد بتر هؤلاء الصعاليك العلاقة القائمة بينهم وبين منظوماتهم الجماعية. القبلية، وانسحبوا إلى الطبيعة هربا من مواجهة القهر الذي مارسه المجتمع عليهم، فلم يستكينوا للحياة القاسية، بل كانوا يتحدونها من أجل إعادة مجتمع المساواة والملكية العامة لوسائل الإنتاج والمعيشة وعلاقات الإخاء الخاصة لوسائل الإنتاج والمعيشة وعلاقة الاستغلال بين المستثمرين والمستثمَرين.

وصار هؤلاء قوة خشي منها، وحسب لها ألف حساب وأن فيهم شعراء فحولا أحسنوا الهجاء وأتقنوا فن ثلب الأعراض وفيهم مقاتلون شجعان لا يعبأ ون بالموت،

---

(154) لسان العرب مادة صعلك.

(155) الأغاني ج14 ص 160 والجدماء المقطوعة اليد لسان العرب مادة جذم

(156) الأغاني ج21 ص179

(157) الأغاني ج14 ص145، جمعة ص150

(158) الأغاني ج21 ص 179.

ويفتكون بمن يريدون الفتك به، فخافهم الناس وامتنعوا جهد إمكانهم عن التحرش بهم ومعاداتهم.

ومقابل ذلك وجدنا أن بعضهم قبل جوار الصعاليك ورد عنهم وأحسن إليهم فاستفادوا منه واستفاد منهم[159].

كان عروة بن الورد زعيمهم ونصيرهم، وحامل لوائهم، ذكره عبد الملك بن مروان قائلا: ما كنت أحب أن أحد ولد ني من العرب إلا عروة بن الورد[160]، فعروة صعلوك فلسف الصعلكة بأن جعلها مثلا من مثل الحياة، بينما كانت تعني فقرا مدقعا، وجوعا قتالا وهياما على وجه الأرض.

9ـ الأحلاف:

وجدنا فيما سبق أنه اندمج اثناء التطور الاجتماعي للقبيلة بعض عناصر غريبة عنها، إما بالجوار، وإما بالتبني والولاء، فكان الجار أوالمولى يسمى أيضا بالحليف، وذلك لأن عهد الجوار كان يتم بالقسم وحلف اليمين، فكان الرجل يحلف لصاحبه أن لا يغدر به، ويبدوأن فكرة القسم جاءت متأخرة. وأن الأصل في الحلف هواتحاد جماعات منفصلة في جماعة أخرى أعز جانبا بحيث يندمج الجار في العشيرة ويصبح أخا لكل فرد فيها وله جميع الحقوق والواجبات[161]، وقد بلغ من اندماج الحليف في عشيرة مجيرة، أنه كان يرثه حتى في ماله[162]

فللأحلاف أهمية كبيرة في عرف العرب في عصر ما قبل الاسلام، لانهم عاشوا في ذاك الوقت على شكل قبائل، وكانت القبائل على درجات من القوة من حيث عدد الفرسان فيها، واستقلالها في نفسها وعدم دخولها في أحلاف قبلية، فلا بد للقبائل الضعيفة من أن تتحالف مع غيرها أقوى منها لتحافظ على نفسها،لذلك بلغت

---

[159] علي المفصل ج4 ص 413.

[160] ابن السكيت (يعقوب بن إسحاق) ديوان عروة بن الورد. تحقيق عبد المعين الملوحي، وزارة الثقافة والإرشاد، القومي ص2، يختصر إلى ديوان عروة بن الورد.

[161] جمعة ص 151

[162] جمعة ص152.

اتحادات القبائل العربية مرحلة من التطور في العلاقات الاجتماعية، واتخذت صورة تنظيمات شتى، وتمتعت بالقوة والنفوذ العناصر القبلية، والروابط العشائرية والفردية.

ولم يكن عقد الحلف قاصرا على الأفراد، بل شمل الجماعات أيضا فتحالفت على أساس من المصالح المشتركة، والضرورات الدفاعية، فالعرب كانوا ينتسبون إلى الأعز لحماية الحمية واباءة الدنية، وسكون النفوس إلى نفيس الكثرة والعصبية[163]، فعمرت بعض الأحلاف طويلا وانتهت إلى نسب، شعر معه أفراد القبيلة أنهم متسلسلون من أسرة واحدة، ومن جد واحد[164]، وكان يجوز للأفراد الذين ينضمون بحلف ما إلى قبيلة أن ينسبوا إلى القبيلة التي دخلوا فيها، وأن ينسبوا إلى القبيلتين معا[165].

وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة، أوما يدعوإلى انفصال بعض قبائل الحلف بسبب خلاف ناشئ أوتناقض قائم، فتنضم القبائل المنفصلة إلى حلف آخر - يحقق لها مصالحها، ومن ثم كنا نرى أحلافا تتكون وأحلافا قديمة تتفكك أوتضعف وفي ذلك قول البكري: ((فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة، وتنافس الناس في الماء والكلأ، والتماسهم المعاش في المتسع، وغلبة بعضهم بعضا على البلاد والمعاش، واستضعاف القوي للضعيف، انضم الذليل إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير، وتباين القوم في ديارهم ومالهم، وانتشر كل قوم فيما يليهم[166]

فالغرض من دخول جماعة في حلف جماعة أخرى التعاقد على الموت وأن يكون لهم ما لأفراد الجماعة الرئيسة من حقوق وواجبات، لهذا كان لا بد من أيجاد وسيلة لوصل الأحلاف بعلاقة الدم، ولما كان الدم الذي يجري في عروق جماعة منهم يختلف عن الدم الذي يجري في عروق الجماعة الاخرى لعدم وجود نسب بينهما،

---

[163] نهاية الأرب ج2 ص283، جمعة ص154

[164] أمين (أحمد) فجر الاسلام، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة التاسعة 1964 م ص4 – يختصر إلى أحمد أمين فجر الاسلام،

[165] قلائد الجمان ص22-21، سبائك ص 18

[166] البكري معجم ما استعجم ج1 ص 53.

كان لا بد من إيجاد دم صناعي لعقد الحلف، وكان هذا الدم في الأصل دم الذبائح.التي تنحر للإلهة[167]، وكان لعق الدم الوسيلة التي تعقد بها أخوة صناعية بين الجماعات المتحالفة كما أسلفنا القوم، والطريقة في ذلك أن يغمس كل فريق يده في جفنة ملأى بالدم،ثم يلعق كل رجل ما علق بيده: وكانوا يطلقون على أمثال هؤلاء لعقة الدم[168]، ومنهم بنوعامر بن عبد مناة بن كنانة، فهم من أشد أحياء بني كنانة[169]. وبمرور الزمن شرع بعض العرب يقلعون عن استعمال الدم في عقد الحلف، ويستعيضون عنه بأنواع أخرى من السوائل مثل الرب فقد كان يشبه الدم في حمرته، ومن ذلك حلف الرباب[170].

واستعملوا الماء في العقد في نوع آخر من الحلف، وهوحلف الفضول الذي كان الغرض منه إنصاف المظلوم، وإغاثة الملهوف، وحماية الضعيف ونصرة الحق في ذاته، وابتغاء كرامة الإنسان نفسه دون مقابل أوعوض، أومساومة وقد ذكرت الكتب قصة هذا الحلف ملخصها أن رجلا من زبيد جاء بتجارة له إلى مكة، فاشتراها منه العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم، ولم يعطه ثمنها، فشكى مظلمته فأعظمت قريش ذلك، وتداعى إلى الحلف بنوهاشم، وبنوعبد المطلب، وبنوأسد بن عبد العزى، وبنوزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، واجتمعوا في دار الندوة، وساروا إلى دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاما، وتحالفوا فيما بينهم أن لا يظلم بمكة أحد إلا كنا جميعاً مع المظلوم على الظالم حتى نأخذ له مظلمته ممن ظلمه شريف،

---

[167] جمعة ص 154

[168] الأغاني ج7 ص282، علي: المفصل ج4 ص 378 وما بعد، جمعة ص160

[169] الأغاني ج7 ص282، علي المفصل ج4 ص379، جمعة ص 160

[170] العقد الفريد ج3 ص297، جواد: المفصل ج4 ص378، جمعة ص162، دلوج2 ص428

أووضيع منا أو من غيرنا[171]، وقد ورد في نهاية القصة، ثم عمدوا إلى ماء زمزم، فجعلوه في جفنة ثم بعثوا به إلى البيت، فغسلت به أركانه ثم أتوا به فشربوه[172].

من دراسة هذا الحلف، يتوضح لنا أن المكانة الاجتماعية للفرد تتعلق بالثراء، فعبد اللّه ابن جدعان كان يومذاك واسع الثراء يأكل بصحاف من ذهب[173].

ومن ثم يصور لنا هذا الحلف الجوالاجتماعي العربي الذي يتصف بالمروءة وإقامة العدل، وإكرام الضيف، والتكتل الاجتماعي، ويصور لنا تفسخ معنى العصبية القبلية القديمة – انصر أخاك ظالما كان أومظلوما – ونشوء عصبية من نوع جديد فالمصالح الاقتصادية لها الاعتبار الأول في ذلك، وإلا ضربت مصالح قريش التجارية، وبالأحرى مصالح المجتمع المكي، لان رأسمال التاجر، الصدق والأمانة والعدل، فان ذهب ذلك، ذهب كل شيء لديه، وأكثر من ذلك أن مكة مركز مقدس لا يجوز أن يظلم به أحد، وماء زمزم مقدس، ولذلك استعمل في هذا الحلف لقداسته.

ويذكر الاخباريون أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم شهد هذا الحلف [174] قبل المبعث بعشرين سنة بعد حرب الفجار بأربعة أشهر[175]، وكان يقول: " لقد شهدت في دار عبد اللّه بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم[176] ولوأدعى به في الاسلام لأحببت "[177].

---

[171] ابن هشام: السيرة ج1 ص140 – 141، السهيلي: الروض الأنف ج1 ص156، المنمق ص52 – 53 اليعقوبي: تاريخ ج2 ص 17،الأغاني ج17 ص 287 –290، البداية والنهاية ج2 ص291 – 293، شفاء الغرام ج2 ص99، العقد الثمين ج1 ص 151، أسواق ص183

[172] الأغاني ج17 ص289 – 290، دلوج2 ص430

[173] الميداني: مجمع الأمثال ج1 ص127، جواد: المفصل ج7 ص438

[174] ابن هشام: السيرة ج1 ص 141 – 142، السهيلي الروض الآنف ج1 ص155، المنصق ص53الأغاني ج17 ص 289 – 290، شفاء الغرام ج2 ص102، أسواق ص184،

[175] ابن هشام: السيرة ج1 ص140 حاشية، الأغاني ج17 ص289، البداية والنهاية ج2 ص291، شفاء الغرام ج2ص103

[176] أي لا أحب نقضه ولو دفع لي حمر النعم في مقابلة ذلك، ابن هشام ج1 ص 142 حاشية.

[177] ابن هشام: السيرة ج1 ص141 – 142

وكانوا يغمسون أيديهم في الطيب بدلا من الدم والماء أوعصارة الثمار وثم يمسحون به الكعبة فعندما اختلف بنوعبد مناف مع بني عبد الدار في توزيع المرافق الاقتصادية – الندوة والحجابة والسقاية، والرفادة واللواء كما مر معنا في مكة بين جميع القبائل – عقد بنوعبد مناف وحلفاءهم حلفا أسموه حلف المطيبين[178]، لان أبناء عبد مناف اخرجوا جفنة مملوءة طيبا ووضعوها لأحلافهم وهم أسد وزهرة وتيم عند الكعبة فغمسوا أيديهم فيها، متعاقدين على إلا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا[179]. وربما أوقدوا نارا عند تحالفهم، ودعوا بالمنع والحرمان من خيرها ومنافعها على من ينقض العهد، وكانوا يقولون الدم الدم، والهدم الهدم لا يزيده طلوع الشمس إلا شدا، وطول الليالي إلا مدا، مابل بحرصوفة 0000000 "[180]
سموا هذه النار بنار المهول[181] قال اوس بن حجر:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف

وكانوا يطرحون الملح والكبريت [182]في النار، فإذا استشاطت قالوا للحالف هذه النار تهددتك، يخوفونه بها حتى يحافظ على العهد والوعد ولا يحلف كذبا، واستعمال النار في الحلف يدل على أثر الفرس في العرب لانهم كانوا يعظمون النار[183]، وتجدر الإشارة إلى حلف الأحابيش الذي عقد بين الأحابيش وقريش على الركن[184].

وفي يثرب ـ المدينة تألفت أحلاف بين قبائلها، وعقد حلف بين أوس المدينة وقريش مكة، وكان أبوجهل غائبا، فلما قدم أنكر التحالف، وسار إلى يثرب،

---

[178] ابن هشام: السيرة ج1 ص 138 – 139، ابن خلدون: العبر ج2 ص336

[179] ابن هشام: السيرة ج1 ص139

[180] الجاحظ: الحيوان ج4 ص470، الميداني: مجمع الأمثال ج1 ص265

[181] الجاحظ : الحيوان ج4 ص470 –417 صبح الأعشى ج1 ص 409 نهاية الأرب ج1 ص111

[182] نهاية الأرب ج1 ص111، نشوة الطرب ج2 ص799، علي: المفصل ج4 ص380 حسن: حضارة ص103،

[183] الجوفي: الحياة العربية ص288

[184] انظر الفقرة المتعلقة بالكلام عن قريش من هذا الفصل

واشترط على الاوس شروطا لم يقبلوها فنقض الحلف[185].وعقدت ثقيف مع بني يربوع حلفا دام فترة من الزمن، وسعت قبائل الطائف أن تعقد محالفات مع قبائل من خارج بلدهم، فسارت بنومالك تبتغي الحلف مع دوس وخثعم على الأحلاف، وخرجت الأحلاف إلى يثرب تبتغي الحلف من الأنصار لمواجهة بني مالك[186].

ولشدة حرص العرب على الأحلاف واهتمامهم بها، كانوا يدونونها لتوكيدها وتثبيتها، وكانوا يودعونها في أماكن عبادتهم بعد إشهاد الشهود عليها تعظيما للآمر وتبعيدا عن النسيان[187]، وتطلب الأمر الوفاء بالعهد قال تعالى: ((وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ))[188]

تبين لنا مما تقدم أن العشيرة أسبق على القبيلة، وقد كانت عشيرة إقليمية، وأنه احتفظ العرب منذ أقدم العصور بنظام العشيرة وما القبيلة في الحقيقة إلا مجموعة من العشائر، أوما في حكمها كالعمائر والافخاذوالبطون، وكلها بمعنى واحد، والفرق بينها أنها تختلف في الحجم، وفي درجة بعدها عن الجد الأعلى. وقد أوجدت الظروف القاسية في عيشة الصحراء هذا النظام الاجتماعي، ولما زاد عدد العشيرة، ونمت بحيث لم تعد تستطيع أن تجد ما يقيم أودها، اضطرت بحكم الضرورة الاقتصادية أن تنقسم إلى جماعتين أوأكثر، وعلى مر الزمن أصبحت كل جماعة مستقلة لها ظروفها الخاصة، ومصالحها الخاصة وقد تتعارض هذه المصالح مع مصالح إخوانهم الأصليين، أوقد يثور نزاع فيؤدي إلى حرب بين الفريقين، كما حدث بين الاوس والخزرج مع انهما كانا في الأصل يكونان جماعة إقليمية واحدة، واستعملت كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي وهي اسم خاص لاحد أقسام المجتمع في العصر الجاهلي غلب على الأقسام الاخرى، ورأينا أن علاقة الدم التي تربط قديما بين أفراد فريقين من ذوي القربى مثل الاوس والخزرج قبل انفصال أحد الفريقين عن الآخر، قد أهملت بمرور الزمن، وأصبح واجب الفرد مقصورا على

---

(185) الكامل في التاريخ ج1 ص677 – 678

(186) الكامل في التاريخ ج1 ص684 – 686

(187) الجاحظ: الحيوان ج1 ص69 –70 ـ جواد: المفصل ج4 ص376، حسن:حضارة ص103

(188) سورة النحل: تلآية 91.

جماعته الإقليمية الجديدة التي تكونت بعد ذلك، مما يدل على تفسخ مفهوم العصبية القبلية آنذلك، وقيام عصبية من نوع جديد، ومن ثم فان محور القرابة عندهم الذي كان قائما على صلات الدم صار قائما على الادعاء، فكان الولد نفسه لا يلحق بأبيه إلا إذا رضي أن يلتحق به، ولم يكن رضاه هذا ملزما به إلى الأبد، بل يحق له أن يخرج من يشاء من أفراد أسرته ممن سبق له الاعتراف بهم فيصبح هذا غريبا عن القبيلة لان نظام القبيلة سار آنذاك على مجرد اصطلاحات اجتماعية، لا وفقا لما تمليه الغرائز أوتوحي به الميول الفطرية، أوتحدده صلات الدم، ولذلك كانت القبيلة عبارة عن فئات اجتماعية لان مفهوم الطبقية لم يعرفه العرب مثلما ساد في الهند أولدى الفرس وكانت القبائل على درجات من القوة والعدد، فاضطرت القبائل الضعيفة أن تستنصر بعضها بعضا ضد القوية، وتتحالف حرصا على سلامة كيانها وهذا التحالف هوالطور الأخير من أطوار نظام القبائل وتوجه العرب نحوالوحدة.

الفصل الثالث

أعراف ومُثل قبلية

أعراف ومثل قبلية

كان للبيئة الطبيعية، والظروف التي أحاطت بالقبائل العربية، اثر كبير في حياتهم الاجتماعية، وفي خلق نوع من الأعراف والمثل، تركزت فيما نستطيع أن نسمية المروءة، تغنى العربي بها في شعره وأدبة.

وهي وأن كان من الصعب تحديدها بدقة، إلا أنه من الممكن القول:"أنها تعتمد على الشجاعة والكرم، فتتجلى شجاعته في كثرة من نازله وقاتله، وفي مواقف دفاعه عن قبيلته، واكثر من هذا في نجدته، وأما كرمه فيتجلى في نحر الجزور للضيف، وإغاثة البائس الفقير، وفوق هذا أن يعطي أكثر مما يأخذ، وأن يغشى الوغى، ويعف عن المغنم "[1].

1- الكرم :

من أهم الفضائل الضرورية لمن يعيش في الصحراء، وخصلة من الخصال الحميدة عند العرب، ودرس من الدروس التي لقنتها الطبيعة للإنسان، وباعتبار أن حياتهم ترحال وتجوال، فكل واحد منهم معرض لأن ينفذ زاده، ولا بد أن يكون لجؤوه لأية خيمة في طلب الطعام أمرا مشروعا، ومتعارفا عليه حتى لا يهلك جوعا وعطشا، لذلك فمن يقري ضيفة اليوم، سيلقى من يقريه غداً، أما بذل المال في نظرهم فهووسيلة إلى الحياة الشريفة، وكسب المحامد والسيادة كقول حاتم[2]:

---

[1]: أمين: فجر الاسلام ص10

[2]: ديوان حاتم الطائي، دار صادر ببيروت 1401 هـ – ص41 يختصر إلى ديوان حاتم، حوفي: الحياة العربية ص310، حسن: حضارة ص90، سالم ص 441،دلو ج2 ص 371

يقولـون لـي أهلكـت مالـك فاقتصـد   ومـا كنـت لـولا مـا تقولـون سـيدا

لذلك أشادوا بالكرم والكرماء، قال كعب بن زهير [3]:

هم الأصل مني حيث كنت وأنني   مـن المـزينين[4] المصـفين[5] بـالكرم

فكرمهم لم يقف عند حد إعطاء شخص جائع ما يسد رمقه، بل وصل حد التضحية بأعز الأشياء وأثمنها لتوفير الرفاه له الذي يفوق كثيرا حدود الحاجة الضرورية، فافتخروا بتقديمهم له أشهى ما يملكون، ويكون ذلك بذبح الناقة العشار[6]، وتلقوا ضيفهم بالبشر والطلاقة، وتبسطوا معه في الحديث، وقالوا تمام الضيافة، الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المؤاكلة، قال عروة بن الورد[7]:

سـلي الجـائع الغـرثـان يـا أم منـذر   إذا مـا أتـاني بـين نـاري ومجـزري

هـل أبسـط وجهـي أنـه أول القـرى   وأبـذل معـروفي لـه دون تنكـري

وقال أيضا[8]:

فراشـي فـراش الضـيف والبيـت بيتـه   ولم يلـهني عنـه غـزال مقنـع

أحدثـه إن الحـديث مـن القـرى   وتعلـم نفسـي أنـه سـوف يهجـع[9]

---

[3]: ثعلب: شرح ديوان زهير ص9

[4]: المزينين: من مزن وهي الإسراع في طلب الحاجة، لسان العرب مادة مزن

[5]: المصفين: من صفا واستصفى واصطفى أي أختار، لسان العرب مادة صفا

[6]: جمع عشراء: ناقة أتى على حملها عشرة أشهرة وهي عند العرب أعز الإبل، لسان العرب مادة عشر.

[7]: ديوان عروة ص90، الجاحظ: (أبي عثمان عمروبن بحر) البيان والتبين تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي بمصر ط2 1380 هـ – 1960 م ج1 ص10 يختصر إلى البيان والتبين وقد نسبت الأبيات لحاتم في كتاب البيان والتبين، التبريزي ديوان الحماسة ج2 ص258

[8]: ديوان عروة ص101، البيان والتبين ج1 ص10، حوفي: الحياة العربية ص321 حسن: حضارة ص90

[9]: يهجع ينام ليلا، لسان العرب مادة هجع

وقال آخر [10]:

انك يا ابن جعفر خير فتى وخيرهم لطارق إذا أتى

ورب نضو طرق الحي سرى صادف زادا وحديثا ما اشتهى

إن الحديث جانب من القرى لذلك فرحوا بالضيف واعزوه، وبالغوا في الحفاوة به، لدرجة انهم صاروا كالعبيد له، وشرفوا بهذه العبودية، كقول حاتم[11]:

واني لعبد الضيف مادام ثاويا [12]. وما في إلا تلك من شيمة [13]، العبد

أضف إلى ذلك أنهم سخوا على الأرامل واليتامى والسائلين إذا ما اشتد البرد، وشح المطر، ولم يجد الناس طعاما، لأنه كرم في وقت تحرص النفوس فيه على البقاء، والاحتفاظ بالمال، لهذا عرف الواحد منهم بقاتل الشتاء[15]، وفي ذلك قول الخنساء في رثاء اخيها صخر [16].

وأن صخرا لوالينا وسيدنا وإن صخرا إذا نشتو لنحار

وعملوا على صلة الأرحام، وإعطاء السؤال، قال ابن ربعي الهذلي في رثاء رقيبة[17]:

أعيني ألا فابكي رقيبة أنه وصول لأرحام ومعطاء سائل

---

[10]: البيان والتبيين ج1 ص10، التبريزي، ديوان الحماسة ج2 ص352

[11]: ديوان حاتم ص44، آلوسي ج1 ص75، جرجس أديان ص147، حسن: حضارة ص90 سالم ص442.

[12]: الثواء طول المقام. لسان العرب مادة ثوا

[13]: شيمة: الخلق، لسان العرب مادة شيم

[15] لسان العرب مادة قتل.

[16] .: ديوان الخنساء، دار الأندلس، بيروت لبنان ط6 1389 هـ 1969 م ص 51 يختصر إلى ديوان الخنساء، الأغاني ج15 ص81، الحوفي: الحياة العربية ص314، حسن: حضارة ص90، سالم ص442

[17]:: البيان والتبين ج1 ص 213، حوفي الحياة العربية ص313، حسن: حضارة ص90

فأقسم لوأدركته لحميته وإن كان لم يترك مقالا لقائل

ومن عجيب أمرهم في الكرم أن بعضهم، كان يؤثر المحتاجين على نفسه وأولاده، فقد ذبح حاتم فرسه من أجل أ ن جاءته جارة له تشكوإليه جوع بنيها قائلة: أتيتك من صبية يتعاوون من الجوع، ولم يكن لديه ما يعطيها، فذبح فرسه مع أنه وعائلته جياعا مثل صبيتها ولما عارضته زوجته في ذبح الفرس، قال لها: أقلي اللوم والعذلا، فانه للؤم أن تأكلوا وأهل الحي جياع[18] ولقد هلك كعب بن مامة الأيادي بسبب جوده عطشا، لانه أعطى الماء لغيره وهوبحاجة لقطرة ماء[19] فأي نوع من التكامل الاجتماعي وصل إليه المجتمع ؟ ولماذا الغزووالسلب والنهب؟.

هذا الكرم الذي لم يكن ليقف عند حد، كان انعكاسا لشدة الجوع الذي عانى منه المجتمع في البيئة الصحراوية القاسية، وهؤلاء الذين وصفوا بالكرم قلائل بالنسبة لغالبية المجتمع.

وقد يسدل الليل أستاره، والغرباء يضربون في الصحراء، وهم بحاجة إلى زاد وماء أومبيت، فمن الذي يهديهم إلى محلة أونجع ؟.

تهديهم النار التي يوقدها الأجواد لهداية الغرباء واجتذابهم، وتهديهم النار التي يوقدها العرب لإنضاج الطعام، أوللاستدفاء، لذا فقد اكثروا من التحدث عن نار القرى[20] التي توقد في الأماكن المرتفعة لتكون أشهر وأوضح، قال عمروبن عبد الله القجلي مفتخرا[21]:

إذا أخمدت النيران من حذر القرى رأيت سنا ناري يشب اضطرامها

---

[18]: العقد الفريد ج1 ص242 – 243 الحوفي الحياة العربية ص313، حسن حضارة ص91

[19] العقد الفريد ج1،ص 246، ألوسي ج1 ص81، حسن: حضارة ص 90.

[20]: سبائك ص464، آلوسي ج1 ص69، حوفي الحياة العربية ص317، حسن: حضارة ص91

[21]: المرزباني معجم الشعراء ص223، الحوفي: الحياة العربية ص317 حسن: حضارة ص91.

أما حاتم فقد كان يعد غلمانه بالعتق إذا جلبوا ضيفا أثناء ايقادهم النار بقوله[22]

أوقد فان الليل ليل قر　　والريح يا غلام ريح صر

عَلَّ يرى نارك من يمر　　أن جلبت ضيفا فأنت حر

وإذا ضل الساري ليلا، وتحير فلم يدر أين البيوت، نبحت الكلاب فقصد صوتها، لذلك كنوا عن كرم الرجل بجبن كلبه، لانه ينبح في الليل، فإذا ما رأى الغرباء، كف لأنه قد اعتاد أن يطرق الدار غرباء، قال حسان بن ثابت[23]:

يغشون حتى ما تهر كلابهم　　لا يسألون من السواد المقبل

وقول شريح بن الأحوص[24]:

ومستنبح يبغي المبيت ودونه بيته　　من الليل سجفا ظلمة وستورها

رفعت له ناري فلما اهتدى بها　　زجرت كلابي أن يهر عقورها

وقول آخر[25]:

ومستنبح بات الصدى يستتيهه　　فتاه وحوز الليل مضطرب الكسر

رفعت له نارا ثقوبا زنادها　　تليح إلى الساري هلم إلى قدري

---

[22]:: ديوان حاتم ص59، العقد الفريد ج1 ص242، آلوسي ج1 ص78، الحوفي الحياة العربية ص317، جرجس: أديان ص48، حسن حضارة ص91، سالم ص443

[23]: الأغاني ج15 ص158، ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص306، حسن: حضارة ص92

[24]: التبريزي: ديوان الحماسة ج2 ص329، آلوسي ج1 ص66

[25]: القالي (أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي)، الامالي ط3 – 1373 هـ 1954 م، مطبعة السعادة بمصر ج1 ص207 – 208 يختصر إلى الآمالي، حوفي: الحياة العربية ص318 – 319 – حسن: حضارة ص92

وكانت تطير الشول عرفان صوته ولم تمس إلا وهي خائفة العقر

فالشعر حافل بذكر النار، وبوصف الكلاب بالجبن والأنس إلى الوافدين، وهذا دلالة على الكرم، لأنه من دواعي الهجاء عند شعراء الجاهلية إطفاء النار عندما تستنبح الكلاب، عبر عن ذلك الاخطل في هجائه لجرير بقوله [26]:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار.

فالكرم أثير عندهم، والدليل على ذلك أنه كان من بواعث الميسر عند أجوادهم وأثريائهم إذا اشتد البرد وكلب الزمان، ليطعموا ذوي الحاجة الجزور التي تياسروا عليها وهي عشرة جزور يجزوء نها ثمانية وعشرين جزءا، فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوي الحاجة والفقراء، عبر عن ذلك لبيد بن مالك بقوله[37]:

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامها

أدعو بهن لعاقر أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تباله[28] مخصبا أهضامها

أن شيوع الكرم وتقديرهم للكرماء، وفخرهم بهم دليل على انهم قمعوا شر نفوسهم، وتغلبوا على شحها، وآثروا غيرهم على أنفسهم، وأشركوهم في خيرهم، لكن هذا لاينفي أن بعضهم كان على بخل يضن بماله على السؤال ويتهرب من

---

[26]: حسين (محمد) الهجاء والهجاؤن – بيروت 1960 ص40 يختصر إلى الهجاء والهجاؤن، سالم ص442

[37]: شرح ديوان لبيد، تحقيق الدكتور إحسان عباس – ط2 مطبعة حكومة الكويت 1984 – ص318 يختصر إلى شرح ديوان لبيد، زوزني: شرح المعلقات السبع مكتبة المعارف بيروت ط4 1980 ص248 – يختصر إلى زوزني – شرح المعلقات السبع، آلوسي ج1 ص71

[28] تبالة موضع ببلاد اليمن يضرب المثل بخصبه وهي بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن، ياقوت مادة تبالة.

النوال، لان تنفيرهم من الشيء دليل على وجوده، وإلا فلماذا يهجونه وينفرون منه ؟ وذلك لان البخل والطمع آفة من آفات الحياة الاجتماعية، فبهذا قدروا معنى الإنسانية الحقيقية، لان الكرم وإقراء الضيف يؤلف القلوب ويربط بين أبناء المجتمع.

2ـ الشجاعة:

من بين الصفات الخلقية الأخرى لعرب الحجاز في القرن السادس الميلادي، فهي حلية العربي يلبسها وتلبسه سواء أكان غنيا أم فقيرا، ذا قبيل أم وحيدا، ذلك لان أهل البادية متفردون عن المجتمع، بعيدون عن الحامية يعيشون في العراء، غير محتمين بأسوار، أوجدران، أوأبواب ترد عنهم، فهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم، ولا يكلونه إلى سواهم، يحملون السلاح دائما، ويتلفتون عن كل جانب، ويتجافون عن الهجوع، ويتوجسون للنبات والهيعات وينفردون في البيداء، مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم، حتى صار لهم البأس خلقاً، والشجاعة سجية[29].

وليس أدل على صدق هذا القول من أن قريشا عندما أثرت بسبب التجارة انصرفت عن شئون الحرب، والبدويحقرون التجارة بطبيعتهم، فصاروا يعيرونها بها، ومن هنا كانت استهانة بعض العرب بقريش وعدم الهيبة منها لانكبابها على التجارة، وانصرافها عن الحروب من دون سائر العرب[30].

فإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته، أدركنا أن الشجاعة ولدت معه، كيف لا وقد ربي في بيئة تتمدح بالبطولة والأقدام، وحسن البلاء في حماية الذمار، والأخذ بالثأر، فقد سمع قعقعة السلاح وهو صغير، وشهد المعارك، وصيحات الشجعان وهو يافع، وروت له أمه أخبار البطولة والأبطال الذين حموا القبيلة، وردوا المغيرين عليها، فتاقت نفسه للمشاركة بها، وعندما شب رأى بأم عينه السيوف تتقارع، والأسلحة تشتبك، والأبطال في ميدان الوغى تتنازع، ثم كبر فشارك في المواقع، وأفنى العمر في المعارك، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقا عاما عند العرب، وأسموها الموت في

---

[29]: ابن خلدون: المقدمة ص125، حسن: حضارة ص93، سالم 444

[30]: أفغاني: أسواق ص126، سالم ص444

ظلال السيوف وخفق البنود، لان الموت حتف الأنف، وعلى الفراش أوضع منزلة، ولا تليق بالرجل، وفي ذلك قول السموآل مفتخرا[31]:

وانا لقوم ما نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

وما مات منا سيد حتف انفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

ورأوا أن الإقدام لايدني الأجل، وأن الحياة الجديرة بالبقاء إنما هي حياة الفتوة والمجد والشجاعة، وفرار المحارب من لقاء أعدائه موت له في دنياه، وقد عبر الشاعر الحصين بن الحمام المري عن ذلك بقوله[32]:

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما

فلسنا على الأعقاب تدمي كلومنا[23] ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وفي هذا قول عنترة أيضا[34]:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها أن المدينة منهل ... لا بد أن أسقى بكأس منهل

فاقني حياءك لا أبالك واعلمي ... اني امروء سأموت إن لم أقتل

أن المنية لو تمثل مُثلث ... مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

---

[31]: التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص29، حوفي: الحياة العربية ص332

[32]: التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص60 – 61، الحوفي: الحياة العربية ص333 حسن: حضارة ص94.

[23]: كلومنا: جراحنا لسان العرب مادة كلم

[34]: ديوان عنترة ص97 –98، العقد الفريد ج1 ص97، الحوفي: الحياة العربية ص333

والخيل ساهمة الوجوه كأنما تسقى فوارسها نقيع الحنظل

وإذا حملت على الكريهة لم أقل بعد الكريهة ليتني لم أفعل

فالكثيرون منهم اشتهروا بالشجاعة، واستطابوا الموت في المعارك وصبروا عند كل لقاء عنيف، قال حارثة بن بدر[35]:

وشيب رأسي واستخف حلومنا رعود المنايا فوقنا وبروقها

وأنا لتستحلي المنايا نفوسنا وتترك أخرى مرة ما تذوقها

رأيت المنايا بادئات وعودا إلى دارنا سهلا إليها طريقها

وقول آخر[36]:

صبرنا له حتى يبوخ وإنما تُفَرَّج أيامَ الكريهة بالصبر

فالفرسان والشجعان يزدهون ببسالتهم خاصة أثناء حديثهم إلى حبيباتهم وزوجاتهم، وفي ذلك قول عامر بن الطفيل لزوجته[37]:

طلقت إن لم تسألي أي فارس حليلك إذ لاقى صداء وخثعما

اكر عليهم دَعلجا ولبانه إذاما اشتكى وقع الرماح تحمحما[38]

قد يقال أن شجاعتهم تهور، ولكن الذي نسميه تهورا، كان الشجاعة في أعلى مراتبها في نظر أولئك الشجعان، وإلا فما بال أبي سليط طريف بن غنم العنبري يأنف من أن يتقنع في المواسم والجموع كما يفعل الناس ولا يبالي أن يعرفه جميع فرسان

---

[35]: الأغاني ج8 ص401، الحوفي: الحياة العربية ص334، حسن: حضارة ص95

[36]: عيون الأخبار ج1ص125، الحوفي: الحياة العربية ص334

[37]: التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص43، الحوفي: الحياة العربية ص 334،

[38]: الدعلج اسم فرسه، واللبان اسم لما جرى عليه اللبيب من الصدر، والتحمحم التصويت دون الصهيل، التبريزي ديوان الحماسة ج1 ص43 حاشية

العرب[39]. وقد عير درهم بن يزيد ين صنبعة مالك بن العجلات لأنه كان إذا شهد الحرب غير لباسه وتنكر لئلا يعرف فيقصد[40].

انـــك لاق غـــدا غـــواة بـــني عمـــي فـــانظر مـــا أنـــت مزدهـــف

فأبـــد ســـيماك يعرفـــوك كمـــا يبـــدون ســـيماهم فـــتعترف

فالشجاع الصنديد يعلم نفسه بشارة كأنه يتحدى أعداءه، ويقول لهم: ها آنذا كما فعل حمزة يوم بدر فقد كان معلما بريشة نعامة حمراء، وكان الزبير بن العوام معلما بعمامة صفراء[41]. ولقد اعتبروا أن القتل في الحرب مجد وشرف، لذا فلا تنوح النساء على القتيل قال عمروبن كلثوم[42]:

معـــاذ الالـــه أن تنـــوح نســـاؤنا علـــى هالـــك أوأن تضـــج مـــن القتـــل

وقد اصطحبوا نساءهم معهم ليبعثن الحمية والحماسة والبسالة فيهم كما فعلت مذحج يوم فيف الريح، فقد كانت معهم النساء والذراري حتى لا يفروا فأما ظفروا، واما قتلوا جميعا[43]. قال عمروبن كلثوم[44]:

علـــى آثارنـــا بـــيض حســـان نحـــاذر أن نقســـم أونهونـــا

أخـــذن علـــى بعـــولتهن عهـــدا إذا لاقـــوا كتائـــب معلمينـــا

ليســـتلبن أفراســـا وبيضـــا وأســـرى في الحديـــد مقرنينـــا

---

[39] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج1 ص315، البيان والتبين ج3 ص101 حاشية، حسن: حضارة ص95

[40] البيان والتبين ج3 ص101 – 102، الحوفي: الحياة العربية ص336

[41] مغازي الواقدي ج1 ص76، البيان والتبيين ج3 ص101، الحوفي: الحياة العربية ص336.

[42] التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص 183، الحوفي: الحياة العربية ص 337، حسن: حضارة ص 95

[43] الكامل في التاريخ ج1 ص 633، جاد المولى: أيام العرب ص 132، الحوفي: الحياة العربية ص 337،

[44] الشنقيطي (أحمد أمين) المعلقات العشر – دار الكتاب العربي سورية حلب ص118، يختصر إلى شنقيطي المعلقات الشعر، الحوفي: الحياة العربية ص338

يقـــتنُ جيادنـــا ويقلـــن لســـتم　　بعولتنـــــا إذا لم تمنعونـــــا

ولشدة ولعهم بالشجاعة، شهدوا بها لأعدائهم، فأنصفوهم اعترافا وإعجابا وتقديرا للشجعان، كقول خداش بن زهير بن ربيعة[45]:

فـــابلغ ان عرضــت بنـــا هشـــاما　　وعبــــد الله أبلـــغ والوليــــدا

أولئـــك أن يكـــن في النـــاس خـــير　　فـــان لـــديهم حســـبا وجـــودا

هـــم خـــير المعاشـــر مـــن قـــريش　　وأوراهـــم إذا قـــدحت زنـــودا

بأنـــا يـــوم شمطـــة قـــد أقمنـــا　　عمـــود المجـــد أن لـــه عمـــودا

فجـــاؤا عارضـــا[46] بـــردا وجئنـــا　　كمـــا أضـــرمت في الغـــاب الوقـــودا

فعانقنـــا الكمـــاة[47] وعانقونـــا　　عـــراك النمـــر واجهـــت الأســـود

فلـــم أر مثلـــهم هزمـــوا وقلـــوا　　ولا كـــذيادنا عتقـــا نجـــودا

فهل كان اعترافهم بشجاعة الخصم لابراز شدة شجاعتهم ؟ بالطبع كانت الشجاعة تطبيقا لحاجات الوسط الطبيعية والاجتماعية، وركن من أركانها لان الجبن، والفرار من المعركة عار ومذلة قال زهير في معلقته[48]:

ومـــن لم يـــذد عـــن حوضـــه بســـلاحه　　يهـــدم ومـــن لا يظلـــم النـــاس يظلـــم

---

[45] ابن سلام الجمحي (أبوعبد الله) طبقات الشعراء ص53 – 45 يختصر إلى ابن سلام طبقات الشعراء، جاد المولى: أيام العرب ص332، الحوفي: الحياة العربية ص340،

[46] العارض السحاب الممطر أي أنهم أمطروا سهاما، لسان العرب مادة عرض

[47] الكماة: جمع كمي وهوالشجاع لسان العرب مادة كمي

[48] زوزني: شرح المعلقات السبع ص 158، شنقيطي: المعلقات العشر ص 95، الحوفي: الحياة العربية ص 348، الجندي (علي) في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة الشباب ص 74 يختصر إلى الجندي في تاريخ الأدب.

وذلك لان بيئتهم شحيحة الأرزاق، وقد اعتادوا السلب والنهب والغارة، فان لم يكونوا شجعانا فستسلب أموالهم، وتسبى نساؤهم، قد يتحولن إلى إماء أوعبيد، وفي كل ذلك امتهان ومذلة، فبالقوة والرهبة استطاعوا حماية الحمى، والذنب عن الحريم واثبات الوجود، وحماية الجار، وتكوين الأحلاف، وتمتين الروابط القبلية مما كان لهذا اثر في التمهيد لتضامن عربي شامل عززه الاسلام فيما بعد.

3- الوفاء:

إذا كان الكرم والشجاعة من ضرورات الحياة في الصحراء، فان الوفاء من أهم العناصر المكونة للأخلاق عند العرب فرضتها البيئة الصحراوية القاسية، وأقرها المجتمع، فكانت الكلمة ينطقها الرجل عهدا يجب عليه الوفاء به، فإذا أعطى رجل رجلا عهدا فلا يسعه أن يغدر به، ولا بد له من المحافظة على العهد، وقد يضحي الإنسان بنفسه وبماله وبولده على أن يخدش سمعته فيوسم بالغدر فقد حكي أن امرأ القيس قد أودع السموأل بن عاد ياء مائة درع، فأتاه الحارث بن ظالم، ويقال الحارث بن ابي شمر الغساني ليأخذها منه، فتحصن منه السموأل فأخذ الحارث ابنا له غلاما كان في الصيد وقال: إما أن تسلم الدروع إلي، وإما أن اقتل ابنك، فأبى السموأل، أن يسلمها اليه، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين وفي ذلك قال السموأل[49]:

وفيت بذمة الكندي   انـي إذا ما ذم أقوام وفيت

واوصى عاديا يوماً بألا   تهدم يا سموأل ما بنيت

بنى لي عاديا حصنا حصينا   وماء كلما شئت استقيت

---

[49] الأغاني ج22 ص119، حوفي: الحياة العربية ص 359، حسن: حضارة ص 86، سالم ص 331 – 445.

وقد أشاد الأعشى بهذه الأريحية في مدحه لشريح حين وقع أسيرا في يد رجل كلبي، كان الأعشى قد هجاه، ومر به شريح فاستغاث به ليخلصه، فذكره أولا بكرم أبيه السموأل، ثم عرض لوفائه فقال[50]:

كن كالسموأل إذ سار الهمام له　　في جحفل كسواد الليل جرار

إذا سامه خطى خسف فقال له:　　مهما تقله فإني سامع حار

فقال: ثكل وغدر أنت بينهما　　فاختر وما فيهما حظ لمختار

فشك غير قليل، ثم قال له:　　اذبح هديك انني مانع جاري

واختار أدراعه أن لا يسب بها　　ولم يكن عهده فيها يختار

لذا ضرب المثل به في الوفاء حتى قيل أوفى من السموأل[51] كذلك ضرب المثل بوفاء عوف بن محلم وأبي حنبل[52] وغيرهم كثير.

وقد عد الوفاء محمدة وواجبا ولتوكيده وترسيخه، كانوا يتعاقدون على الدم والرب والماء والطيب، ويتمسحون بالكعبة، كما فصلنا ذلك أثناء الحديث عن الأحلاف القبلية. فإذا غدر أحدهم رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به، لان الغدر عادة ذميمة، وفي ذلك قول قطبة بن أوس مفتخرا انه من قوم لم يغدروا، وانهم لا يأتون ما يشكك حليفهم فيهم[53]:

اسمي ويحك هل سمعت بغدرة　　رفع اللواء لنا بها في مجمع؟

---

[50] ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق محمد حسين. مكتبة الآداب بالجماميز ص 79 – 181 يختصر إلى ديوان الأعشى، الأغاني: ج 9 ص119، الحوفي: الحياة العربية ص359، حسن: حضارة ص 86.

[51] الميداني: مجمع الأمثال ج2ص374، الالوسي ج1 ص 122

[52] الميداني: مجمع الأمثال ج2 ص375 – 377

[53] النويهي: (محمد) الشعر الجاهلي – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة ج1ص211، يختصر إلى الشعر الجاهلي، الحوفي: الحياة العربية ص 358، حسن: حضارة ص 85، علي: المفصل ج4 ص 403 .

انــا نعــف فــلا نريــب حليفنــا : ونكــف شــح نفوســنا في المطمــع

وأوقدوا للغادر نارا سموها نار الغدر ليحذره الناس وفي ذلك قول الشاعر[54]:

وتوقــد نــاركم شــررا ويرفــع لكــم في كــل مجمعــة لــواء

وربما جعلوا للغادر تمثالاً من طين، نصبوه ليراه الناس، وكانوا يقولون : ألا أن فلانا قد غدر فالعنوه جاء في الشعر[55]:

فلنقــتلن بخالــد ســرواتكم ولــنجعلن لظــالم تمثــالا

وبذلك انتشر الأمان والطمأنينة، وطردت المخاوف والهواجس برغم ما عرف عن العرب في الجاهلية من عنجهية، وما وصفوا به من الغزووالنهب، لأن الحفاظ على الأمانات كانت من أهم المظاهر الخلقية التي حددت سلوكهم فبذلك لطف جوالصحراء وقساوة البيئة.

4 ـ العفة و الشرف:

ومما كان يرفع من القدر، ويزيد من المكانة والشرف العفة، ففي بيئة تمرس أهلها على الأخلاق، لابد للرجال والنساء من الغيرة على العرض، حتى ولووجد من انغمس في الملذات، وتغزل بالنساء غزلا بعيدا عن البراءة، وذلك لأن العفة شرط من شروط السيادة كالشجاعة والكرم[56]. فقد كانت موضع فخر لهم كقول عنترة[57]:

وأغـض طـرفي مـا بـدت لـي جـارتي حتــى يــواري جــارتي مأواهــا

---

[54] نهاية الأرب ج1ص111، ثعلب شرح ديوان زهير ص 85، الالوسي ج2ص162، جواد: المفصل ج4ص403 حاشية.

[55] الالوسي ج3ص28، جواد: المفصل ج4ص403

[56] الحوفي: الحياة العربية ص363، سالم ص445، حسن: حضارة ص95ـ 96.

[57] ديوان عنترة بن شداد – دار كرم بدمشق ص 154 يختصر إلى ديوان عنترة بن شداد – الحوفي: الحياة العربية ص 364، سالم 445.

ولبيد في قوله[58]:

أيُ العرض بالمال التلاد واشتري | به الحمد إن الطالب الحمد مشتري
وكم مشتر من ماله حسن صيته | لأيامه في كل مبدىء ومحضر
أباهي به الأكفاء في كل موطن | وأقضي فروض الصالحين واقتري

وقول آخر[59]:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه | لا بارك الله بعد العرض بالمال
أحتال للمال أن أودي فأجمعه | ولست للعرض أن أودي بمحتال

فالشعر حافل بذكر العرض والشرف والعفة لأنها حلية الرجال، ومفخرة الأبطال فالخنساء في مراثيها لأخيها صخر حفية بعفته واستحيائه أن يفعل الفاحشة أويتبع بنظراته النساء[60].

لم تره جارة يمشي بساحتها | لريبة حتى يخلى بيته الجار

على انه اكثر حياء من فتاة مخدرة، وأعظم شجاعة من أسد فاتك[61]:

وأحيا من مخبأة كعاب[62] | وأشجع من ابي شبل هزبر[63]

أضف إلى ذلك إشادة الجميع بعفة الحبيبة البخيلة، وتمنعها وبخلها في وصال حبيبها، قال علقمة بن عبدة واصفا حبيبته[64]:

---

[58] شرح ديوان لبيد ص 46 – 47.

[59] التبريزي: ديوان الحماسة ج2 ص253 – 320

[60] ديوان الخنساء ص ـ 52، الحوفي: الحياة العربية ص364 – 365، حسن: حضارة ص96، سالم ص445

[61] ديوان الخنساء ص48

[62] الكعاب النهد، لسان العرب مادة كعب

[63] الهزبر: من أسماء الأسد لسان العرب مادة هزبر

منعمـــــة لا يســـــتطاع كلامهـــا   علـــى بابهـــا مـــن ان تـــزار رقيـــب

إذا غـاب عنهـا البعـل لم تفـش سـره   وترضـــى إيـــاب البعـــل حـــين يـــؤوب

فالعفة طبيعة فيها ولا سبيل إلى محادثتها لأنها ليست بحاجة إلى رقيب على بابها فهي تراقب نفسها، ولا تبوح بسر زوجها الغائب، وقد كان الرجل منهم يصون حرمة جاره، وصاحبه كصيانة الابنة والأخت والزوجة.

وعلى ما يبدوأن غيرة العربي على النساء مازالت مضرب الأمثال، ولذا قالوا: "كل شيء مههٌ ماخلا النساء وذكرهن[65] " أي أن الرجل يحتمل كل شيء حتى يأتي ذكر حرمه فيمتعض حينئذ فلا يحتمله، وكل شيء جميل ذكره إلا ذكر النساء، ولذلك عزوا أحد أسباب الوأد إلى ذلك.

وقد رووا أنه من شدة غيرة العربي على النساء أن عبد الله بن المضرجي - القتال الكلابي – كان يتحدث إلى أبنة عم له يحبها، فحضر أخوها زياد، ورآهما فأقسم لئن رآه ثانية ليقتلنه، فلما كان بعد ذلك بأيام رآه عندها فأخذ السيف، وبصر به القتال فخرج هاربا وخرج في أثره، فلما دنا منه، ناشده القتال بالله والرحم، فلم يلتفت إليه، فبينما هو يسعى، وقد كاد يلحقه وجد رمحا مركوزا[66]، وسيفا فأخذه وعطف على زياد فقتله وقال[67]:

نهيـــت زيـــادا والمهامـــه بيننـــا   وذكرتـــه أرحـــام ســـعد وهيـــثم

فلمـــا رأيـــت أنـــه غـــير منتـــه   أملـــت لـــه كفـــي بلـــدن مقـــوم

ولمـــا رأيـــت أننـــي قـــد قتلتـــه   نـــدمت عليـــه أي ســـاعة منـــدم

---

(64) المفضليات ص391 ط3، الحوفي: الحياة العربية ص365، حسن: حضارة ص86

(65) الميداني: مجمع الأمثال ج2 ص132 – الحوفي: الحياة العربية ص366

(66) مركوزا مغروزا لسان العرب مادة ركز

(67) الأغاني ج24 ص170 – 171، الحوفي: الحياة العربية ص367

حين رأى معقل بن خويلد الهذلي امرأته تنظر إلى رجل، جرد سيفة، وضربها، فأخطاها وأصاب يدها فبترها، ونجت من الموت[68]. فالغالب في ثأر العرض الذبح بقطع الرأس عن الجسد غسلا للعار[69].

وكان يغار العربي من الغزل في المرأة التي يحميها، لانه اعتبر ذلك جرح لشرفه. ولعلنا نتساءل عن الكيفية التي تم بها حدوث ذلك، في الوقت الذي سمعنا عن ممارسة البعض منهن للمجون والبغاء ؟ وفي الوقت الذي تزوجت فيه المرآة أكثر من رجل، واتخذت الأخدان. ففي كل مجتمع العنيف والفاجر، والعاقل والماجن، وان كان بعضهم قد مارسه فمع الإماء لان الإماء هن اللواتي احترفن البغي، ونصبن الرايات على أبوابهن، وكن محقرات، وندر أن كن من العربيات[70] أضف لذلك أن معرفة بعض النساء لتعدد الأزواج، واتخاذ بعضهن الأخدان كان بسبب فقر أسرهن، والوضع الاقتصادي المتدني لهن. ولعل الخلاعة والمجانة لم تكن مما يتغاضون عنه، فامروء القيس واحد من الذين طردوا بسبب خلاعتهم[71]. لان ذلك يجر عارا على القبيلة ومذمة.

5 ـ العصبية:

للقبائل العربية دستور عرفي عام يشترك فيه كل أفراد القبيلة ينحصر في كلمة واحدة هي العصبية، وهي تعني أن يدعوالرجل إلى نصرة ـ عصبته ـ قومه الذين يتعصبون[72] ـ والوقوف إلى جانبهم ظالمين أومظلومين فشعارهم انصر أخاك ظالما أومظلوما[73].

---

[68] الترمانيني (عبد السلام) الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام 1404 هـ 1984 م ص273 يختصر إلى الترمانيني: الزواج عند العرب

[69] علي: المفصل ج4 ص 574

[70] انظر فصل الأسرة.

[71] الشنقيطي: المعلقات العشر ص5

[72] لسان العرب مادة عصب.

[73] الميداني: مجمع الأمثال ج2 ص334

عد ذلك وسيلة من وسائل التكتل الأساسية بين أفراد القبيلة في غياب أية وسيلة أخرى ثابتة، فمن مصلحة القبيلة أن تكون يدا واحدة في كل الأحوال لأنها إذا انقسمت على نفسها في أمر ما تلاشت، فالمصلحة تقتضي وجود التضامن الشديد، إذ أن القبيلة معرضة للتنقل، والسعي وراء الكلأ أوالماء، وهوظرف قد يؤدي إلى التشتت، ومن ثم الاندثار كوحدة اجتماعية، أضف إلى ذلك أن القبيلة محاطة بالأعداء، وانقسامها معناه ضعفها وتلاشيها، لذا فقد أحس كل فرد في القبيلة بأنه مدين في كل شيء عزيز عنده إلى قبيلته فهي التي حمته وترعرع بين ظهرانيها حتى صار رجلا، فكان لزاما عليه أن يخلص لها، ويتفانى في الدفاع عن شرفها، فالعصبية ضرورة من ضرورات الحياة، بل عماد الحياة نفسها، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وماله، ومن شروطها على الفرد الوفاء الذي لاحد له لإخوانه كقول الشاعر[74]:

فاحفظ عشيرتك الادنين أن لهم حقا يفرق بين الزوج والمرت

أما مصدر قوة العصبية فهوشعورهم أنهم أفراد أسرة واحدة، يتغلغل في عروقهم دم واحد هودم أبيهم القديم. وأن كنا قد وجدنا في القبيلة من ينتمي إليها من غير أبنائها الصرحاء كالموالي، والعبيد ـ والحلفاء 000 الخ إلا أن صلب القبيلة في أبنائها الذين يردون نسبهم إلى أصلها، أضف إلى ذلك أن هؤلاء المنتمون إلى القبيلة كانت تربطهم مع القبيلة المصلحة المشتركة، و النسب العام الذي يرد العرب انفسهم جميعا إليه. شملت هذه العصبية أهل الوبر، وأهل المدر على السواء فأهل المدر وإن تحضروا واستقروا وأقاموا في بيوت ثابتة، فقد بني نظامهم الاجتماعي والسياسي على العصبية، فتألفت الحواضر من شعاب ومواضع تكونت بدورها من جماعات ربطت بينها روابط الدم والقرابة، فإذا حدث حادث لواحدة منها، هبت للنظر فيه واتخاذ ما ينبغي اتخاذه من موقف، لأنها الشعور بالصلة بين أفراد

---

[74] حتي: تاريخ العرب ص56، خشروم: الغربة ص23

الجماعة الواحدة، وهذا ما تفاخروا به، وأهلهم للسيادة، فها هوالمثقب العبدي يفخر بأصله قائلا[75]:

أنا بيتي من معد في الذرى ولي الهامة والفرع الأشم

وكذلك العباس بن مرداس بقوله: [76]

نقاتل أحسابنا برماحنا فنضربهم ضرب المُنيذ الخواما

قد يتسامح العربي في دينه، أما عصبيته فلا تسامح بها، قال دريد بن الصمة[77]:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وأن ترشد غزية ارشد

وقول غيره[78]:

ولقد علمت بنوالنجار أني أذود عن العشيرة بالحسام

وبتطور القوى المنتجة، وتلاشي الملكية الجماعية، وظهور الملكية الخاصة كما ذكرنا في فصل سابق تفتتت العصبية إلى عصبيات، وظهرت عصبيات من نوع جديد مبنية على أساس المصلحة فبدت بمظاهر هي:

آ ـ عصبية الأقارب وذوي الأرحام:

كان ذووالقربى والأرحام يتناصرون كما قلنا ظالمين أومظلومين حتى لوكانوا مغايرين في العقيدة والميول، لأنها عندهم أقوى من الإيمان الديني[79]، فيتضامنون في جمع الدية المطلوبة منهم مقابل الدم الذي أراقه أحدهم.وهذه الدية تدفع لاهل القتيل الذين هم ذوورحمة وقرباه، والذين جعلتهم تقاليد عصبية الأرحام القريبة أصحاب

---

(75) ابن سلام: النسب ص44 – 45 - المفضليات ص294

(76) الجاحظ: البيان والتبيين ج3 ص70

(77) الاصمعيات ص 113، التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص 337، الأغاني ج10 ص 8 جرجس: أديان ص141ـ142، شريف ص 33.

(78) ديوان حسان بن ثابت ج1 ص338.

(79) شريف ص53،

الحق في دمه، والسلطان المنصور في المطالبة به، فتوزع عليهم، ومن هنا جاء جنوح الرجال إلى اعتبار انفسهم أصحاب الحق في الأرث دون النساء والأطفال لانهم هم الغارمون[80].

ظهرت هذه العصبية واضحة فيما بعد الاسلام حيث وقف بنوهاشم يحمون النبي صلى الله عليه وسلم، فقاطعتهم قريش من أجل ذلك وحصرتهم في أحد شعاب مكة ثلاث سنوات[81].

ب ـ عصبية القبيلة:

تضامن أفراد القبيلة تجاه القبائل الأخرى في الحروب والدماء، والدفاع عن المصالح، والتبعات المشتركة، وتناصروا حسب الشعار القبلي السابق الذكر انصر أخاك ظالما أومظلوما، وتعاونوا على المغارم لأن أي اعتداء على أي فرد في القبيلة، إنما هواعتداء على الجميع، فإذا نشبت حرب بين قبيلتين تضامن أفراد كل قبيلة في الدفاع والهجوم مهما كان الباعث على هذه الحروب بدافع العصبية القبلية، حتى لوكانت ميولهم وعواطفهم متباينة، فمن يقرأ أخبار المواقع التي سميت أيام العرب يلاحظ قوة هذه العصبية

جـ ـ عصبية الأحلاف:

عقدت القبائل الضعيفة الأحلاف مع القبائل القوية حفاظا على وجودها كما سبق ذكره فنشأت بين هذه القبائل المتحالفة عصبية دفعتهم إلى التضامن في الحروب والتعاون في تبعات الدماء[82]، لكن هذه العصبية ليست أصيلة أنها حالة طارئة اقتضتها ظروف المصلحة المشتركة على عكس عصبية الأرحام أوالعصبية القبلية.

---

[80] المحبر ص324، جامع الأصول ج4 ص275، دروزة: عصر النبي ص277 – 278

[81] ابن هشام: السيرة ج1 ص375 وما بعد، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص336 الكامل في التاريخ ج2 ص88.

[82] انظر فصل القبيلة

ففي مكة ظهر نوع من هذه العصبية بني على أساس المصلحة التجارية حيث عقد حلف المطيبين، ولعقة الدم، والفضول وغيرها[83] فضعفت الروابط المتينة على أساس من قرابة الدم، ونشأت روابط جديدة موحدة على أساس من هذا الشعور التجاري.

وبذلك نرى أن العصبية تدرجت قوة وتأثيرا من عصبية الأسرة إلى عصبية العشيرة فالفخذ فالبطن حتى وصلت إلى عصبية القبيلة والعصبية الناشئة عن الحلف[84]، وهذا التفاوت في قوة العصبية، والتأثر به، والاستجابة له، متسق مع طبائع الأشياء، لأن العصبية الاجتماعية سواء منها عصبية الأرحام أوعصبية القبيلة، أو عصبية التحالف حاجة طبيعية في حياة المجتمع الذي يعيش في طور البداوة، فلا يمكن حفظ التوازن والحقوق والدماء في هذا الطور بدونها،وقد أخذت عصبية التحالف في الازدياد في آواخر العصر الجاهلي فتكتلت القبائل في مجاميع كبيرة إحساسا منها بأنها تستطيع أن تعيش في مجالها الضيق فهي بحاجة إلى غيرها من القبائل تؤاخيها وتربط مصيرها، وكان هذا الميل إلى التحالف، والتجمع مسايرا لتطور الأوضاع الاجتماعية، فشملت كل منتم إلى القبيلة الموالي والرقيق والجار، ولم تعرف تفريقا في هذه الناحية فكان على كل من ينتمي إلى قبيلة، ويحمل اسمها أن يتعصب لقبيلته ويذود عنها.

د ـــ عصبية التقاليد:

المقصود بذلك التعصب للعادات والتقاليد المتوارثة، وشدة التمسك بها، وقد كان هذا مما هوراسخ في المجتمع العربي.

بحيث كان يعد فضيلة لاغنى عنها وجزءا من حياة المجتمع لاينفصل عنه ولوأدى إلى الحرب وإراقة الدماء، والمواقف المهلكة المحرجة، قال تعالى: " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** "[85]، وقوله عز وجل " **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** "[86].

---

[83] انظر فصل القبيلة

[84] ابن خلدون: المقدمة ص 128 – 129

[85] سورة البقرة: الآية 107

وقد تركت هذه العصبية أثارا في الحياة الاجتماعية والسياسية لانها ضرورة من الضرورات اللازمة بالنسبة إلى الحياة في الجاهلية، ولأنها الحائل الذي يحول بين الفرد، وبين الاعتداء عليه، فهي الرادع الذي يمنع المستهترين بالسنن من التطاول على حقوق الناس. بحمايتهم من عبث العابثين[87]، ودفعت الناس بعضهم بعضا، وصانت حقوقهم، وكرامتهم، وحياتهم اجتماعيا، ولكنها حالت دون تكوين مجتمع واحد كبير، على العكس أوجدت مجتمعات صغيرة لكل منها كيانها السياسي الخاص، وساعدت في عدم الاستقرار لكثرة الأطراف، وحتمية التنازع بينها نظرا لظروف البيئة العربية من الناحية الطبيعية والاقتصادية، وأوجدت الرغبة لدى العقلاء، وأصحاب الرأي إلى ضرورة توجيه العصبية توجيها قوميا ودينيا،

6ـ الثأر:

نتاج طبيعي للعصبية، وامتداد لها، وهويكمل نفس المهمة في الحفاظ على كيان القبيلة عن طريق مقابلة الاعتداء عليها باعتداء يهدف القائمون به إلى أن يكون رادعا، لأن الدم لا يغسل إلا بالدم، وقد أملت طبيعة المحيط الذي يعيش فيه العرب عليهم هذا العرف لأنه لولا الخوف من الأخذ بالثأر لعم القتل الحياة. ففقر البادية، والضنك في العيش جعلت الأعرابي يرى أن من حقه الاستيلاء على كل ما يراه، وإزهاق الأرواح بسبب ذلك، وقد حد قانون الأخذ بالثأر من ذلك، ووضع قيودا من طبيعة الحياة التي يحياها[88].

ولعل ذلك صار سنة متبعة، ومسألة هامة في حياة القبيلة العربية، والغرض منه حمايتها لذلك اعتبروا أن القبيلة التي لم تأخذ بثأرها ضعيفة، وتسقط بين القبائل فغاية أومغزى الثأر عندهم حماية الحمى كقول الشاعر[89]:

---

[86] سورة الزخرف: الآية 23

[87] علي: المفصل ج4 ص 397.

[88] علي: المفصل ج4 ص 398 – 399

[89] علي: المفصل ج4 ص 350 حاشية، يحيى: العرب في العصور القديمة ص 370.

ولكـــنني أحمـــي حماهـــا وأتقـــي أذاهـــا وأرمـــي مـــن رماهـــا بمنكـــب

وهذا شيء طبيعي في مجتمع لاتحكمه حكومة منظمة، تقيم الحدود وترعى القانون بسلطانها، وانما كان مجتمعا يعتمد في صيانة حقوقه على قوة الأفراد والجماعات، فمن لايجد الانتصاف لنفسه لم يجد قوة تنتصف له، فالاحتفاظ بوحدة القبيلة، والأخذ بالثأر أمرا مقدسا أوجب على الثائر أن يدرك بثأره أويموت دونه، فإذا لم يدرك بثأره ينتقل هذا الواجب إلى ابنه وحفيده[90]، وكأن ذلك سلعة تورث من جيل إلى آخر.وقد حض عنترة على أدراك الثار بقوله[91]:

يـــا قـــيس أن صـــدورنا وقـــدت بهـــا نـــار بأضـــلعنا تشـــب وقودهـــا

فـــانهض لأخـــذ الثـــأر غـــير مقصـــر حتـــى تبيـــد مـــن العـــداة عديـــدها

أثناء ذلك كان يلتزم الثائر مراسيم خاصة. فهويتجافى النساء، ولا يتطيب أويتدهن، ولا يشرب الخمر، لأنه يرى أن ذلك ضربا من التنعيم والبهجة لا تليق بنفس حزين موتور، قد تلهى وتشغل عن الجد في طلب الثأر قال المهلهل في مناجاة كليب[92]:

خـــذ العهـــد الأكيـــد علـــى عمـــري بتركـــي كـــل مـــا حـــوت الـــديار

وهجـــري الغانيـــات وشـــرب كـــأس ولـــــبس جبـــــة لا تســـــتعار

ولســـت بخـــالع درعـــي وســـيفي إلى أن يخلـــــع الليـــــل النهـــــار

وإلا تبيـــــــد ســـــــراة بكـــــــر فـــــلا يبقـــــى لهـــــا أبـــــدا ثـــــأر

---

[90] شريف ص 35

[91] ديوان عنترة بن شداد ص49

[92] الحوفي: الحياة العربية ص277، حسن: حضارة ص97

وقد حلف أمرؤ القيس ألا يغسل رأسه، ولا يشرب خمرا حتى يدرك بثأره لأبيه، فلما أدرك ما يشفيه قال[93]:

حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل

فاليوم أسقى غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل

وبقي ذلك إلى بعد الاسلام فقد حلف أبوسفيان ألا يدهن ولا يقرب النساء حتى يأخذ بثأره لقتلى بدر[94]، إذا لا بد من الثأر مهما طال الزمان، لأنه لا ينام من أثار[95] حتى ينال مناله من الأخذ بثأر القتيل قال الشاعر[96]:

سلاح امرئ قد يعلم الناس أنه طلوب لثارات الرجال مطلب

لذا فقد ضرب المثل بمن أدرك بثأره وقيل للواحد منهم البيهس[97] وكانت العادة أن يكون الثأر كفوءا لدم القتيل ومتى حصل ذلك قالوا لهذا النوع من الثأر الثأر المنيم[98] قال أبوجندب الهذلي[99]:

دعوا مولى نفاثة ثم قالوا: لعلك لست بالثأر المنيم

وبعد الأخذ بالثأر المنيم تبكي النساء كقول الشاعر[100]:

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حوا سرا يندبنه يلطمن حر الوجه بالأسحار

---

[93] ديوان امروء القيس ص361، المبرد: الكامل ج1 ص219، الأغاني ج9 ص88 الالوسي ج3ص26، علي: المفصل ج4 ص400، حسن: حضارة ص97.

[94] مغازي الواقدي ج1 ص121،

[95] داني، مجمع الأمثال ج2 ص22

[96] يحيى: العرب في العصور القديمة ص369

[97] تاج العروس مادة بهس، علي: المفصل ج4 ص401

[98] لسان العرب مادة ثأر، تاج العروس مادة ثأر، علي: المفصل ج4 ص400

[99] علي: المفصل ج4 ص400

[100] صبح الأعشى ج1 ص405، نهاية الأرب ج3 ص22، علي: المفصل ج4 ص401، حسن حضارة ص99

فالنساء عامة يؤججن الصدور حفيظة ويلهبن النفوس حمية بثأر القتيل، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر تحرض قومها[101]:

ولا أسالم قوما كنت حربهم	**حتى تعود بياضا جونة[102] القار**
ولا نوم حتى تقودوا الخيل عابسة	**ينبذن طرحا بمهرات وأمهار**
أوتحفروا حفرة فالموت مكتنع	**عند البيوت حصينا وابن سيار**
أوترحضوا عنكم عارا تجللكم	**رحض العوارك حيضا عند اطهار**

وفي يعض الاحيان تقبل القبيلة دية عن القتيل، تختلف باختلاف المكانة، ولوأنها عند عامة القبائل مائة من الإبل، ودية الملوك والأشراف تصل إلى ألف بعير، ودية الصريح ضعف دية المولى أوالمستلحق[103].

ودية الجار عشراء[104] فإذا دل هذا على شيء فانه يدل على التمايز الاجتماعي بين فئات المجتمع ويدل أيضا على الجبن والخوف والضعف، لان قبول الدية، أوتسليم الجاني عار على القبيلة لا تقبل به إلا عند التفاني وإيثارا للسلم، كما فعلت قريش في حرب الفجار حيث قام الصلح على أساس حساب القتلى، ودفع دية الزيادة[105].

أضف إلى ذلك فقد اقترنت فكرة الثأر بأوهام هي إلى الإيمان الديني أقرب منها إلى أي شيء آخر، انهم آمنوا أنه إذا قتل قتيل خرجت من رأسه هامة، تصيح على

---

(101) ديوان الخنساء ص63 –64، الحوفي: الحياة العربية ص281

(102) جونة الخابية مطلية بالقار لسان العرب مادة جون

(103) الأغاني ج3 ص65، الالوسي ج3 ص22 وما بعد، شريف ص36

(104) سبق التعريف بها أثناء الحديث عن الكرم

(105) الكامل في التاريخ ج1 ص 595، شريف ص 36

قبره، إذا لم يدرك بثأره اسقوني فاني عطش، فإذا أدرك بثأره سكتت[106] وفي ذلك قول الشاعر[107]:

يا عمرو إلا تدر شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقول المسعودي: أن من العرب من يزعم ((أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان فإذا مات أوقتل، لم يزل مطيفا به، متصورا إليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشا 000 ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا، ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم، وهي أبدا تتوحش وتصدح، وتوجد أبدا في الديار المعطلة والنواويس، وحيث مصارع القتلى، واجدت الموتى، ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت في محلته بفنائهم لتعلم ما يكون بعده فتخبره به))[108]. وإذا وقع القتل بين الأشقاء وأولاد العم، أوأبناء العشيرة، فهل تحول القرابة دون الأخذ بالثأر ؟ لنستمع إلى قول قيس بن زهير العبسي[109]:

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني

فان أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني

فهويصور عاطفته، وارتياحه بالانتقام، ولكنها عاطفة مشوبة بالأسى والندم، لأنه قتل قريبيه بعد أخيه، فهما كالإصبع في الكف، وهل يعمل الكف دون الأصابع ؟ فالقرابة لم تكن تحول دون الأخذ بالثأر وتصطرع أثناء ذلك عاطفة الثأر للعزيز، وعاطفة الحب للقريب القاتل فتتغلب الثانية قال أعرابي معبرا عن لوعته في قتل ابن له بسيف أخيه[110]:

---

[106] الأغاني ج3 ص105 حاشية، الالوسي ج2 ص311

[107] المبرد: الكامل ج1 ص326، الأغاني ج3 ص105، شريف ص36، الحوفي: الحياة العربية ص495، خان (محمد عبد المعين) الأساطير والخرافات عند العرب دار الحداثة ط3 1981 بيروت – لبنان ص55 يختصر إلى الأساطير والخرافات

[108] مروج الذهب ج2 ص132 - 133

[109] الحوفي: الحياة العربية ص279

[110] التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص66، الحوفي: الحياة العربية ص280

أقول للنفس تأساء وتعزية	إحدى يدي أصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه	هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

على هذا إذا قتل قتيل فأما الثأر وهو في أغلب الأحيان، وأما الدية، وأما العفو، وعند أخذ الدية يلاحظ التمايز الاجتماعي ومكانة الرجل المقتول ولعل الطبيعة وضعت لهم هذه السنة لتأديب سادات القبائل أوغيرهم ممن يحرضون العبيد أوغيرهم من السوقة على قتل خصومهم وأعدائهم لأنهم إذا عرفوا أن أهل القتيل سينقمون منهم بقتلهم حاربوا سفكة الدماء من اتباعهم ولا حقوهم وبذلك ينظفون المجتمع منهم، ويخلصون الناس من سفاكي الدماء، وبالتالي يحرصون على وحدة القبيلة.

الفصل الرابع

الأسرة

الأسرة

الأسرة العربية أصغر وحدة اجتماعية، وأساس القبيلة، وما الجماعات الكبيرة كالعشيرة مثلا وما في حكمها إلا نتيجة نموطبيعي في الأسرة البشرية كما لاحظنا في فصل سابق [1].

نشأت الأسرة من ارتباط الرجل بالمرأة برابطة الزوجية، وهذه الرابطة لها صور خاصة، وحدود معينة رسمتها النظم الاجتماعية، وقيدتها بعدة قيود فرضها العقل الجمعي، فاختلفت في جملتها وتفاصيلها باختلاف العصور والمجتمعات ظهرت هذه القيود في نواح كثيرة أهمها:

آ) - الفئة والصنعة والدين

ب) — عدد الأزواج والزوجات.

ج) — الوسائل التي يتم بها الزواج

د) — الحقوق والواجبات المترتبة على هذه الرابطة.

وقد قيل سبق أسرة الأبوة التي كانت سائدة في مجتمع الجاهلية عند ظهور الاسلام، أسرة الأمومة يوم كانت المرأة محور الحياة الاجتماعية، ولها الدور القيادي في الاقتصاد، وفي الهيئة الاجتماعية، وينتسب إليها الأولاد، مثال على ذلك بني خندف وبني باهلة وغيرهم كانوا ينتسبون إلى أمهم دون أبيهم [2].

وعندما حل النظام الأبوي محل نظام الأمومة، غدا عمل الرجل يشغل الدور الحاسم في اليسر المادي للجماعة القبلية، وتدريجا أخذ الرجل يصبح رب الأسرة،

---

[1]: انظر فصل القبيلة. الصفحات الأولى من الفصل

[2]: العقد الفريد ج3 ص296 – 304

وبدأ يقوم بالدور في الحياة الاجتماعية للعشيرة والقبيلة، وأصبحت سلطته مطلقة على العائلة.

تم ذلك اثر توزيع العمل بين المرأة والرجل، وانفصال الحرفة عن الزراعة، وتربية المواشي فنالت المرأة أوالفتاة في ظل التقسيم الاجتماعي الجديد النصيب الأكبر من الأعمال البيتية، ولا سيما إذا لم تكن العائلة تملك الإماء.

فالزواج كمؤسسة اجتماعية تطور في الجاهلية العربية القريبة من الاسلام ذلك ما يمكن استنتاجه من نصوص القرآن الكريم وكتب الحديث. والفقه، والتفسير ومعاجم اللغة، وكتب الأخبار، فهي تشير إلى معرفة العرب قبل الاسلام لعلاقات جنسية، أوأشكال زواج عديدة، تختلف باختلاف الأماكن، وباختلاف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، واتصالها بالخارج، وهي لم تكن خاصة بهم، إنما كانت معروفة عند غيرهم أيضا، لأنها مراحل مرت على جميع البشر، ولا يزال الكثير منها قائما في أنحاء متعددة من العالم، وفي الغالب كانت مرآة للظروف التي عاش فيها الناس. سمي بعضها زواجا والبعض الأخر نكاحاً

أولاً: بناء الأسرة:

من أشكال الزواج والنكاح التي عرفها عرب الحجاز قبيل ظهور الاسلام:

1ـ زواج البعولة أوالزواج الأحادي:

وهوأكثر أنواع الانكحة انتشاراً وكان يتم بأن يخطب الرجل من الرجل ابنته فيصدقها بصداق يحدد مقداره، وبدونه يعتبر الزواج سفاحا أوبغيا[3]، فهولازمة عند عقد الزواج، وهوما يدفعه الشاب أوأهله إلى أهل الفتاة.

وفي الواقع كان الأب أوولي البنت في عديد من الأسر المتوسطة أوالفقيرة يأخذ المهر حلوان ابنته أووليته بعد اتفاق يجري بينهما، فهم ينظرون إلى الفتاة كسلعة قيمة تضيف في مال أبيها، وذلك تعويضا عن فقدها وخسارتها [4].

---

[3]: الزنا والفجور ـ لسان العرب مادة سفح.

[4]: جمعة ص41 - 46

فإذا رزق الرجل ابنة يقولون له: "هنيئا لك النافجة "[6] أضف إلى ذلك أن المهر كان يتضمن معنى السيادة المطلقة على المرأة، وهذا يوافق قول عائشة: " إنما النكاح رق فلينظر امروء من يرق كريمته "[7] **وقوله صلى الله عليه وسلم "اتقوا الله في النساء، فأنهن عندكم عوان "**[8] أي أسرى أوكالأسرى.

واختلفت قيمة الصداق باختلاف الأسر، وباختلاف مكانة الزوج وثرائه، ومكانه أسرة الفتاة الممهورة، أي لم يكن له حد معلوم، فمهر ذوي اليسار والشرف من العرب مائة ناقة أومائة وخمسين[9]، وقد يجمع بينهما والذهب أحيانا فعبد المطلب بن هاشم أمهر فاطمة بنت عمر مائة ناقة ومائة رطل من الذهب [10].

أما ذووالخصاصة فكان يسوق الرجل إلى امرأته عرضا مما يباع أو يشتري أيا كانت قيمته[11]، فيقدمون أحيانا الصداق نوقا أوماعزا أومتاعا مهما كان نوعه كالادم مثلا. فقد روى الجاحظ أن الأعرابي الفقير، ربما احترش ضبا، فاحتمله إلى كفيئته، فكان ذلك مهرها وعقدة زواجها [12].

وكان يسدد الصداق دفعة واحدة عند عقد الزواج أوكان يدفع على قسطين مقدم الصداق عند عقد الزواج، ومؤجل الصداق يدفعه الزوج، أويؤخذ من ماله إذا

---

(6): الميداني: مجمع الأمثال ج2 ص405، جمعة ص43، وافي ص108 والنافجة المعظمة لمالك. لسان العرب مادة نفج.

(7): جمعة ص46

(8): لسان العرب مادة عنا

(9) علي: المفصل ج5 ص531

(10): الحلبي (علي بن برهان الدين) إنسان العيون في سيرة الامين والمأمون القاهرة 1962 ج1 ص50 يختصر إلى إنسان العيون، وافي ص108، جواد: المفصل ج4 ص645، قبلان (هشام) آداب الزواج في الإسلام، منشورات بحر المتوسط بيروت باريس، منشورات عويدات – بيروت باريس ط1 1983 ص80، صباغ: المرأة ص165.

(11): وافي ص108

(12): احترش صاد، والكفيئة الخطيبة وافي ص108 حاشية

انفصم عقد الزوجية بالطلاق أوموت أحد الزوجين، وعلى هذه السنن كانت تسير قبائل الحجاز، ومعظم قبائل العرب قبل الاسلام[13]

وبعد دفع الصداق كان يتم العقد [14]، ويراعى في ذلك أن لا يتم في شوال لأن أهل الحجاز يكرهون النكاح في شوال، ويتطيرون من الزواج في ليالي المحاق، وهي الليالي الأخيرة من الشهور القمرية، ويقولون: أنه يشول بالمرأة [15]، فعلقه الجهال منهم [16]، وفي ذلك قول الشاعر: [17]

بنيت بها قبل المحاق بليلة   فكان محاقا كله ذلك الشهر

ويكون الأولاد حسب هذا النكاح تابعين للأب، وقد أقر الإسلام زواج البعولة وأبطل أونهى عن أشكال أخرى من النكاح [18].

تقوم العائلة في ظل زواج البعولة على سيادة الزوج المطلقة في الأسرة مع الرغبة الصريحة في إنجاب الأولاد الذين تكون أبوتهم ثابتة لاجدال فيها، وثبوت الأبوة ضروري باعتبارهم الورثة المباشرين الذين سيملكون أموال والدهم ذات يوم.

عرى هذا الزواج متينة لا يمكن فسخها إلا من قبل الزوج، فقد خسرت المرأة في ظل الأسرة الأبوية دورها القيادي في الاقتصاد، وفي الهيئة الاجتماعية ولم تعد بالنسبة لزوجها أكثر من أم ورثته الشرعيين المولودين في ظل الزواج، والمديرة لبيته، والمراقبة لإمائه اللواتي بإمكانه التسري بهن حسبما يطيب له.

---

[13]: واي ص109

[14]: صحيح البخاري ج5 ص1970 – 1971 ترمانيني: الزواج عند العرب ص16 – 17

[15] لسان العرب مادة شول يقولون أن المنكوحة تمتنع من ناكحها كما تمنع طروقة الجمل إذا لقحت وشالت بذنبها، فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم طيرتهم وقالت عائشة رضي الله عنها: تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال وبني بي في شوال فأي نسائه كانت أحظى عنده مني.

[16]: عيون الأخبار ج4 ص72 .

[17] لسان العرب مادة محق، ترمانيني: الزواج عند العرب ص209

[18]: صحيح البخاري ج5 ص1966 –1967

وقد ارتكز زواج البعولة على الشروط الاقتصادية، وأصبحت الزوجة حكرا شخصيا لزوجها بموجب هذا النوع من الزواج، أي انتصار الملكية الخاصة على الملكية الجماعية البدائية والهدف من ذلك سيادة الزوج المطلقة في الأسرة وإنجاب الأولاد الذين هم من دمه وصلبه، ولا يتطرق الشك في نسبهم إلى أبيهم، وقد كانت قبائل كثيرة من العرب تؤثر هذا النوع من الزواج سواء أهل الحضر أوأهل البدو[19].

أضف إلى ذلك أن زواج البعولة يمكن أن يكون من داخل القبيلة، وأيضا يمكن أن يكون من خارج القبيلة فإذا زوجت الفتاة من ذوي القرابة قال لها ولي أمرها إذا حملت إليه، أيسرت وأذكرت، ولا أنثت جعل الله منك عددا وعزا، وخلدا أحسني خلقك، وأكرمي زوجك وليكن طيبك الماء 00

وإذا زوجت في غربة، قال لها: لا أيسرت ولا أذكرت فانك تدنين البعداء وتلدين الأعداء، أحسني خلقك، وتحببي إلى أحمائك، فإن لهم عينا ناظرة إليك، وأذنا سامعة إليك وليكن طيبك الماء [25].

إذا آثروا الزواج ضمن العشيرة، ففي مكة كانت القرشية لا تزوج إلا لقرشي، والقرشيون وحدهم أكفاء بعضهم لبعض ولا يكون غيرهم أكفاء لهم، ولوكانوا من فئة عالية، وهم أكفاء لكل العرب لما كانوا يتمتعون به من مركز ديني رفيع[26]، فيشترطون على من أراد الزواج منهم أن يكون متحمسا على دينهم، ويرون أن ذلك لا يحل لهم، ولا يجوز لشرفهم حتى يدان إليهم، وينقاد والتحمس التشدد في الدين[27]، فحمسوا خزاعة ودانت لهم إذ كانت في الحرم، وحمسوا كنانة وجديلة وقيس إلا أنهم ساكنوا الحرم، وأن لم يكونوا من ساكني الحرم فان أمهم قرشية[28]

---

[19]علي: المفصل ج5 ص533

[25]: المحبر ص31 وما بعد، الشهر ستاني (أبي الفتح محمد بن عبد الكريم) الملل والنحل، ط1، 1368 هـ – 1948 م. مكتبة الحسين التجارية ج3 ص322 يختصر إلى الملل والنحل، علي: المفصل ج4 ص647

[26] وافي ص 34، ترمانيني: الزواج عند العرب ص 170

[27]: انظر الفصل الأول ـ الوضع الديني

[28]: الالوسي ج1 ص243

وبتطور القوى المنتجة، ونموالعلاقات الإنتاجية، ارتبطت قريش بروابط المصاهرة مع العديد من القبائل [29]، وذلك سيرا مع الأوضاع الجارية آنذاك.

فالزواج من خارج القبيلة يخفف المشكلات العائلية عندما يكون الزواج بين الأقارب، وذلك لانقطاع المرأة الغريبة عن أهلها، وانعدام التدخل في الشؤون العائلية الخاصة بها، ويقارب بين قبيلتين بعد عداء وحرب، ويدعم أواصر الصداقة، ولذلك قيل المرء على دين زوجته، لما يستنزله، الميل إليها من المتابعة، ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد إلى المخالفة سبيلا، ولا إلى المباينة طريقا[30].

أضف إلى ذلك اعتقادهم أن الرجل إذا تزوج بقريبته أنتج نسلا ضاويا ضعيف الجسم والعقل[31] وقد قالوا: ابنة العم أصبر إلا أن الغرائب انجب[32]، وجاء الإسلام مؤيداً وجهة نظرهم هذه من بعض الوجوه، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**اغتربوا ولا تضووا**))[33] أي تزوجوا بغير قريباتكم، وروي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: يا بني السائب قد ضويتم فأنكحوا في الغرائب، وفي رواية أخرى أن عمر نظر إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال: مالكم صغرتم قالوا: قرب أمهاتنا من آبائنا قال: صدقتم [34].وإذا ما توخى الرجل الزواج من الأباعد، فانه ينظر إلى:

1ـ **المنبت الحسن**: فالمناكح الكريمة مدارج الشرف [35].

2ـ **الكفاءة في النسب والصنعة والحرية**: أي يتزاوج الأشراف ضمن فئتهم، وكذلك سواد الناس ضمن فئتهم، ولا يحاول سواد الناس التطلع إلى مصاهرة الأسياد. ويعير الشريف إذا ما تزوج من فئة أقل مستوى منه، أومن فئة أصحاب

---

(29): ابن هشام: السيرة ج1 ص114

(30): الالوسي ج2 ص7

(31): لسان العرب مادة ضوا، دلوج1 ص292

(32): عيون الأخبار ج4 ص2ـ3، واي ص46 حاشية.

(33): واي ص46، ترمانيني: الزواج عند العرب ص194

(34): عيون الأخبار ج4 ص3، واي ص46، ترمانيني: الزواج عند العرب ص194

(35): الميداني: مجمع الأمثال ج2 ص289

الحرف، و لم يكن من السهل أن يتزوج الحري بواحدة من بنات الأحرار عموما لما تتعرض له أسرتها من الملامة والمعرة والإهانة [36]، ولا يغريهم على زواج بناتهم من قبيلة بعيدة إلا ارتفاع قيمة المهر[37].

2ـ نكاح المتعة:

هوزواج إلى أجل معلوم كسنة، أومجهول كقدوم زيد مثلا، وسمي كذلك لأنه لمجرد التمتع دون التعاطف والتحاب والتوالد، فإذا ما انتهى الأمد المحدد تمت الفرقة[38]. وعلى ما يبدوأنه كان من عادات العرب، وواسع الانتشار في الجاهلية ومعروفا عند ظهور الإسلام، وقد أشير إليه في القرآن الكريم بقوله تعالى: ((فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)) [39] "

وللفقهاء في الإسلام بحث في المتعة إذ لا زال معروفا في بعض المذاهب[40]. أما دوافع هذا الزواج، فهوغياب الرجل عن بيته فترة من الزمن، متنقلا بين العديد من المدن للتجارة، أوبسبب حرب ما استغرقت أشهرا، يبتعد فيها الرجل عن زوجته، ولذا يضطر للاقتران بامرأة أخرى لأجل معين على صداق، وقد كان لاصحاب القوافل الأغنياء حريمهم الخاص في بعض محطات قوافلهم[41]، ولعلهم في بعض

---

[36]علي: المفصل ج4 ص564، واي ص28 وما بعد

[37]: جمعة ص44، واي ص33.

[38]: الخوارزمي: (محمد بن أحمد) مفاتيح العلوم – مطبعة الشرق بمصر، القاهرة 1342 ه ص14 يختصر إلى الخوارزمي: مفاتيح العلوم

[39]: سورة النساء: الآية 24

[40]: مالك بن أنس الاصبحي (أبي عبد الله) موطا الأمام مالك. دار البحار بيروت ط1 1986 م ص258 يختصر إلى موطأ الأمام مالك، صحيح البخاري ج5 ص1967 جامع البيان ج5 ص12 وما بعد، ابن الأثير (مجد الدين أبوالسعادات المبارك بن محمد)، النهاية في غريب الحديث والأثر، المطبعة الخيرية، القاهرة 1322 ه والمطبعة العثمانية بالقاهرة 1311 هـ ج4 ص81 يختصر إلى النهاية في غريب الحديث.

[41]: بليابيف ي – أ م. العرب والخلافة العربية في القرون الوسطى، ترجمة أنيس فريحة، الدار المتحدة للنشر، بيروت 1973، ص105 يختصر إلى العرب والخلافة العربية.

الأحيان أن يتزوج الرجل بالمرأة، وهي عند أهلها ثم يرحل عنها ويتردد عليها بين الحين والأخر.

نسب الأولاد الحاصلون من هذا الزواج إلى أمهاتهم أوإلى عشيرتها[42] وذلك بسبب اتصالهم المباشر بالأم، وارتحال الأب عن الأم مدة طويلة إلى أماكن أخرى، قد تكون نائية عن منازل المرأة، فتنقطع الصلات بذلك بين الأب والأم.

ولم تكن عرى هذا الزواج متينة، كما أن المرأة كانت على ما يبدوما تزال تتمتع بشيء من حرية ممارسة علاقاتها الجنسية مع الآخرين عند انتهاء أجل القران، وعزوفها عن تجديده لتقترن بعقد جديد إلى أجل معين

3ـ نكاح الاستبضاع: [43]

نوع آخر من نكاح الجاهلية في الحجاز، كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها – أي حيضها – أرسلي إلى فلان أحد الأشراف، أوالزعماء فاستبضعي منه، فإذا تبين حملها، أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد [44]، وكان السر في كون ذلك بعيد الطهر حتى يسرع علوقها منه[45]، وينسب الولد للرجل، ويرث أمواله في المستقبل.

تفعل المرأة ذلك، إذا كانت متزوجة، أوغير ذات زوج يؤيد ذلك ما رواه بعض أهل الأخبار أن عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول صلى الله عليه وسلم، مر بامرأة من

---

[42]: عوض الله: ص161، حسن: حضارة ص129

[43] هوطلب المجامعة. لسان العرب مادة بضع

[44]: صحيح البخاري ج5 ص1970 – 1971، النهاية في غريب الحديث ج1 ص98، تاج العروس مادة بضع، آلوسي ج2 ص4، ويلكن ج. أ. الأموية عند العرب، نقلها عن الألمانية د. بندلي صليبا الجوزي – قازان 1902، ص24 يختصر إلى ويلكن الأمومة عند العرب، ترمانيني: الزواج عند العرب ص17.

[45]: نهاية الأرب ج16 ص58، الوسي ج2 ص4، قبلان: آداب الزواج ص18 الحوفي (أحمد محمد) المرأة في الشعر الجاهلي ط2 معدلة ومزيدة – دار الفكر العربي ص197 يختصر إلى حوفي: المرأة، جمعة ص23، وافي ص78.

بني أسد تنظر وتعتاف ـ تتفرس ـ فرأت في وجهه نورا ، فدعته أن تستبضع منه ، وتعطيه مائة من الإبل لتنال منه ولدا على مثاله فأبى [46].

وروى الميداني حكايات ضرب بها المثل في الاستبضاع منها أن امرأة رأت جارية ابن سليط، وكان رجلا وسيما ، فمكنته من نفسها ، وحملت منه، فلما علمت أمها لامتها ، ثم رأت جمال جارية فعذرت ابنتها قائلة: "بمثل جارية فلتزن الزانية"[47]، وذهب قولها مثلا.وقد كان بعض أصحاب الجواري على ما يرويه الأخبار يكلفون جواريهم بالاتصال جنسيا برجل معين من أهل الشدة والقوة والنجابة ، ليلدن ولداً منه يكون في يمينه وملكه [48]. والغاية من ذلك الحصول على أولاد أقوياء نجباء يقومون بخدمة الرجل المالك، إن شاء استخدمهم في بيته، وفي ملكه وإن شاء باعهم، وربح منهم فهي تجارة كان يمارسها المتاجرون بالرقيق للربح والتكسب[49].

4 ــ نكاح الخدن:

وهي علاقات بغير عقد، ولا نكاح شرعي، يكون فيها الرجل خدنا للمرأة أي صديقا لها [50]، وذوات الأخدان هن اللاتى حبسن أنفسهن على الخليل والصديق للفجور به سرا[51]، ودون إعلان ذلك، وقد أشير إليه في القرآن الكريم بقوله تعالى: " وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ "[52].وقوله تعالى "وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ

---

[46]: ابن هشام: السيرة ج1 ص164 – 165، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص244، البداية والنهاية ج2 ص249، نهاية الأرب ج16 ص58 ص63، دلوج1 ص179.

[47]: الميداني: مجمع الأمثال ج1 ص95

[48]: علي المفصل ج5 ص539

[49]: علي: المفصل ج5 ص539، دلوج1 ص181

[50]: جامع البيان ج5 ص19، دلوص181

[51]: ابن كثير (أبي الفداء إسماعيل) التفسير – دار الفكر – بيروت 1401هـ 1981 ج 1 ص476 يختصر إلى تفسير ابن كثير وأيضا ج2 ص22.

[52]: سورة النساء: الآية 25

أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ "(53). فنكاح الخدن في نظر القرآن، والمفسرين شكل من أشكال الزنا في الجاهلية فقد ورد أن أهل الحجاز كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ماخفي[54]، وهذا الزنا هوالخاص السري، وقد نهي عن اتخاذ الأخدان في جملة ما نهي عنه في الاسلام[55]. وشبيه بنكاح الخدن المضامدة.

5ـ نكاح المضامدة:

من الضمد وهو(أن تخال المرأة ذات الزوج رجلا غير زوجها أورجلين[56]. كانت تلجأ إليه نساء القبائل الفقيرة أيام القحط، حيث يضطرها الجوع إلى دفع نسائها في المواسم التي تعقد فيها الأسواق لمضامدة رجل غني تحبس نفسها عليه، فإذا غنيت بالمال والطعام عادت إلى زوجها الأول فالعامل الاقتصادي هوالسبب في إيجاد هذا النوع من النكاح، وممارسة الرجل له دليل ثرائه وغناه، فبالمال وحده استطاع أن يتخذ الرجل ما يشاء من النساء وينكحهن.فإذا ضامد الرجل امرأة، يأبى أن تضامد معه غيره فقد روي أن أبا ذؤيب الهذلي كان يضامد امرأة في الجاهلية، وقد أرادت أن تشرك معه رجلا يدعى خالدا، فأبى عليها ذلك، وقال: تريدين كيما تضمديني وخالد، وهل يجمع السيفان ويحك في غمد "[57].

وقد يختار زعيم في قومه امرأة لتضامده، ويحبسها على نفسه، فلا يجروء أحد على دعوتها إليه لمعاشرتها لمنعة صاحبها[58]. يؤيد ذلك ما رواه الاصبهاني وغيره: وهوأن معاوية بن عمرو(أخا الخنساء) وافى عكاظ في موسم من مواسم العرب، فبينما هويمشي بسوق عكاظ إذ لقي (أسماء المرية) وكانت جميلة وزعم أنها

---

[53]: سورة المائدة: الآية 5

[54]: جامع البيان ج5 ص20، جواد: المفصل ج5 ص141، صباغ: المرأة ص185

[55]: جامع البيان ن ج5 ص19، لسان العرب مادة خدن.

[56]: لسان العرب مادة ضمد

[57]: الميداني: مجمع الأمثال ج2 ص231

[58]: ترمانيني: الزواج عند العرب ص21

كانت بغيا، فدعاها إلى نفسه، فامتنعت عليه، وقالت أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة ؟ فقال لها: أما والله لاقارعنه عنك، قالت: شأنك وشأنه، وكان بين هاشم وأخيه دريد ابني حرملة، وبين معاوية حرب انتهت بمقتل معاوية، وهوالذي اشتهرت أخته الخنساء بمراثيها فيه[59].وقد كان هذا النوع من النكاح مستنكرا قال الشاعر[60]:

لا يخلص الدهر خليل عسرا

ذات الضماد أويزور القبرا

إني رأيت الضمد شيئا نكرا

6ـ نكاح البدل:

كان الرجل في الجاهلية قبل الإسلام يقول للرجل: انزل لي عن امرأتك انزل لك عن امرأتي، أي بادلني بامرأتك أبادلك بامرأتي [61]. أما الأسباب الموجبة لوجود هذا النوع من الزواج فهي فردية محددة كأن يكون كل من الرجلين مغرما بزوج الأخر،أويكون أحدهما مغرما والثاني كارها لزوجه، فلا بد أن تكون هناك ظروف قسرية تلزم الاثنين على مثل هذا الزواج.

قد يكون هذا التبادل لفترة محددة من الزمن كمبادلة الزوجة لقاء دين، أومقايضتها تجاه جناية تقع منه، ولا يملك دية لها [62].

---

[59]: الأغاني: ج15 ص88، أسواق ص295، دلوج1 ص182.

[60]: لسان العرب مادة ضمد.

[61]: الالوسي ج2 ص5، علي: المفصل ج5 ص537

[62]: علي: المفصل ج5 ص537، صباغ: المرأة ص178 – 179

ولهذا النوع من النكاح أشكال:

فالشغار شكل من نكاح البدل، وهوأن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الأخر ابنته ليس بينهما صداق [63]،وغير البنات من الأخوات وبنات الأخ كالبنات في ذلك، إلا أن ذكر البنت في تفسير الشغار مثال.

وعرف بعضهم الشغار بكسر الشين (نكاح كان في الجاهلية، وهوأن تزوج الرجل امرأة ما كانت، على أن يزوجك أخرى بغير مهر، وخص بعضهم به في القرائب، فقال: لا يكون الشغار إلا أن تنكحه وليتك على أن ينكحك وليته [64]، وكان الرجل يقول للرجل شاغر ني أي زوجني أختك أوبنتك، أومن تلي أمرها حتى أزوجك أختي أوبنتي، أومن ألي أمرها، ولا يكون بينهما مهر [65]. وقد نهى الإسلام عن هذا الشكل من الزواج بقول رسول الله صلى الله عيه وسلم (**لاشغار في الإسلام**)(**66**).

ورغم النهي عنه مازلنا نجد بقاء أثر له، لاسيما بين الفئات الفقيرة لأن للعامل الاقتصادي دخل في هذا الزواج لخلوه من المهر.

7) نكاح المقت:

وهوأن يتزوج الرجل زوج أبيه كجزء من ميراثه، فعندما يتوفى أحدهم ويترك زوجه فإن ابنه الأكبر من زوجة أخرى أوقريبه يلقي عليها ثوبه ليثبت ملكيته لها، كما جرت العادة في يثرب، كان الوارث إذا لم يكن للمتوفى أبناء أواخوة، يلقي

---

[63]: صحيح البخاري ج5 ص 1966، الشوكاني (محمد بن علي بن محمد) نيل الاوطار الطبعة الأخيرة – مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ج6 ص159 وما بعد، يختصر إلى شوكاني: نيل الاوطار، آلوسي ج2 ص5، قبلان: آداب الزواج ص18 صباغ: المرأة ص177 –178، حوفي: المرأة ص200، دلوج1 ص183

[64]: لسان العرب مادة شغر

[65]: النهاية في غريب الحديث ج2 ص226

[66]: موطأ الإمام مالك ص233، صحيح البخاري ج5 ص1966، النيسابوري (أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري) صحيح مسلم، 1374 ه 1955، خادم الكتاب والسنة محمد فؤاد عبد الباقي ج2 ص1035، يختصر إلى صحيح مسلم، لسان العرب مادة شغر.

ثوبه على المرأة فتكون عندئذ في ملكه، أن شاء تزوجها وأن شاء عضلها أي منعها من الزواج من غيره حتى تموت فيرث ميراثها إلا أن تفتدي نفسها منه بفدية ترضية[67]. وقد تناوب ثلاثة من بني قيس بن ثعلبة امرأة أبيهم فعيرهم بذلك أوس بن حجر التميمي [68]، لان ذلك كان ممقوتا من الأكثرية.

لذا فقد حرمه الاسلام، ذكر المفسرون أن كبيشة بنت معن بن عاصم الأوسي أتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله إن أبا قبيس توفي فورث ابنه نكاحي، وقد أضرني وطول علي، فلاهوينفق علي ولا هويخلي سبيلي، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم، اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله عز وجل، فنزلت الآية الكريمة((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ)) [69]، ونزلت أيضا الآية الكريمة: ((وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً))[70] في امرأة أخرى يقال أنها فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف فخلف عليها صفوان بن أمية.

8 ــ زواج السبي:

وهوحق المحاربين المنتصرين في نساء المحاربين المغلوبين ولا يشترط في هذا الزواج رضا الفتاة ولا رضا أهلها، وليس فيه مهر[71]، ويقع مثل هذا الزواج إذا لم يطلق السابي سراح سبيته، فقد كان الغزاة المنتصرون يقتسمون النساء السبيات بالقداح يؤيد ذلك قول الفرز دق:

---

[67]: جامع البيان ج4 ص306 وما بعد، صبح الأعشى ج1 ص403، جمعة ص65، دلوج1 ص184

[68]: جامع البيان ج4 ص305، نهاية الأرب ج3 ص120، الالوسي ج2 ص52 دلوج1 ص184

[69]: سورة النساء: الآية 19 وجامع البيان ج4 ص306، تفسير ابن كثير ج1 ص466.

[70]: سورة النساء: الآية 22، جامع البيان ج4 ص318، تفسير ابن كثير ج1 ص469

[71]: فروخ: تاريخ الجاهلية ص156.

خرجن حريرات وأبدين مجلدا ودارت عليهن المكتبة الصفر[73]

ولقبت المرأة المأخوذة من السبي بالاخيذة أوالنزيعة[74] وهي التي أخذت، وانتزعت من أهلها، وفصلت عنهم، والأخيذ والنزيع ولد الأسيرة.فمن وقعت في نصيبه امرأة، أخذها وحل له الاستمتاع بها لأنه ملكها بالسبي، وله الحق في أن يبيعها إذا لم تجد من يفتديها من قومها[75].

ورغب العرب في هذا النوع من الزواج لأنه كان يتم بلا مهر كما أسلفنا القول وقد كفاهم السيف دفع مهر، ولأنه ينتج نسلا قويا نجيبا [76].

فدريد بن الصمة واخوته عبد الله، وعبد يغوث، وقيس وخالد أمهم جميعا ريحانة بنت معد يكرب الزبيدي أخت عمرو بن معد يكرب، وكان الصمة سباها، ثم تزوجها فأولدها بنية وكان لهم شهرة [77].

وعمروبن العاص أمه سلمى بنت حرملة سبيت وبيعت في سوق عكاظ، فاشتراها الفاكة بن المغيرة، ثم ابتاعها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فتزوجها ،وولدت له ولدا أسماه عمر [78]،

كان الزواج بالسبيه، شكل من الزواج الخارجي مرغوبا فيه، لأنه ضرب من الفروسية ولامهر فيه، ولأن العرب كانوا يعتقدون أن أبناء الغرائب أنجب كما سبق الإشارة إلى ذلك قال الشاعر:

وما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناهم بأسيافنا قسرا

فما زادها فينا السباء مذلة ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا

---

[73]: لسان العرب مادة حرر، وحريرات يجدن حرارة في صدورهن. المكتبة الصفر،القداح أوالسهام التي أجليت عليهن حين اقتسمه واستهم عليهن.

[74]: الأغاني ج3 ص38، جمعة ص33

[75]: الحوفي: المرأة ص382، حسن: حضارة ص129، جمعة ص39

[76]: الأغاني ج15 ص225، دلوج1 ص185.

[77]: الأغاني ج10 ص4، عفيفي: المرأة في جاهليتها واسلامها ج1 ص41، دلوج1 ص185

[78]: أسد الغابة ج4 ص115 ـ 116

ولكـــن خاطناهـــا بخـــير نســـائنا فجــاءت بهــم بيضــا وجــوههم زهــرا

وكــائن تــرى فينــا مــن ابــن ســبية إذ لقـــي الأبطـــال يطعـــنهم شـــزرا

ويأخـــذ رايـــات الطعـــان بكفـــه فيوردهـــا بيضـــا ويصـــدرها حمـــرا

كـــريم إذا اعتـــز اللئـــيم تخالـــه إذا مـا سـرى ليـل الـدجى قمـرا بـدرا[79]

وقد حلت بعض السبايا مقاما كريما عند زوجها (سابيها) إلا أن ذلك لم يريحها، فإن شعورها بالهوان كان يلازمها، وكانت تعمل الحيلة للعودة إلى أهلها، فقد روي عن عروة بن الورد، أنه أغار على مزينة فأصاب منهم امرأة بكرا من بني كنانة يقال لها سلمى، وتكنى أم وهب فاعتقها، واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ووولدت له أولادا، وهولا يشك في أنها أرغب الناس فيه، وكانت تقول له: لوحججت بي فأمر على أهلي وأراهم، فحج بها ثم أتى يثرب، وكان يخالط بني النضير ويعاملهم، وكان قومها يخالطونها، فأتوهم وهوعندهم، فقالت لهم سلمى: إنه عائد بي قبل أن ينتهي الشهر الحرام، فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب سبيا، وافتدوني منه، فإنه لا يرى أني أفارقه، ولا اختار عليه أحدا، فأتوه فسقوه الشراب فلما ثمل قالوا له: فادنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا، وأن علينا سبة أن تكون سبيا، فإذا سارت إلينا، وأردت معاودتها فاخطبها، فإننا نزوجك فقال لهم: ذاك لكم ولكن خيروها فإن اختارتني انطلقت معي إلى ولدها وإن اختارتكم انطلقتم بها، فوافقوه، فلما كان الغد جاءوه فامتنع من فدائها ثم رضي فخيروها، فاختارت أهلها، وأقبلت عليه فمدحته، ثم قالت: مامر علي يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب الي من الحياة بين قومك، لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أمة عروة

---

[79]: عفيفي: المرأة في جاهليتها وإسلامها ج1 ص40 – 41، دلوج1 ص185 عقد فريد 7 142

كذا وكذا، والله لا أنظر في قومك غطفانية أبدا، فأرجع راشدا إلى ولدك وأحسن إليهم، فحزن عروة وندم وقال في ذلك شعرا يدل على فجيعته وآلمه [80].

ولم يكن غريبا أن تفعل المرأة ما فعلته سلمى إذا استطاعت إلى الخلاص سبيلا، ولكن الغريب ألا تفعله، وهي قادرة عليه كما حدثوا عن ابنة قيس بن عاصم حين سبيت، ولما خيروها بين أبيها وسابيها اختارت الثاني فراع ذلك قيس، وسن لهم وأد البنات [81].

9ـــ نكاح الإماء:

وهوزواج العربي من أمته التي يعدها من متاعة وملكه، فإذا انجب منها أولادا، لا يحق لهم أن يلحقوا بنسبه، بل يظلوا عبيدا له وإماء [82]،وقد يعتقها ويعتقهم إذا رغب في ذلك. لعلهم فرقوا بين الأم والأمة: فأطلقوا على الأمة المولدة أم ولد، بينما سموا الأم الحرة أم البنين[83] وأطلقوا على ابن العربي من الأمة هجينا [84]ولعل الهجناء السود كانوا في أوضع منزلة اجتماعية، سرى لهم السواد من أمهاتهم، فكان ذلك سبة يعير بهم آباؤهم، وأطلق عليهم اسم الأغربة[85] شبيها لهم بذلك الطائر المشؤوم في لونه الأسود، فلم يسمح لهم مجتمع الأرستقراطية بالمشاركة في الحياة الاجتماعية، كما يشارك غيرهم من أبناء الأحرار، وظلوا يعيشون على هامش الحياة، ويقومون بالأعمال الذليلة الهينة كالحلاب والصر،.

أحيانا تهيئ الظروف لهم فرصة محوعار سواد لونهم، فيعترف الأب بابنه، وتسمح القبيلة له بالقيام بدوره في الأعمال الأساسية كما حدث لعنترة بن شداد،

---

[80]: ديوان عروة ص4 وما بعد، الأغاني ج3 ص76، حوفي: المرأة ص391 عفيفي: المرأة في جاهليتها واسلامها ج71 ص142.

[81] انظر فصل المناسبات ـ ولادة أنثى.

[82] : الأغاني ج8 ص237، ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص250، آلوسي ج2 ص126، زوزني: شرح المعلقات السبع ص104 حوفي: المرأة ص394

[83]: دائرة المعارف الإسلامية ج2 ص635 وما بعد، حسن: حضارة ص129

[84]: لسان العرب مادة هجن.

[85]: التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص158 حاشية، شريف ص28،

يقال أن أباه ادعاه بعد الكبر، وذلك أنه كان لامة سوداء يقال لها زبيبة، فأظهر شجاعة فائقة في دفاعه عن قبيلته، كانت هذه الشجاعة شفيعا له باعتراف والده به[86]. فوضع الإماء مزريا هم وأولادهم، فقد حرموا من الحرية والمساواة في الحقوق والكرامة الإنسانية.

أضف لذلك أنه كان يحق للرجل أن يتسرى بهن، وينكح ما يشاء منهن دون عقد زواج، ولا مهر لأنهن ملك يمينه، ويمكن له أن يهب أويبيع من ينكحها منهن بدون طلاق إذا لم تكن قد ولدت له ولدا [87].

10ـ نكاح صواحب الرايات:

وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن مقابل أجر لم يكن محددا، قد يكون نقدا أومتاعا ، ويتوقف على التراضي فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها القافة[88]. ثم الحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به[89]، ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك [90]. فهذا النكاح زنا لخلوه من المهر والخطبة، ولأن ممارسة الرجل بقصد الشهوة الجنسية بثمن.

فأبوسفيان واحد من أولئك الذين كانوا يتعاطونه، خرج يوما وهوثمل[91] إلى تلك الرايات، فقال لصاحبة الراية: هل عندك من بغي ؟ فقالت: ما عندي إلا سمية، قال هاتيها على نتن [92] إبطيها فوقع بها، فولدت له زيادا على فراش عبيد[93] ثم استلحق بأبيه فيما بعد.

---

[86]: الأغاني ج8 ص237، ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص250

[87]: دروزة: عصر النبي ص246، حوفي: المرأة ص386،

[88]: جمع قائف الذي يعرف الأثر، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه، لسان العرب مادة قوف.

[89]: ادعاه واستلحقه لسان العرب مادة ليط

[90]: الملل والنحل ج3 ص324، صحيح البخاري ج5 ص170 – 171 آلوسي ج2 ص4-5، علي: المفصل ج5 ص539، الحوفي: المرأة ص20

[91]: ثمل: سكران لسان العرب مادة ثمل

[92]: الرائحة الكريهة لسان العرب مادة نتن

[93]: العقد الفريد ج5 ص266 – 267، مروج الذهب ج3 ص76.

كان يتعاطى هذا النوع من النكاح الإماء لأنهن مادة البغاء العلني أوالعام، أقيمت لهن في المدن المواخير [94]. ونسبت لهن خيام عليها رايات حمر في الأسواق الموسمية، كسوق عكاظ ودومة الجندل وذي المجاز [95]، لأن التقاليد العربية قيدته بقيود كثيرة، فلم يكن يباح في الغالب لعربية أن تمتهن البغاء، وكان لا يذهب إليهن إلا سفلة الناس، وسوقتهم في الظلام، يجرون أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أرجلهم على الرمال [96]. لذا أطلق عليهن تسميات مهينة كالمظلمات، وكان من جوامع كلمهم في المدح فلان لا يرخي لمظلمة إزاره [97].

من هوءلاء البغايا أم عليط جارية صفوان بن أمية. وحنة القبطية جارية العاص بن وائل وغيرهن [98]. وقد كان لهؤلاء البغايا أولاد نسل كثير [99].

وفي القرآن الكريم إشارة إلى البغاء بقوله تعالى: " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة " [100].

والمراد بالفتيات، الرقيقات كما هوالشائع في استعمال هذه الكلمة عند العرب، وكما يدل على ذلك سبب نزول الآية [101]، فالزنا ظاهرة اجتماعية قديمة اختلفت النظرة إليه باختلاف الجماعات وتباين مفاهيمها الاجتماعية والأخلاقية.

11ـ نكاح تعدد الأزواج بالنسبة للمرآة:

وهوشكل من أشكال الزواج الجماعي، يجتمع الرهط مادون العشرة، فيدخلون على المرآة، كلهم يصيبها ـ أي يطؤها عن رضى منها، وتواطوء بينهم

---

[94]: بيوت الريبة، لسان العرب مادة مخر

[95]: المحبر ص264، أسواق ص237

[96]: واي ص72

[97]: واي ص72

[98]: آلوسي ج2، ص 5 حاشية

[99] تفسير ابن كثير ج3 ص 289، لسان العرب مادة سعا

[100]: سورة النور الآية 33، تفسير ابن كثير ج3 ص289

[101] كان لعبد الله بن أبي ست جوار يكرهن على الزنا، ويضرب عليهن الضرائب فشكت بعضهن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، تفسير ابن كثير ج3 ص289، وما بعد، واي ص73 حاشية

وبينها – فإذا حملت، ووضعت، ومرت ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهوابنك يافلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل[102]، يظهر من هذا النص أن عدد الرجال الذين كان يباح لهم الزواج بإمرأة واحدة وفق هذا النظام ما كان يصح أن يزيد على العشرة، وأن معاشرتهم للزوجة لم تكن على صورة دائمة، ولم تكن لها صفات الحياة العائلية، وأن هذه الصلة على الرغم من حالتها الموءقتة، وممن تجردها من صفات الحياة العائلية، كانت توجب على الرجال بعض الالتزامات فيما يتعلق بنسب الأولاد، فكان للمرأة الخيار في أن تلحق ولدها بأي رجل منهم فيتصل نسبه به، قيل هذا إن كان الولد ذكرا، وإلا فلا تفعل ذلك لما عرف من كراهيتهم للبنت، فضلا عمن تجيء بهذه الصفة[103]

فالأبوة في هذا النوع من الزواج لم تكن أبوة طبيعية، بل أبوة رسمية فقط، والمرأة هي التي تلحق ولدها بمن تحب أن يكون أبا له. فهل لشيوع عادة نكاح الرهط قلة عدد النساء، لأن بعض القبائل وأدت البنت ؟ أم الصعوبات المالية في الزواج، فيشترك عدد من الرجال بالزواج بامرأة واحدة ؟.

إن هذا الزواج ظاهرة معينة، وصورة خاصة من الصور الاجتماعية التي ظهرت تحت ظروف خاصة فقد اختلف الدافع إليه بإختلاف العوامل الاقتصادية والاجتماعية، فأبيح للمرأة فيه بحرية ممارسة علاقات جنسية مع نفر من الناس قد يكونوا أخوة يشتركون بالمال وبالزواج بامرأة واحدة[104].

ولعل هذا الضرب من الاتصال الجنسي (نظام اجتماعي قديم كان فاشيا بين العرب القدماء، وربما كان دخيلا على العرب من الفرس الذين كانوا يمارسون

---

[102] صحيح البخاري ج5 ص1970 – 1971، ترمانيني: الزواج عند العرب ص16 ـ 17

[103] الوسي ج2ص4، قبلان: آداب الزواج ص19 – 20، حوفي: المرأة ص199 صباغ: المرأة ص180

[104] علي: المفصل ج5 ص540 –541، قبلان: آداب الزواج ص21

الإباحة الجنسية في عهد الساسانيين، وربما طرأ على العرب من شرقي إفريقية لأن بعض القبائل كانت تتبع هذا النظام هناك، ومازالت تدين به)[105].

12ـ نكاح تعدد الزوجات بالنسبة للرجل:

كان نظام تعدد الزوجات مرخصا به في كثير من الأحيان، وطريقته أن يتزوج الرجل عددا غير محدد من النساء، أي أكثر من واحدة في آن واحد فهوفي هذه الحالة شبيه بتعداد الأزواج بالنسبة للمرأة، ولكن بصورة معكوسة وقد يكون نكاح تعدد الزوجات على صورة أخرى، وهوأن يقترن الرجل بعدد غير محدود من الزوجات الأحرار والأسيرات والإماء ويبدوأن هذا الشكل من تعدد الزوجات هوالذي كان شائعا عند العرب في فترة قبل الإسلام، فقد بزغ الاسلام، وفي ثقيف وغيرها من الحواضر، رجال عند كل منهم عشر نسوة كمسعود بن معتب وعروة بن مسعود، وسفيان بن عبد الله، وأبي عقيل مسعود بن عامر، وغيلان بن سلمة، فلما أسلم غيلان وسفيان وأبوعقيل نزل كل منهم عن ست وأمسك أربعا[106] وقد كان لعبد المطلب بن هاشم ست نسوة، ولدن له عشرة رجال وست نساء[107] ، وكان المغيرة بن شعبة قد تزوج ثمانين امرأة أوأكثر[108].

ظهر نكاح تعدد الزوجات تاريخيا إثر تفكك الروابط الجماعية القبلية، وظهور الملكية الخاصة، والانتقال من نظام الأمومة إلى نظام الأبوة، لذا شاع في أوساط الزعماء، ووجهاء القبائل، وأثرياء العرب كما لاحظنا، أي أنه امتياز للأغنياء والأعيان، بينما كان ينبغي للآخرين أن يكتفوا بزوجة واحدة.

---

(105) جمعة ص16 وما بعد.

(106) محبر ص 357، أسد الغابة ج4 ص172

(107) ابن هشام: السيرة ج1 ص113 – 114.

(108) الأغاني ج16 ص86

13ـ نكاح الذواق:

عرف العرب قبل الإسلام هذا النكاح الذي كان يعقد دون شروط ويحل من نفسه في الوقت الذي لم يجد أحد الطرفين لذة وارتياحا وميلا وانعطافا للطرف الأخر. فقد روي عن أم خارجة أنها جامعت نيفا وأربعين رجلا من عشرين حيا أوأكثر، كان يأتيها الخاطب فيقول لها: خطب، فتجيبه نكح، حتى ضرب المثل بها فقيل: "**أسرع من نكاح أم خارجة** "[109].

تلك كانت أهم أنواع الزواج والانكحة التي عرفها العرب في الحجاز قبل ظهور الإسلام، ولا يزال بعضها معروفا حتى الأن في أنحاء متعددة من العالم، وهي في الغالب مرآة عاكسة للظروف التي عاشها الناس في شبه الجزيرة.

سن الزواج:

العرف السائد لدى العرب في العصر الجاهلي تزويج الشاب والشابة في سن مبكرة، قد تكون السادسة عشرة للفتى، والثانية عشرة للفتاة، سيرا مع الحاجة الغريزية لكل منهما، ولكي يولد لهم أولاد في سن مبكرة، حتى إذا كبروا كانوا قوة وعونا لهم على أعدائهم وخصومهم، وقرة عين لهم، لذا التمسوا الحداثة والبكارة " خير المناكح الأبكار"[110].

سموا الأولاد المولدين من أب شاب ربعيون أي أنهم ولدوا في ربيع حياة أبيهم، وأطلقوا على الأولاد المولدين من أب هرم صيفيون، أي أنهم ولدوا في صيف حياة أبيهم حين أشرفت حياته على الغروب[111].

أحيانا يتأخر الخاطب عن الفتاة حتى سن الثامنة عشرة أوالعشرين، فتلجأ إلى وسائل السحر، والتوسل إلى الآلهة، أوالجن عل قواها الخارقة تفتح أمامها سبيل الزواج، وينظر إليها نظرة إشفاق لأن الركب قد فاتها، فهناك أسطورة تحكي بأنه

---

[109] الميداني: مجمع الأمثال ج1 ص348

[110] الميداني: مجمع الأمثال ج1ص61

[111] العقد الفريد ج3 ص39، الميداني: مجمع الأمثال ج1 ص14.

إذا عسر على المرأة خاطب النكاح نشرت جانبا من شعرها، وكحلت إحدى عينيها مخالفة للشعر المنشور. وحجلت على إحدى رجليها، ويجب أن يكون ذلك ليلا، وتقول: يالكاح أبغي النكاح قبل الصباح فيسهل أمرها وتتزوج عن قرب[112] وفي ذلك قول الشاعر:

قد كحلت عينا وأعفت عينا وحجلت ونشرت قرينا

تظن زينا ما تراه شينا

فإن دل هذا على شيء فإنه يدل على سذاجة المجتمع وبعده عن الواقع وبالتالي قلقه على عدم زواج البنت.

وبالمقابل فمهما بلغ عمر الرجل فإنه يتزوج بشابة، فالرسول صلى الله عليه وسلم عقد زواجه على عائشة بنت أبي بكر، وهي في السادسة من عمرها وقيل في السابعة، وبنى بها في المدينة في السنة الأولى للهجرة وكانت قد بلغت تسع من عمرها[113].

ولم تكن عائشة أول صبية تزف إلى رجل في سن أبيها، ولم تكن أخرهن فقد تزوج عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم من هالة ابنة عم آمنة وهوشيخ في اليوم نفسه الذي تزوج فيه أصغر أبنائه عبد الله من آمنة. كما تزوج عمر بن الخطاب من بنت علي بن أبي طالب وهويفوق والدها بالعمر[114]. وزفت البنت في بعض الأحيان إلى زوجها قبل البلوغ، ودعيت في هذه الحالة بالمتهجنة[115].

---

[112] الوسي ج2 ص330، الأساطير والخرافات ص133

[113] الألباني (محمد ناصر الدين) صحيح سنن ابن ماجة، المكتب الإسلامي، بيروت ـ ط 1 1407 هـ ـ1986 ج1 ص315 ـ316 يختصر إلى صحيح سنن ابن ماجة، المحبر ص81، صحيح البخاري ج3 ص1414 ، ابن عساكر الشافعي (أبي منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله) كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين، تحقيق محمد مطيع الحافظ أو غزوة بدير، دار الفكر ط1 1406 – 1986 ص41، سمهودي ج1 ص272

[114] البواب: مئة أوائل من النساء ص86

[115] لسان العرب مادة هجن.

وجرت خطبة البنات للبنين في بعض الجماعات، وهم صغار، حتى إذا كبروا زفت كل بنت لمن سميت له، وكانت هذه العادة جارية في الجاهلية، واستمرت في الإسلام، فقد زوج النبي صلى لله عليه وسلم إمامة بنت عمه حمزة من سلمة بن أبي سلمة المخزومي وهما صغيران، والآثار في جواز ذلك مشهورة عن عمر وعلي، وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة وغيرهم[116]. ولقد جمع عرب الجاهلية بين الأختين، فقد عرفت حالات كثيرة من هذا القبيل، مثال على ذلك جمع أبواحيحة وثقيف بن منبه بين الأختين[117]،ولما جاء الإسلام حرم ذلك من جملة ما حرم عنه ونهى[118].

ثانياً: انحلال الأسرة بالفرقة:

تتعرض الحياة الزوجية في كل قبيل لهزات عنيفة تقوض أركانها، ودرجات قوية تهدم بنيانها، وهذا شيء طبيعي لأنه ليس من المحتم أن يتخطى الزوجان مراحل العمر متماسكين بعلاقة وثيقة مصفاة لا تنفصم، لذا فقد عرف العرب القدماء الطلاق. فما هي بواعثه ؟ وعلى أي الصور عرفوه ؟ وهل كان هذا الحق حكرا للرجل يستأثر به ؟ أوأن المرأة كان لها نصيب من هذا الحق ؟.

ليس بمستطاع المرء أولا أن يتعرف الطلاق كلها، وبحسبنا أن نتعرض لبعضها، فقد يكون من بواعثه الفقر، والعسر بعد اليسر، ولقد ينضم الكبر في السن إلى الفقر، وربما يدفع إلى الطلاق تطاول الزوجة على قوم زوجها فيندفع بعصبيته لهم إلى تطليقها، فمثلا كان حسان بن ثابت زوجا لعمرة بنت الصامت الأوسية، وكانا متصافين متحابين، ولما أجار الأوس مخلد بن الصامت الساعدي، قال أبوقيس بن الأسلت:

أجرت مخلدا ودفعت عنه وعند الله صالح ما أتيت

---

[116] . أبوزهرة (محمد) عقد الزواج، 1958 جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية ص149، يختصر إلى أبوزهرة: عقد الزواج ترمانيني:الزواج عند العرب ص159.

[117] المحبر ص327

[118] تفسير ابن كثير ج1 ص473

فتكلم حسان في أبي قيس بكلام أغضب عمرة، فعيرته بأخواله، وفخرت عليه بالاوس فغضب من ذلك وطلقها[119].

وكذلك طلق دريد بن الصمة زوجته أم معبد. لأنها رأته شديد الجزع على أخيه، فعاتبته على ذلك، وصغرت شأن أخيه وسبته، فطلقها[120]، وقد يكون السبب تنافرا عاطفيا، فهولا يأنس إليها، ولا يجد فيها الخلال التي يريد، وهي لا تجد ميلا إليه. ربما يطلق الرجل امرأته لعقم فيها، أولإنجابها البنات دون البنين أولعدم قبول المرأة بالضرة، أولخصومة تقع فينتقم منها ومن ذوي قرابتها.

لهذا كله اتخذ كثير من الأزواج الطلاق بأنواعه وسيلة للإضرار بالزوجات وابتزاز أموالهن، وحملهن على افتداء أنفسهن وهوحق يملكه الرجل، ويمكن للمرأة أن تملكه في أحيان أخرى وسنشرح ذلك فيما بعد.

أنواع الطلاق عند العرب:

1- الطلاق:

معناه تنازل الرجل عن حقوقه التي كانت له على زوجته أومفارقته لها، وهوسهل يسير، فقد كانت العرب تطلق في الجاهلية ثلاثا على التفرقة، والزوج أحق بزوجته إلى أن يستوفي ثلاث طلقات فإن استوفاها انقطع سبيله إليها ومنه قول الأعشى لزوجته[121]:

أيا جارتي بيني فانك طالقة ... كذاك أمور الناس غاد وطارقة

قالوا ثانية فقال:

وبيني فان البين خير من العصا ... وإلا تري لي فوق رأسك بارقة

---

[119] الأغاني ج1 ص 14

[120] الأغاني ج10 ص10 – 11

[121] المحبر ص309، الأغاني ج9 ص122، الملل والنحل ج2 ص222، 223، 234 ياقوت مادة مكة، آلوسي ج1 ص243، ج2 ص49، جواد: المفصل ج5 ص549 الحوفي: المرأة ص209

قالوا ثالثة فقال:

وبـيني حصـان الفـرج غـير ذميمـة   وموقـة[122] قـد كنت فينـا و وامقـة[123]

فكرر الطلاق ثلاث مرات متفرقات. وكان هذا هوالغالب، وقد التزم أهل مكة هذا التفريق، يدل على ذلك قول ابن عباس إذ سئل عن طلاق العرب فقال: " كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ثم هوأحق بها، فان طلقها ثنتين فهوأحق بها أيضا، فان طلقها ثلاثا فلاسبيل له إليها[124]"

ويردد الرجل عبارات كثيرة أثناء الطلاق مثل قوله: حبلك على غاربك أي خليت سبيلك فاذهبي حيث شئت وقوله: أنت مخلى كهذا البعير، والحقي بأهلك وأذهبي فلا أنده سربك، وقوله: أخذت الظباء على البقر، وفارقتك أوسرحتك وما شاكل ذلك من عبارات[125] تفوح منها الرائحة الأعرابية، والبيئة الصحراوية بشكل واضح.

أما إذا كان الرجل مهذب العبارة سل ثوبه عن امرأته[126].وكان الرجل بعد أن يطلق امرأته لا يسمح لها غيرة أوحمية أن تتزوج من غيره وذلك عن طريق تهديدها، وتهديد أهلها إذا حاولت الزواج.

2ـ الخلع:

صورة من صور الطلاق في الجاهلية فقد أعطيت بعض النساء حق خلع أنفسهن وذلك لشرفهن وقدرهن وحكمتهن كسلمى بنت عمروبن زيد بن لبيد بن خداش الخزاعية وهي أم عبد المطلب بن هاشم، وعاتكة ابنة مرة بن هلال، وهي أم هاشم

---

(122) المحبر ص309، الأغاني ج9 ص122، الملل والنحل ج2 ص222، 223، 234 ياقوت مادة مكة، آلوسي ج1 ص243، ج2 ص49، جواد: المفصل ج5 ص549 الحوفي: المرأة ص209

(123) محبة، لسان العرب مادة ومق.

(124) الملل والنحل: ج3 ص322 حاشية، ياقوت مادة مكة.

(125) الميداني: مجمع الأمثال ج1 ص196، لسان العرب مادة غرب،تاج العروس مادة سرب.

(126) القرشي: (أبي زيد محمد بن أحمد الخطاب) جمهرة أشعار العرب – دار المسيرة بيروت. طبعة جديدة منقحة 1398 هـ – 1978 م ص41 يختصر إلى القرشي جمهرة أشعار العرب.

بن عبد مناف، وعبد شمس والمطلب أبناء عبد مناف، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية وتدعى أم الكملة لإنجابها أربعة أولاد كل منهم لقب بالكامل[127].

فإذا أرادت إحداهن طلاق زوجها، وكانت بدوية وجهت باب خبائها وجهة غير وجهته الأولى، فإن كان إلى الشرق فإلى الغرب، أو كان إلى الجنوب فإلى الشمال، فإذا رأى الرجل ذلك بعد عودته من سفر مثلا، علم ان زوجته قد طلقته فيرجع أدراجه، ويلحق بأهله[128].

ومرجع ذلك حسب تقدير محمود جمعة " أن الخباء عند الساميين ملكا للمرأة و إذا عرفنا أن الخباء عند أهل المدر بمثابة البيت عند الحضر كان معنى ذلك أن حقوق الملكية قديما كانت مقصورة على المرأة وأن الرجل هوالذي كان "يدخل عليها" فإذا جاء ووجدها قد حولت باب الخباء، عرف أنها قد أعرضت عنه وطلقته000ونحن نجد في كل هذا بقية من بقايا نظام الأمومة عند قدماء العرب"[129]. وبهذه الطريقة طلقت ماوية بنت عفرز زوجها حاتما حين أمعن به جنون الكرم، فلم يبق لابنائه ما يتبلغون به[130].

أما غير البدويات منهن لم يكن من ذوات الأخبية فكان لهن أساليب أخرى يدللن بها الرجال على الطلاق، منهن عمرة بنت سعد، ومارية بنت الجعيد العبدية، وعاتكة بنت مرة السلمية، وفاطمة بنت الخرشب الانمارية والسواء العنزية وسلمى ابنة عمر بن زيد النجارية وهي أم عبد المطلب بن هاشم كما سبق ذكره.

إذا تزوجت الواحدة منهن رجلا، وأصبحت عنده كان أمرها إليها، وتكون علامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاما إذا أصبح[131]، ويفهم من ذلك أن عدم ارتضائها له كانت دلالته ألا تعنى بأمر طعامه،

---

(127) المحبر ص398، الملل والنحل ج3 ص322 – 323 حاشية، الحوفي: المرأة ص14، علي: المفصل ج4 ص636.

(128) الأغاني ج17 ص387، واية ص127

(129) جمعة ص87

(130) ديوان حاتم ص19 – 20، الأغاني ج17 ص387

(131) الميداني: مجمع الأمثال ج1 ص 348، عفيفي: المرأة في جاهليتها وإسلامها ج1 ص58 واية ص128.

3 ـ الظهار:

كان الرجل يظاهر من زوجته في الجاهلية ومطلع الإسلام بقوله لها: أنت علي كظهر أمي أوأختي أوكبطنها أوكفخذها، أوماشابه ذلك[132] يريد بذلك تحريمها عليه تحريما مؤبدا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لخولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت حين فزعت إليه لما ظاهر منها زوجها "حرمت عليه"[133].

ثم انزل الله تعالى قوله: ((الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ))[134].وقوله تعالى أيضا: ((مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ))[135].

وبذلك أبطل الإسلام الظهار وحرمه، ونفى الخالق تعالى أن يكون لرجل قلبان في جوفه، ومن ثم جعل عقوبة الظهار الكفارة.

4ـ الايلاء:

كان الايلاء من أنواع الفراق، وهوأن يقسم الرجل على ترك زوجته السنة والسنتين أوأكثر، وكأن ذلك طلاق مؤجل فلما جاء الإسلام عين للرجل مدة يراجع فيها نفسه، ثم يطلق إن شاء أويفيء في يمينه. قال تعالى: ((لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ))[136]. وكان قصد الرجل من إيلاء زوجته إيذائها لتبقى في وضع سيء فلا تتمتع بالحقوق الزوجية، ولا تجد مخرجا

---

[132] صحيح البخاري ج5 ص2027 حاشية، وجامع البيان ج21 ص118 آلوسي ج2 ص50 دروزة: عصر النبي ص240، قبلان: آداب الزواج ص178، الحوفي: المرأة ص212 عوض الله: مكة ص162، صباغ: المرأة ص209

[133] جامع البيان ج21 ص118

[134] سورة المجادلة: الآية 2 -3 -4

[135] سورة الأحزاب: الآية 4

[136] سورة البقرة : الآية 226 – 227

للزواج من رجل آخر فتبقى لرعاية أولادها[137]. إذاً عرف العرب الطلاق، وجروا على طرق عدة في إيقاعه، بل قرروا العدة بعد الوفاة استبراء للرحم، وحداد على الزوج[138]، فما هوالحكم في المطلقة ؟.

لم تكن العدة مقررة في الجاهلية، بدليل أن بعض النساء ولدن من أزواجهن الأولين، وهن في عصمة الآخرين[139]، ونسب الولد إلى الزوج الجديد، لأنه ولد على فراشه. فربما كان ترك العدة يرجع إلى الجهل أوالانخداع بأنه لا حمل من الزوج الأول.

ثالثاً: الحمل والولادة وتربية الأولاد وتسمياتهم:

الحمل هوالصفة المطلوبة في المرأة، لأن الإنسال هوغاية الزواج." سوداء ولودخير من حسناء عاقر"[140] فهم يؤثرون الولود ويسمونها الضنأنية[141].فإذا تأخر حمل المرأة لجأت إلى طرق عديدة، كأن تشد على حقوقها[142]خرزة تسم العقرة لكي تحمل، وتلد الأولاد[143]. وزعموا أن المرأة الحامل التي تجهض، ولا يستقر حملها، أولا يعيش لها ولد، إذا وطئت رجلا كريما قتل غدرا، فأنها تحمل وتلد، وإذا ولدت فلا يموت لها ولد، وتسمى المرأة في هذه الحالة مقلاتا[144]. وجمعها مقاليت، وفي ذلك قال شاعر عن رئيس قتل غدرا، وأخذت مقاليت النساء يطأنه اعتقادا منهن أن وطأه وهوقتيل يحفظ حملهن وأولادهن[145].

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يلقى على المرء مئزر

---

[137] صباغ:المرأة الآية 210

[138] انظر فصل المناسبات وماذا كانت المرأة تعمل عندما يتوفى زوجها

[139] المحبر ص 338، الحوفي : المرأة ص 221

[140] جواد: المفصل ج4 ص634

[141] المرأة الكثيرة الأولاد لسان العرب مادة ضنا

[142] خصر بها لسان العرب مادة حقو.

[143] لسان العرب مادة عقر.

[144] المرأة التي لم يبق لها ولد لسان العرب مادة قلت.

[145] لسان العرب مادة قلت، صبح الأعشى ج1 ص406، آلوسي ج2 ص317 ترمانيني: الزواج عند العرب ص220

والمرغوب في الحمل عندهم الولد الذكر، فهم قوم عصبية وحروب، ورغبتهم في الذكر مستمدة من طبيعة حياتهم، خاصة إذا كانوا أعلاما في الشهرة كالجود والكرم والشجاعة والفروسية وما إلى ذلك.

لذا كان العربي في الجاهلية يغضب إذا ولدت زوجته البنات فيهجر زوجته أويئد البنت[146] 0000 الخ. أما إذا ولدت له ذكرا، أقام وليمة سميت الخرس، ووليمة أخرى سميت العقيقة في اليوم السابع من الولادة إعلانا عن الفرح والسرور[147].

وتتولى التوليد امرأة تدعى القابلة، تتقاض أجراً، يرتفع إذا كان المولود ذكراً، وتتعالى الزغاريد بمولده، أما البنت فيسود الصمت بمولدها وهي عادة سيئة.

وكانت البيوتات الشريفة عند العرب، تشترط عند الخطبة أن تلد المرأة عند أهلها، فقد روي أن هاشم بن عبد مناف، كان يختلف إلى الشام في التجارة، فإذا مر بيثرب نزل على عمروبن زيد بن لبيد النجاري فخطب ابنته سلمى، فأنكحه إياها واشترط عليه ألا تلد في يثرب عند أهلها، فنقلها هاشم معه إلى مكة، فلما حملت، ودنت ولادتها أتى بها إلى منزل أبيها، فخلفها ومضى إلى الشام في تجارته فمات بغزة، وولدت سلمى عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم[148].

ولعلهم اهتموا بالإرضاع اهتماما كبيرا اعتقادا منهم أن اللبن دساس يؤثر في شاربه[149]، إضافة إلى أثر عرق وطباع وخلق المرضع في البنية الجسمية والنفسية للطفل، لذا خضعت إلى فحص دقيق من أسرة الطفل في نسبها وعشيرتها، وشخصها، وسلامتها من الأمراض، وقد كانت مدة الإرضاع المبدئية عامين كاملين، إذا لم يحدث حمل أثناء ذلك فيفطم الطفل وقد أيد الإسلام ذلك في آياته الكريمة[150]. وقد احترفت بعض النساء الإرضاع، ولا سيما أهل البادية إذ كان الحضر يسترضعون البدويات، ويعطونهن أولادهم ليربينها.

---

[146] انظر فصل المناسبات – ولادة أنثى.

[147] آلوسي ج1 ص386، علي: المفصل ج4 ص685، ترمانيني: الزواج عند العرب ص221-222.

[148] أنساب الأشراف ج1 ص64، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص247 – 248، الكامل في التاريخ ج ص2 10.

[149] علي: المفصل ج4 ص643

[150] سورة البقرة: الآية 233 ، سورة لقمان: الآية 14.

ويظهر أن الذين كانوا يسترضعون الأولاد هم الأغنياء القادرون على استئجار المراضع، وأن المراضع كن من المحتاجات وهذا امتياز لذوي الثراء والمال فالاسترضاع يعكس الحالة الاقتصادية وبالتالي الاجتماعية لأهل الطفل الرضيع، أضف إلى ذلك كون هذا فرصة لقضاء زمن الطفولة الأولى في البادية، واستنشاق الهواء النقي، والصحة الجيدة، والعروبة الخالصة.

وقد استرضع الرسول صلى الله عليه وسلم عند بني سعد حيث روي عن عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم أنه عندما اختار حليمة مرضعة لحفيده، سألها عن اسمها فأجابته حليمة، فسألها عن قومها، فقالت: بني سعد فاستبشر خيرا، وقال: بخ بخ سعد وحلم خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد[151].

وبالطبع كان الإرضاع من غير ثدي الأم خاصا بالذكر دون الأنثى، لما سمع من شدة غيرتهم على بناتهم، ولقد كان الأطفال الذين يسترضعون مع بعض بحكم الأخوة، لأن الإرضاع يخلق بين المرضع وأسرتها من جهة، والطفل الذي أرضعته وأسرته من جهة أخرى لحمة كلحمة النسب[152].

وتكون المرضع بمنزلة الأم الأصلية للرضيع، فيفخر الواحد منهم إذا كان الأخ الرضيع من طبقة اجتماعية عليا من السادات والأشراف[153]،وبالطبع كانت العرب تختار لأولادها الأسماء مثلها مثل سائر المجتمعات وقد كانت تسمية الأولاد عندهم مطبوعة بطابع حياتهم ومعاشهم، لذا اختلفت التسميات عند عرب البوادي (الأعراب) وعرب المدن والحواضر.

فالحياة في البادية خشنة جافة، قوامها الغزوالمستمر، وهويتطلب القوة والبأس والشجاعة وفيها يتمثل تنازع البقاء، في بيئة لايحيا فيها إلا الأقوياء فكان الأعرابي يحب لأبنه أن يكون في قوة حيوان شديد البطش فيختار له اسم أسد وليث ونمر وضرغام وذئب 000 أوفي صرامة طير كاسر فتسميه عقاب وصقر، أويسميه بأسم

---

[151] الحلبي: إنسان العيون ج1 ص97، الصمد: الصناعات والحرف ص317

[152] وافي ص64.

[153] حسن: حضارة ص142ـ 143.

نباتات الصحراء تلك التي فيها مرارة وأشواك كحنظلة وعوسجة وسمرة، يسمي ابنه بأسماء صفات فيها معنى الغلبة والقهر، والتيمن بالنصر كغالب وظالم وعارم وشداد وطارق إلى غير ذلك من صفات القوة والبأس الشديد، وقد يسمي ابنه بأسماء فيها معنى الكرم والعطاء والمروءة نحونوفل وعاصم وهاشم ونافع 000 فهذه الأسماء مستمدة من طبيعة حياتهم، وهي تعبر عن تفاوءلهم في أن يكون أبناؤهم على مثل مسميا تهم، قوة وشجاعة وفتكا وصبرا واحتمالا.

ومن الأعراب من إذا خرج وامرأته تمخض[154] فإنه يسمي ابنه باسم أول حيوان يلقاه نحو: ثعلب وضب وكلب وأفعى 00 أويسميه بأول ما يسمع من الطير نحوغراب وحمامة وغير ذلك. وفي تسمية العرب لأولادهم قال الجاحظ: " والعرب إنما كانت تسمي بكلب وحمار وجعل وحجر وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك.

وكان الرجل إذا ولد له ولد ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنسانا يقول حجرا سمى ابنه به، وتفاءل فيه الشدة والصلابة والصبر، وكذلك إن سمع إنسانا يقول ذئبا أورأى الذئب تأول فيه الفطنة والحب والمكر والكسب، وإن كان حمارا تأول فيه طول العمر والقوة والجلد، وتحمل الصعاب وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة، واليقظة وبعد الصوت، وغير ذلك [155] ".

أما عرب المدن فلم يكونوا أهل حرب، وإنما كانوا أهل تجارة وزراعة فكانوا يختارون لابنائهم أسماء صفات فيها تفاءل بنيل الحظ والسعادة والسلامة وطول العمر، وكثرة الخير نحوسعد ومسعود وسعيد وسلمان وعمر، وعامر وخالد وغانم وأيمن وغير ذلك من أسماء.

كذلك كانوا يسمونهم بأسماء فيها معنى الفاعلية والعزم كعاصم وحاطب وحارث 000 أويسمونهم بأسماء الفصول كالربيع أوبأسماء، الكواكب كنجم وبدر وسهيل، وكثيرا ما كانوا يسمون أبناءهم بعبدان ألهتهم أو مقدسا تهم كعبد العزى وعبد مناف وعبد يغوث وعبد الكعبة.

---

[154] تمخض من المخاض وهوألم الولادة (الطلق) لسان العرب مادة مخض.

[155] الجاحظ: الحيوان ج1 ص324.

ومع تقديسهم للأوثان والأصنام كانوا يؤمنون بالله ويسمون أولادهم عبد الله وعبد الرحمن.

أما البنات فكانوا يسمونهن بأسماء الزهر كوردة وزهرة وريحانة أوبأسماء فيها تيمن بالسعد كسعاد وسعدى وميمونة أوبأسماء فيها معنى الحسن أوذات جرس مستحب كليلى وسلمى وفاطمة وخديجة ولبابة وشيماء وميسون إلى غير ذلك من أسماء.

وكان من عادتهم أيضا تسمية الذكور بأسماء مؤنثة كأسامة وأسماء وأمية وثعلبة وخزيمة وربيعة وهند كما أن من عادتهم تسمية الإناث بأسماء مذكرة كعصام صاحبة المثل المشهور ما وراءك يا عصام[156].

وكان من عادة العرب استعمال صيغة التصغير في بعض التسميات كعبيد وسهيلة وعمير وعميرة وكليب وأميمة إلى غير ذلك، وكانوا يكنوا الولد وهوصغير كأبي لهب وأبي جهل 000 وكان للنساء كنى أيضا كأم أيمن وأم عمارة 000 وقد تتخذ الكنية أسما وتسمى بها البنت كأم حكيم بنت الحارث بن هشام. ولعلنا نجد أن التسميات والكنى والألقاب ترتبط بالعادات والتقاليد، وبطبيعة البيئة ونهج الحياة.

ولقد شاع التبني لديهم، فكان يجوز لأي شخص كان أن يتبنى ولدا، فيصبح للمتبني الحقوق الطبيعية الموروثة المعترف بها للأبناء، ويكون هذا فردا في العائلة التي تبنته، له حق الانتماء والانتساب إليها، وهويتم بالاتفاق والتراضي مع والد الطفل أوولي أمره، أوصاحبه ومالكه، وذلك بالنزول عن كل حق له فيه، ويجري ذلك على ملأ من الناس، ويشهد على نفسه بذلك[157].

---

[156] الميداني: مجمع الأمثال ج2 ص262

[157] دروزة: عصر النبي ص256، علي: المفصل ج5 ص559

ويكون المتبني بمنزلة الولد الصحيح في كل الحقوق كالزواج والحلف والموالاة والوراثة. ووقع التبني في حال وجود أولاد للرجل المتبنى، وليست له حدود من جهة العمر.[158]

رابعاً: الوراثة:

القاعدة العامة في الميراث عند العرب قبل الإسلام أنهم لا يورثون الجواري ولا الصغار من الغلمان ولا النساء، بل كان يرث كل من أطاق القتال أي يخصون بذلك المقاتلة دون الذرية [159] وكل من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل[160].

حسب هذه القاعدة كانت المرأة محرومة من حق الميراث وكذلك الصغار من الغلمان. ولكن من أين حصلت النساء على ما ملكن ؟ حتى لقد كان بينهن ثريات مشهورات الثروة، أمثال خديجة بنت خويلد[161]، وأسماء بنت مخرمة أم عبد الله بن أبي ربيعة[162].

قد يقال أنهن حصلن على المال عن هبة أووصية، ولكن التي تنال المال بهذه الطريقة، فالأجدر أن تناله بالميراث، قد يكون حرمان المرأة من الإرث ليس عاما، وإن كانت أكثريته عند قبائل الحجاز[163]، وقد أفتى عامر بن جشم بن حبيب الملقب ذي المجاسد بتوريث البنات عندما سئل فيه على أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين[164].

فنزلت الآية الكريمة تؤيد ما آفتي به قال تعالى: ((يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ))[165]. وقوله: ((لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

---

[158] علي: المفصل ج5 ص 559

[159] جامع الأصول ج 4 ص 275، جواد: المفصل ج5 ص562، دروزة عصر النبي ص227 – 278

[160] المحبر ص324، جامع الأصول ج4 ص275

[161] ابن هشام: السيرة ج1 ص199، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص280، الكامل في التاريخ ج2 ص39.

[162] الأغاني: ج1 ص64ـ 65

[163] علي: المفصل ج5 ص 563

[164] المحبر ص236ـ 324، جمهرة انساب العرب ص308، الحوفي: المرأة ص265

[165] سورة النساء: الآية11

وَالْأَقْرَبُونَ))[166].قال أن الآية الأخيرة نزلت في أم كحة فقد توفي زوجها فانتقل الميراث إلى أخيه.

فأتت النبي صلى الله عليه وسلم قائلة أن لي، بنتين، قد مات أبوهما وليس لهما شيء، فلولم تكن بعض النساء ترث لما أتت هذه المرأة شاكية ما حدث معها[167].

وفي كتاب الطبري نصا يقول: " كان جابر بن عبد الله الأنصاري ثم السلمي له ابنة عم عمياء، وكانت دميمة، وكانت قد ورثت عن أبيها مالا فكان جابر يرغب عن نكاحها، ولا ينكحها، رهبة أن يذهب الزوج بمالها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وكان ناس في حجورهن جوار أيضا، مثل ذلك، فجعل جابر يسأل النبي صلى الله عليه وسلم: أترث الجارية إذا كانت قبيحة عمياء ؟ فجعل النبي يقول نعم "[168].

ومما لا شك فيه أن هذه الامرأة ورثت في الجاهلية، والدليل على ذلك أن جابر عضلها ولم يتزوجها رهبة أن يذهب الزوج بمالها ومن ثم سؤال جابر أترث الجارية العمياء القبيحة ؟ دليل على أن مبعث الاستنكار أوالعجب من أنها لا ترث ليس لأنها أنثى بل لأنها عمياء وقبيحة.فالمرأة كانت ترث، ولكن بالمقابل كانوا يحرمونها من حقها في الإرث بغيا وعدوانا.

أم إرث الأب من البنت فإذا كانت متزوجة ولها أولاد، فإن زوجها وأولادها الراشدين هم الذين يرثونها، أما إذا كانت متوفاة الزوج فهي وما تملك ملك لوارث زوجها كا لاحظنا فيما سبق، وفي حالة كونها مطلقة وعائدة إلى ديار أهلها فإن أباها وارثها مبدئيا، إلا أن العادة أن يعطى أرثها لأولادها إذا كان لها أولاد ذكور[169].

---

[166] سورة النساء: الآية 7

[167] جامع البيان ج4 ص262، تفسير ابن كثير ج1 ص455

[168] جامع البيان ج5 ص300ـ301

[169] صباغ: المرأة ص245

أما أرث الذي يموت كلالة (أي بدون ولد ولا أبوين) فقد كان من الأمور المعقدة التابعة لقوة رجال العصبية، فقلما كان الأخوان خاصة ينلن نصيبهن الكامل منه[170].

فرجال العصبة وهم أقرباء الميت من الرجال مقدمون على الأخوات في الإرث، فإذا توفي الرجل، ولم يكن له من الذكور من يرثه، ولا أب يصرف أرثه إلى أخوته أوعصبته، فإن لم يكن له أخوة لا يدفع إلى الأخوات شيئا. وباعتبار أن شريعة الجاهليين قد اعترفت بالتبني فإن المتبنى له حق في الإرث، كما لوكانت البنوة طبيعية، وإذا مات المتبني وترك أرثا ورثة من تبناه.

وإذا مات الرقيق، وترك إرثا صار إرثه إلى مالكه وإذا مات المحق ورثه معتقه أوورثة معتقه[171] ولقد حرموا الهجين من حق الإرث في الغالب،وكذلك السائبة وهم الرقيق الذي اعتق بغير ولاء[172].

ولعلنا نجد إرثا للحميم فهل كان ذلك عندهم عند عدم وجود قريب نسب، أوأنه حق من حقوق أهل الجاهلية فرضوها بالنسبة إلى الحميم ؟ ربما كان ذلك عن وصية المورث، وإن كان ذلك لم يعمل به كأمر واجب التنفيذ ويترك ذلك تحت رحمة الظروف، وهوى الوارثين.

إذاً: الأسرة هي الوحدة الاجتماعية القائمة على الزواج، بعقد وبمهر معين يدفعه الزوج بعد إرضاء أولياء الفتاة وإرضائها في بعض الأحيان وهو ماسمي بزواج المهر أوالبعولة، اختلفت قيمة المهر باختلاف مكانة الفتاة الممهورة أوأسرتها، على أنه ذكر إلى جانب هذا النوع من الزواج أنواع أخرى متعددة أقرها المجتمع الجاهلي كزواج السبي والإماء والمتعة، والبدل والاستبضاع، والمخادنة والمقت والجمع بين

---

[170] دروزة: عصر النبي ص262.

[171] علي: المفصل ج5 ص567.

[172] علي: المفصل ج5 ص567، حسن: حضارة ص136.

الأختين. واعتبروا الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة بدون عقد ضربا من الزنى فلم يكن يمارسه إلا الإماء مقابل أجر(173).

لم يكن عدد الزوجات محددا، بل كان الجاهلي يعدد من الزوجات ما يشاء مدفوعا إلى ذلك بعوامل شتى قد تكون شخصيته، بحته، أوإنسانية أوسياسية أضف إلى ذلك تعدد الأزواج للمرأة الواحدة. ولم يجعلوا سنا معينا، ولم يضعوا لفارق السن أي اعتبار.

وكان الطلاق بالنسبة إليهم سهل يسير كعقد الزواج أوأكثر سهولة وعلى أنواع يستعمله الرجل متى شاء لأي سبب أوحتى بدون سبب، وكان العرف يقضي بأن الرجل إذا طلق زوجته طلقة واحدة كان أحق بها، أما إذا استوفى الثلاث طلقات انقطع السبيل عنها، فالطلاق ثلاثا معناه الفرقة التامة بين الزوجين.

على أن هنالك من النسوة من كن يشترطن عند الزواج أن يكون لهن الحق في الطلاق إذا أردن فتخلع المرأة في هذه الحالة نفسها من زوجها، بأن تغير باب خبائها، أولم تعد تصنع له طعاما إذا كانت من أهل الحضر.

وكانوا يفضلون البنين على البنات، لذا فقد كان الإرث من حق الرجل فقط وحرمت منه المرأة والأولاد الصغار والجواري والبنات، ولكن حرمان المرأة من الميراث لم يكن عاما، بل إن البعض أعطى لبعض النساء الحق في الإرث، ولقد اهتموا بالحمل والإرضاع، واعتبروا أن غاية الزواج النسل، وسموا أولادهم بأسماء تعكس الحالة الطبيعية التي كانوا يعيشون فيها فاختلفت أسماء سكان الحواضر عن أسماء سكان البوادي.

---

(173) علي: المفصل ج5 ص553.

الفصل الخامس

المناسبات

المناسبات

المناسبات عند العرب قبل الإسلام من الموضوعات الهامة، لما لها من علاقة بالحياة الاجتماعية، فهناك مناسبات عامة وخاصة، مفرحة ومحزنة، أي أن هناك أفراحا وأ تراحا، شأنهم شأن بقية الشعوب.

فمن الأفراح: الأعياد والمواسم كالخطبة والزواج والحج والختان، وحفلات السمر، وشرب الخمر، والانتصار، في الحرب، والعودة من السفر، ونبوغ شاعر وشفاء من مرض إلى ما هنالك من مناسبات مفرحة، ومن الأحزان: موت أحد الأفراد، وولادة أنثى 000

وبما أن العرب كانوا في جاهليتهم قبائل وشيعا، فقد صارت المناسبات عندهم كثيرة، غير متفقة في زمان أومكان، وغالبا ما ارتبطت بالأصنام، وبالمواسم التجارية التي تتفق وانعقاد الأسواق، وحيث أن الموضوع يتعلق بالحجاز فسأورد ما يتعلق بهذه المنطقة من أفراح وأحزان.

أولا: الأفراح:

1ـ الحج:

اتصلت نهضة مكة بقيام الكعبة فيها، فاهتم أهلها بالبيت الحرام وعظموه، لأن الحج إليه كان السبب الرئيسي في قيام هذه المدينة وتقدمها إضافة إلى أن موقع مكة كان عاملا قويا في ارتفاع شأن البيت الحرام نفسه.

فللحج تقاليد لها علاقة، وأثر كبير في حياة العرب الاجتماعية وكان شاملا للعرب جميعهم على اختلاف عقائدهم وبيئاتهم، وكان وسيلة من وسائلهم الاجتماعية، حيث وفدوا إلى مكة لزيارة البيت الحرام من كل حدب وصوب، وفي

ذلك مظهر قوي من المظاهر الاجتماعية لأنه تلاقي في ظروف أمن وسلام، فعملت قريش على الإفادة من مكانة الحرم لتقوية مركزها الأدبي لدى القبائل العربية.

ولتنشيط تجارتها الداخلية، فأجرت ترتيبات تكفل لها ذلك، كالسقاية[1] لأن مكة حارة شحيحة المياه، وإذا لم تتوفر المياه فيها، عزف الحاج عن القدوم إليها وفي القرآن الكريم ذكر لذلك قال تعالى:"((أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ))[2]

وصنعت قريش الطعام للحجاج، فالمؤاكلة من أكبر المحامد في المجتمع العربي وبمثابة عقد جوار، فقام أهل مكة بخدمة الوافدين ضيوف البيت، وهوأمر هام في بيئة فقيرة كبيئة الصحراء وكان كثير من الحجاج يقدم من بلاد بعيدة، ويكابد سفرا طويلا يصعب معه حمل الزاد، وقد حافظت قريش على هذه الوظيفة، ووكلتها إلى البطون الثرية القادرة عليها إذ أن صاحب الرفادة يتحمل جزءاً من ماله الخاص، لذلك كان يعهد بها إلى الرجال الأغنياء[3]،وقد تولى قصي وظيفة الرفادة بنفسه وتولاها فيما بعد هاشم بن عبد مناف، والمطلب بن عبد مناف، وعبد المطلب والعباس بن عبد المطلب وكلهم من تجار وأثرياء قريش[4]،وأخذت القبائل أثناء ذلك هدنة، فلم تعد ترى غدرا أواعتداء، أوحربا، حتى أن الأمن شمل كل شيء الوحش والطير والنبات.

فالحج أروع ظاهرة في شعائرهم الدينية القديمة وهي:

كلمة جد قديمة على انه من الممكن أن يكون العمل بمعناها قد جاراها في القدم. ولوحاولنا أن نأخذ بقول الرواة الذين تحدثوا عن مكة والبيت الحرام ومجيء

---

[1]: حياض من أدم كانت على عهد قصي توضع بفناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل ويسقاه الحاج، أخبار مكة ج1 ص110.

[2]: سورة التوبة: الآية 19

[3]: ابن هشام: السيرة ج1 ص143

[4]: ابن هشام: السيرة ج1 ص143 وما بعد، أخبار مكة ج1 ص110 ـ 111 وما بعد.

إبراهيم لكانت عادة الحج قد سبقت تكون اللغة العربية على ماهي معروفة عليه في الجاهلية[5]. والحج النية والقصد إلى مكة للنسك والحج إلى البيت خاصة[6].

تقول حججت فلانا إذا أتيته مرة بعد مرة فقيل حج البيت لأنهم يأتونه كل سنة ثم تعورف على استعماله في قصد مكة للنسك.ومن المحتمل ان يكون الحج قد ابتدأ منذ عهد إبراهيم وإسماعيل اللذان قاما ببناء البيت الحرام[7]، كما تداولوا خبر حرمته منذ بنائه قال تعالى:

((إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ))(8). وقوله تعالى: ((وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ))[9].

فالحج مظهر اجتماعي اقتصادي، اجتماعي لتقاطر الناس كما أسلفنا القول من كل الأنحاء إلى مكة، فيتعارفون وتشتد أواصر الصداقة والقربى بينهم واقتصادي حيث تعقد فيه الأسواق للتجارة، ولتبادل المصالح والسلع وغير ذلك.

لقد أسهمت مواسم الحج الدينية التي كانت في واقعها العملي مواسم تجارية كما كانت في الوقت نفسه مواسم لإنشاد الشعر ولا سيما في سوق عكاظ[10]، حيث كان الناس يتبايعون ويتعاكظون أي يتفاخرون، ويتحاجون وتنشد الشعراء ما تجدد لهم [11]، أسهمت في تنشيط الصناعة والتجارة، وساعدت في صهر اللهجات وتوحدها في لهجة مشتركة متميزة عن غيرها بكونها لغة التعبير الفني والتعامل المشترك بين مختلف القبائل أثناء الاحتشادات الموسمية التجارية

---

[5]: الميثولوجيا ص 146.

[6]: لسان العرب مادة حجج، تاج العروس مادة حجج.

[7]: أخبار مكة ج1 ص66.

[8] سورة آل عمران: الآية 96ـ97، جامع الأصول ج4ص7وما بعد..

[9]: سورة الحج: الآية 27.

[10]: الأغاني ج11ص6، أسواق ص315، علي: المفصل ج7ص382، هبو: تاريخ العرب ص325.

[11]: تاج العروس مادة عكظ.

والدينية والأدبية، وساعدت في عملية تفكك الوثنية، ومهدت لظهور الاسلام الذي وحد فيما بعد العرب تحت لوائه.

ولهذا اصبح الحج اكبر تظاهرة اجتماعية عربية في تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام، وفي حقبة الجاهلية الأخيرة خاصة.ومن الممكن ان يكون الحج أيضا إلى بيوت العبادة الاخرى مثل اللات في الطائف[12].. غير ان الحج إلى كعبة مكة اخذ أهمية خاصة لدى مختلف القبائل بسبب مركزة الأصنام فيها وتنظيم شؤون الحاج إليها، وقيام الأسواق التجارية والأدبية في مكة وما حولها.

وللحج تقاليد وشعائر تجذرت مع مرور الزمن، وانتقلت معظمها إلى الاسلام، مع إجراء بعض التغييرات اوالتعديلات لتتلاءم مع مبادئه وتعاليمه. تتلخص الشعائر الدينية للحج في " تعظيم البيت، والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة [13]".ولعلهم كانوا يزورون الكعبة زيارتين رسميتين زيارة حج وزيارة عمرة.

فالعمرة زيارة الكعبة في غير موسم الحج وهي الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، والفرق بين الحج والعمرة ان العمرة تكون للإنسان في السنة كلها، والحج في وقت واحد في السنة والحج لا يكون إلا مع الوقوف بعرفة يوم عرفة[14] فموقف عرفة من الحج وليس من العمرة. وقد ورد ذكر العمرة في القرآن الكريم قال تعالى:" **وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ** "......(15).

وكان العرب قبل الاسلام يؤدون العمرة في رجب [16] ثم يطوفون بين الصفا والمروة ولسبعة أشواط، حيث وجد على الصفا والمروة صنما اساف ونائلة، وهما على

---

[12]: ابن الكلبي: الأصنام ص16.

[13]: ابن الكلبي: الأصنام ص9

[14]: لسان العرب مادة عمر.

[15]: سورة البقرة: الآية 196.

[16] الميثولوجيا ص 156.

صورة رجل وامرأة قيل انهما مسخا حجرين لفجورهما بالكعبة، وكان أحدهما ملاصقا للكعبة، والأخر عند بئر زمزم[17]، وقد عبدتهما قريش وخزاعة[18].

ولعلنا نجد ان حادثة المسخ أسطورة موضوعة، ومنها يستدل أن المضاجعة في المعبد كانت جارية، وان أسطورة المسخ قد وضعت بعد زوال هذه العادة واستهجانها، لان العادات تتبدل بتبدل الأخلاق، وقد تكون تلك العادة آلت مع تطور الفكر الديني إلى التعري في الطواف حول الكعبة، وكان هذا نوعا من التحمس في العبادة، ولذلك كانت قريش تدعى عند العرب بالحمس[19]. ولعلهم أحاطوا ذلك بإطار ديني، وارجعوا الطواف إلى هاجر أوإبراهيم خليل الرحمن، ثم اصبح شعيرة من شعائر الحج ، وجاءت الآية الكريمة بقوله تعالى:" **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت واعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم**"[20].

ولكن لربما كان ذلك عادة من عاداتهم الاجتماعية فيجتمعون عند الصنم، أوالحجر المؤله معبرين عن فرحتهم باللقاء الديني الاجتماعي. بعد ذلك تأتي التلبية، والوقوف بعرفة وقد كان العرب قبل الاسلام يلبون لآلهتهم تلبيات مختلفة فكانت تلبية قريش:

لبيك اللهم لبيك لا شريك لك تملكه وما ملك،

وكانت تلبية كنانة

لبيك اللهم لبيك اليوم يوم التعريف يوم الدعاء والوقوف،

وكانت تلبية أسد:

لبيك اللهم لبيك يارب أقبلت بنوأسد أهل التواني والوفاء والجلد إليك[21]

---

[17]: ابن الكلبي: الأصنام ص 9 -29، ابن هشام: السيرة ج1 ص84. أخبار مكة ج1 ص119، البداية والنهاية ج2، ص 185 ـ 191، سعد زغلول ص 351

[18]:ابن الكلبي: الأصنام ص29، لسان العرب مادة أسف.

[19]: انظر الفصل الأول – الوضع الديني.

[20] سورة البقرة الآية 158

[21]: اليعقوبي: تاريخ ج1 ص 296.

وكانت تلبية نزار:

لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك إلا شريك هولك ما تملكه وما ملك.

وكانت تلبية عك إذا خرجوا حجاجا قدموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم فكانا أمام ركبهم فيقولون:

نحن غرابا عك فتقول عك من بعدهما عك إليك عانية، عبادك اليمانية كيما نحج الثانية[22].

وقد احتفظ الاسلام بالتلبية الجاهلية بعد ان عدل في صيغتها بما يتلاءم وعقيدة التوحيد فصارت على النحوالتالي:

" **لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك** "[23].

ومن تقاليد الحج ومراسمه الوقوف بعرفة [24]، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجة من الظهر إلى وقت الغروب [25].

ومن عرفة تكون الإجازة للإفاضة إلى المزدلفة[26]، أي السماح بمغادرة المكان إلى مكان آخر، وقد روي ان الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجيج صوفة وهم حي من مضر في رواية، أومن بني سعد بن زيد مناة في رواية أخرى، وكانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج أي يفيضون بهم[37].

فإذا كان يوم النفر أتوا لرمي الجمار[28]، وتذبح الذبائح كقرابين للآلهة، وكانت العرب قبل الاسلام تقلد الذبائح بقلادة، أوبنعلين يعلقان على رقبة الهدي لتنبيه الناس إلى أنه هدي فلا يجوز الاعتداء عليه، كما كانوا يشعرونه، والأشعار

---

[22]: اليعقوبي: تاريخ: ج1ص296.

[23]: ابن الكلبي: الأصنام ص 7.

[24]: صحيح البخاري ج2 ص561

[25]: قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة ياقوت معجم البلدان مادة عرفات.

[26]: دلوج2 ص283

[37]: اختلف في سبب تسميتها المزدلفة أحد الأقوال الأزدلاف الاجتماع، ياقوت: معجم البلدان مادة المزدلفة.

[28]: ابن هشام ج1 ص125ـ 126

الإعلام، فيعمدون إلى جرح البدن جرحا خفيفا في سنامها حتى يظهر الدم، ويعرف انه هدي، فأطلق على هذه الذبائح اسم العتائر[29]، وفي القرآن الكريم إشارة إلى الهدي المقلد أوالمجروح في بعض آياته[30]، على أنه من شعائر الله، ومن واجبات الحاج، وأن له أهمية عظيمة لما فيه من إقامة أود الناس ولا سيما الفقراء والمساكين والبائسين، وقد أرجعوا ذبح القرابين إلى إبراهيم الذي امتحن بذبح ولده إسماعيل قربانا لله، ففداه الله بذبح عظيم قال تعالى:"**وفديناه بذبح عظيم**"(31).

وبعد ذلك يحلق الحاج شعره إيذانا بانتهاء مناسك الحج، والتحلل من الإحرام، ولا يكون هذا إلا بعد تقديم القرابين حيث لا يرى الحجاج تماما لحجهم إلا بتقصير شعورهم، وقد كانت الاوس والخزرج، ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا إلى صنم مناة حلقوا رؤوسهم، وأقاموا عنده، لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك[32].

وبعد أن يقضي الحجاج مناسكهم، يعقدون المجالس في منى ليتناشدوا الأشعار، وليعددوا مفاخر الأباء والأجداد [33].

فالحج مناسبة من المناسبات الاجتماعية، يتم فيها اجتماع العرب من كافة الإنحاء، يتبادلون أواصر الصداقة والمودة ويشعرون بالأمن والمساواة والطمأنينة، أضف إلى ذلك أن ذبح الذبائح عبارة عن تكافل اجتماعي، فللفقراء نصيب من أموال الأغنياء، وانعقاد المجالس بعد انتهاء مناسك الحج وتناشد الأشعار، وتعداد المفاخر كما سبق ذكره، دليل واضح على أن الحج مظهر ديني واجتماعي فكري،

---

[29] شاة كانوا يذبحونها لألهتهم في رجب: لسان العرب مادة عتر، وقد ميز جواد علي بين العتيرة التي تذبح في رجب وبين الضحية التي تذبح في الحج وسماها الهدي، علي: تاريخ العرب ج5 ص208

[30]: سورة البقرة: الآية 196، سورة المائدة الآية 2ـ 97، سورة الحج الآية 28 – 36.

[31] سورة الصافات: الآية 107.

[32]: ابن الكلبي: الأصنام ص14، الميثولوجيا ص155 ، صباغ: المرأة ص429

[33]: دروزة: عصر النبي ص327.

ولتنس الفئات الفقيرة التمايز الاجتماعي الذي تعاني منه ضمن قبيلتها في غير موسم الحج.

2ـ الأسواق:

أقام العرب أسواقا يتبايعون فيها ويشترون، وقد كانت عندهم إما دائمة واما موسمية مؤقتة، تعقد في شهر معين من السنة، ومنها ما هومحلي أقيم في قلب المدن لتلبية حاجات أهل المدن أنفسهم، والمناطق المجاورة من بدووحضر، ومنها ماكان يعقد في مكان إقامة قبيلة واحدة أوعدة قبائل.

أما الأسواق الموسمية، فقد كانت عامة يقصدها الناس من شتى أنحاء الجزيرة للبيع والشراء، وكانت تقام في أماكن معروفة وتمتعت بموقع جغرافي توفرت فيه صفات مرغوبة من حيث توفير الماء أوالقرب من المدن العامة، أومن البحر لتسهيل عملية الاتجار، وليتمكن التجار الأجانب من الوصول إليها، وقد كانت هذه الأسواق فرصة عظيمة لالتقاء الناس لفض منازعاتهم القبلية من دفع ديات، وفك أسر، وعقد حلف وجوار، أوخلع سفيه، أوثأر من قاتل 0000الخ، وارتادها أناس لم يكن يهمهم البيع والشراء، بل قصدوها للاتصال بالقبائل العربية الممثلة هناك بأعداد وفيرة، و بزعمائها ذوي الرأي والنفوذ، فحاولوا التأثير على بعض الأفراد، وكان يرتادها بعضهم كما قلنا بغية العثور على قاتل أبيه الفار، فيتربص به حتى تنفض السوق، أويخرج القاتل الهارب منها.

ولذا تلثم فرسان العرب بلثام حتى لا ينكشف أمرهم وحتى لا يتعرف عليه ذووالثارات فلا يكون لفرسان عدوهم هم غيرهم [34]، فيقال أن أول عربي كشف قناعه ظريف بن غنم العنبري، ففعلت العرب مثل فعله[35].

كان لإقامة الأسواق عند العرب أهداف اجتماعية وأدبية واقتصادية فاحتكاك القبائل بعضها ببعض في هذه الأسواق يخلق التقارب بينها، ويخفف من عداوتها، أضف إلى ذلك أنه اعتبر السوق عندهم موسما أدبيا ينشد فيه الشعراء ما جادت به

---

(34): المحبر ص232، الجاحظ: البيان والتبين ج3 ص101 حاشية، أسواق ص302 وما بعد.

(35): اليعقوبي تاريخ ج1 ص315، حسن: حضارة ص95

قرائحهم، ويطرح التجار فيه أيضا بضائعهم بهدف البيع والشراء وتحقيق الأرباح. وقد كانت عكاظ سوقا معروفا للعرب بل من أعظم أسواقهم ومواسمهم، وهو(نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال)[36].

يقوم في ذي القعدة، ويستمر عشرين يوما[37]، وهومن الأسواق المشهورة في الحجاز، اجتمعت فيه صفات أسواق العرب كلها، وتحققت فيه الغايات التي كانت العرب تنشدها.

سوق اجتماع وتجارة وسياسة وأدب. وفدت إليه " قريش وسائر العرب إلا أن أكثرها من مضر"[38]فولد احتكاكهم ببعض تحضرا ونموا اجتماعيا وازدهارا اقتصاديا لأن العرب كانوا يجتمعون فيه كل سنة يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون[39].

كان سوقا للتجارة، لأن التجارة فيه رائجة، والبضاعة تعرض من مختلف الأنواع والمصادر، وسوقا معروفا لبيع الرقيق، وسوقا سياسية، واجتماعية لالتقاء رجال القبائل بعضهم ببعض لقضاء أمور كثيرة من عقد حلف وإعلان جوار، وحرب، أوتحصيل إتاوة،أوخلع سفيه أوإلحاق أحد بنسبه وسوقا أدبية حيث تعرض فيه الأشعار، وآخر ما توصل إليه الشعراء من أدب ومنظومات شعرية، ومعلقات في أنديتهم فيتفق الكثيرون على أحدث ما نظم من الشعر، وللسوق محكمون ضربت لهم القباب، كما جرت العادة الاجتماعية، كالنابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة من أدم، فيجلس لسماع من يريد أن يفتخر بشعره على غيره، ثم يدلي برأيه الفاصل، وكان الشاعران الأعشى وحسان بن ثابت ممن احتكم إليه، وكذلك الشاعرة الخنساء [40]،وقد سمي المكان الذي يجتمعون فيه الابتداء، وكان يفد إليه قريش وهوازن وسليم والأحابيش والمصطلق، وطوائف من العرب،فمن كان له

---

(36): ياقوت مادة عكاظ، تاج العروس مادة عكظ، أسواق ص286، علي: المفصل ج7 ص378.

(37): تاج العروس مادة عكظ.

(38): اليعقوبي: تاريخ ج 1ص314

(39): ياقوت مادة عكاظ، لسان العرب مادة عكظ، تاج العروس مادة عكظ.

(40): الأغاني ج11 ص6، أسواق ص315، علي: المفصل ج7 ص382، هبو: تاريخ العرب ص325.

أسير سعى كما قلنا في افتدائه، ومن كانت له حاجة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة في هذه السوق أناس من بني تميم، وكان أحدهم الأقرع بن حابس [41].وعكاظ وما جاورها ديار قيس عيلان عامة، وثقيف وهوازن [42]أما تاريخ افتتاحها أوبالأحرى إقامتها فعلى الرغم من إرجاع ذلك إلى ما بعد عام الفيل بخمسة عشر عاما[43]، فالجدير بالذكر أن هناك أحداثا وقعت قبل هذا التاريخ فالشاعر عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته المعلقة في عكاظ[44]. وقد عاش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، وتوفي **584**م[45] مما يدل دلالة واضحة على أن تاريخ وجودها يرجع إلى قبل هذا القرن.

وبعد انفضاض سوق عكاظ كانت تقام سوق مجنة التي تقع قرب مكة في أرض كنانة مدة العشرة أيام الأخيرة من ذي القعدة [46].

ثم يرتحلون إلى المجاز في الأيام الأولى من ذي الحجة حتى الثامن منه[47].وهذه السوق تلي سوق عكاظ في الأهمية، وهي من أسواق العرب الكبرى وهي لهذيل على يمين الموقف من عرفة قريبة من كبكب على فرسخ من عرفة[48]. فعكاظ ومجنة وذوالمجاز أسواق كانوا يتجرون بها في الجاهلية أيام المواسم.

---

[41]: صبح الأعشى ج1 ص 410، وما بعد، أسواق ص291، هبو: تاريخ العرب ص326 ، شلبي: المجتمع العربي قبل الإسلام ص92

[42]: أخبار مكة ج1 ص190، شفاء الغرام ص283، أسواق ص288، شعراء النصرانية ص212 هبو: تاريخ العرب ص326.

[43]: الرافعي (مصطفى صادق) تاريخ آداب العرب مطبعة الأخبار بمصر 1329 ه، 1911 م ج1 ص85 يختصر إلى رافعي: تاريخ آداب العرب، أسواق ص342 حاشية على خلاف في تاريخ إقامتها، علي: المفصل ج7 ص380 الفيل 570 + 15 = 585

[44]: الأغاني ج11 ص54

[45]: المرزباني: معجم الشعراء ص202، الزركلي: الإعلام ج5 ص256

[46]: أخبار مكة ج1ص188 -190، ياقوت مادة مجنة، أسواق ص 345،هبو: تاريخ العرب ص 323.

[47] أخبار مكة ج1 ص188، المحبر ص267، هبو: تاريخ العرب ص323

[48]: أخبار مكة ج1 ص190، ياقوت مادة مجاز، أسواق ص347، وكبكب جبل خلف عرفات ياقوت مادة كبكب.

وكادت أن تكون قسما من أعمال الحج ذاته، حتى أن قريشا وغيرها من العرب تقول: لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز إلا محرمين بالحج، وكانوا يعظمون أن يأتوا شيئا من المحارم أويعدوبعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم[49].

أثرت هذه الأسواق تأثيرا بعيدا في جميع الميادين، وكانت أساسا لإقامة علاقات إنسانية تحفظ حقوق الإنسان في إطار حيا ة القرن السادس الميلادي،

وكانت تدور حول إصلاح المجتمع،

على أن هناك أسواقا محلية، ولكن ليس لها الشهرة نفسها،كسوق بدر قرب يثرب [50]، وسوق زبالة، وسوق الجسر، وسوق الصفا صف ومزاحم في يثرب أيضا[51].

3ـ الأعياد:

العيد أسم يجمع أمورا كثيرة منها كل يوم فيه جمع اشتقاقه من العادة لأنهم اعتاد وه.والعيد عند العرب الوقت الذي يعود فيه الفرح بعد الحزن قال ابن الأعرابي: **سمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد ولأنهم قد اعتاد وه**[52].أي أن العيد اجتماع يجتمع فيه الناس ليقوموا بأعمال معينة[53]. وعبادات مختلفة فكيف كان العرب قبل الإسلام في الحجاز يستقبلون أعيادهم ؟بالطبع اختلفت مراسم الأعياد من فئة إلى أخرى قال تعالى: " **ولكل أمة جعلنا منسكا** "00[54].

فقريش مثلا: اجتمعت يوما في عيد صنم كانوا يعظمونه، وينحرون له، ويعكفون له، ويدينون به، وكان ذلك عيد لهم في كل سنة[55].

---

(49): أخبار مكة ج1 ص192

(50) الصفة ص 332

(51) سمهودي ج2 ص 747

(52): ابن زكريا: معجم مقاييس اللغة مادة عود، لسان العرب مادة عود، تاج العروس مادة عود.

(53) آلوسي ج1 ص344، حسن:حضارة ص153

(54) سورة الحج: الآية 34ـ67 تفسير ابن كثير ج3 ص 222ـ234

(55): الوسي ج1 ص346، شلبي: المجتمع العربي قبل الإسلام ص53

وبما أن لكل حاضرة صنما تعظمه كاللات لأهل الطائف والعزى لأهل مكة ومناة لأهل المدينة، فقد وجدت مواسم معينة من السنة مخصوصة للاجتماع في هذه الأماكن، يقصدونها من كل فج عميق، ويطوفون بها وينحرون عندها، وكان لها سدنة وحجاب(56).

والأعياد منها زمانية، وكان ذلك لقوم دون قوم، وقبيلة دون أخرى، وهي أيام مسراتهم وأفراحهم بظفرهم على عدوهم ونصرتهم على خصومهم، ومحاربيهم، فهناك عيد معروف بالحجاز أطلق عليه يوم السباسب، وقد ورد في الحديث: أن الله أبد لكم يوم السباسب يوم العيد(57).وقد ذكره النابغة بقوله(58):

رقـــاق النعـــال طيـــب حجـــراتهم   يحيـــون بالريحـــان يـــوم السباســـب

وذكر أنه كان لأهل يثرب يومان يعبدون فيهما، يلعبون ويستأنسون هما النيروز والمهرجان، فلما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة أبدلهما بيوم الفطر والأضحى(59). وقد صمتت الأخبار عن الكيفية التي كان أهل المدينة يحتفلون بها بهذين العيدين.

والعادة أن يتزين المرء في أيام الأعياد بأحسن الثياب والملابس الفاخرة، والحلل المثمنة، والبرود ويلعب الصبيان جميع أنواع الملاعب، منهم من يغني ومنهم من يزمر بالدفوف والمزاهر، ومنهم من يقول الأراجيز، ومنهم من ينشد الشعر 000

وذلك كي تكسب الأيام بهجتها وروعتها، وقد برع في الغناء نساء ورجال واستخدموا الحبش للضرب على الدف والغناء في أيام الأعياد(60).

---

(56): ابن الكلبي: الأصنام ص13 ـ 16 ـ 27

(57): لسان العرب مادة سبسب: تاج العروس مادة سبسب، علي: المفصل ج5 ص102

(58): البستاني (كرم) ديوان النابغة الذبياني، دار صادر، دار بيروت 1383 ه، 1963 م ص12 يختصر إلى ديوان النابغة، لسان العرب مادة سبسب، تاج العروس مادة سبسب، الوسي ج 1 ص348، حسن: حضارة ص154، والحجرة موضع التكة من السراويل. ديوان النابغة ص12 حاشية.

(59): صبح الأعشى ج2 ص416 وما بعد، الوسي ج1 ص364، علي: المفصل ج5 ص101

(60): نهاية الأرب ج4 ص138ـ 148 وما بعد، علي: المفصل ج5 ص105

ولقد تغنى فتيانهم الحداة في رعي ابلهم، وفي فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات، وترنحوا واستمروا على هذه الحال في بداوتهم وجاهليتهم قال ابن خلدون: " وكانت البداوة أغلب نحلهم، ثم تغنى الحداة منهم في حداء ابلهم، والفتيات في قضاء خلواتهم،فرجعوا الأصوات، وترنموا وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء وإذا كان بالتهليل أونوع القراءة تعبيرا 000

وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار000 ولا بد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم، شأن البسائط كلها في الصنائع، ولم يزل هذا شأن العرب في حياتهم كلها[61].

وكانت يثرب ــ المدينة أحد مواطن الغناء الرئيسية في الجاهلية العربية، فأهلها أهل طرب وكانوا يحبون الغناء [62].وكان الغناء منتشرا أيضا في مكة وخاصة في فترة الجاهلية الأخيرة،وكان يمارسه الحرائر من نساء قريش والقيان الأجنبيات واستمر ذلك إلى بعد الإسلام فهند بنت عتبة ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف في غزوة أحد[63]. ولعلنا نجد أن القيان كن حجر الزاوية في إحياء الحفلات وقد امتلك عبد الله بن جدعان أحد أثرياء ونخاسي مكة قينتين عرفتا بجرادتي عاد تشبها بجرادتي معاوية أمير العمالقة، وهبهما إلى أمية بن أبي الصلت[64]. وجاراهم أهل المدينة في ذلك ففي إحدى المرات أمروا أحد القيان أن تغني النابغة بشعر فظهر فيه إقواء [65].وعلى ما يظهر أن امتلاك القيان ووجودهن في بيوت الترف والعز مظهر من المظاهر الاجتماعية آنذاك، ولقد كان لعائشة جاريتان تغنيان بغناء يوم بعاث[66].

---

[61]: ابن خلدون: المقدمة ص427

[62]: نهاية الأرب ج4 ص139، علي: المفصل ج5 ص105.

[63]: ابن هشام:السيرة ج3 ص72، تاريخ الرسل والملوك ج2 ص512 والكامل في التاريخ ج2 ص153.

[64]: الأغاني ج8 ص324، لسان العرب مادة جرد، تاج العروس مادة جرد.

[65]: الأغاني ج11 ص10، الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي ص447

[66]: سنن ابن ماجة ص326، لسان العرب مادة غنا، علي المفصل ج5 ص118

ومن المألوف أن يرافق الطرب الرقص، فهي غريزة في طباع الناس عامة وهولا يحتاج إلى حضارة ومدينة، بل هوحركات جسمية يعبر بها الراقص عن نزعاته وخلجات نفسه بالتصفيق والضجيج والصياح وضرب الأرجل، وقد كان الرقص تعبيرا طبيعيا عن الفرح كما كان أيضا تعبيرا عن العبادة والشكر للإله.

ولم يبق الغناء الجاهلي بسيطا محافظا على تقاليده وموازينه البدائية إنما تطور مع تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وأدخلت إليه عناصر وتقنيات وموازين جديدة، أدت إلى تكوين شكل جديد من الحداء أكثر تحسينا واتقانا هوالنصب والسناد والهزج، فالنصب غناء الركبان والفتيان و هوالذي يستعمل في المراثي. وكله يخرج من أصل الطويل في العروض، وأما السناد فالثقيل ذوالترجيع الكثير النغمات والنبرات، وأما الهزج فالخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم[67]. وقد كان هذا غناء العرب حتى جاء الإسلام.

من الطبيعي أن يقترن الغناء بالشعر، فعندما نقرا أية مقطوعة شعرية قديمة، نشعر بتلك النغمة التي تنطلق منها حتى أن تلبيتهم أثناء الحج لها نغمة موسيقية معينة، فاستخدموا الغناء في عباداتهم تعبيرا عن بهجتهم وسرورهم بتعبدهم للآلهة وتقربا إليها بهذا الغناء الذي يدخل السرور إلى نفوسهم، فكانوا يطوفون بالبيت يصفرون ويصفقون لأن الحج عندهم عيد ففي أثناء الإفاضة، إلى منى كان الحجاج ينشدون مقطوعات حفظت لنا واحدة منها هي: " أشرق ثبيركيما نفير "[68].

وقد أفضى تطور التشكيلات الاجتماعية إلى ظهور مغنين محترفين أمثال النضر بن الحارث من الحجاز قال المسعودي: " قدم النضر بن الحارث بن كلدة من العراق وافدا على كسرى بالحيرة فتعلم ضرب العود والغناء عليه، فقدم مكة، فعلم أهلها فاتخذوا القينات[69] ".

---

[67]: ابن رشيق: العمدة ج 2 ص 241، حسن: حضارة ص160، الصمد: الصناعات والحرف ص334.

[68]: ياقوت: معجم البلدان مادة ثبير. وثبير جبل بمكة.

[69] مروج الذهب ج4،ص134

4 ـ نبوغ شاعر:

كانت العرب تقيم الشعر مقام الحكمة وكثير العلم، فإذا كان في القبيلة الشاعر الماهر المصيب المعاني المنتقي الكلام أحضروه في أسواقهم التي كانت تقوم لهم في السنة، ومواسمهم عند حجهم البيت حتى تقف وتجتمع القبائل والعشائر فتسمع شعره، ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم وشرفاً من شرفهم ولم يكن لهم شيء يرجعون إليه في أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر فيه كانوا يختصمون وبه يتمثلون وبه يتفاضلون وبه يتقاسمون وبه يتناضلون وبه يمدحون ويعابون "[70].

فمن الطبيعي أن يحتفل العرب بنبوغ شاعر في القبيلة حيث تُقبل القبائل الأخرى لتهنئتها وتصنع في هذه المناسبة المفرحة الأطعمة ويجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أجسادهم لاحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أوشاعر ينبغ فيهم أوفرس تنتج[71].

فالشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج[72] وقد نبغ الكثير من الشعراء كأمية بن الصلت من ثقيف[73]. وقيس بن الخطيم[74] وحسان بن ثابت شاعر الخزرج، وكان أشعر أهل يثرب[75].فهل كان الشعر صنعته ؟ بالطبع كان الشعر أدبا وفكاهة ومرؤة ومكافأة وشكراً وثناءً[76].وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أن من البيان لسحرا وأن من الشعر لحكما[77].

---

[70]:اليعقوبي:تاريخ ج1 ص304

[71]: ابن رشيق: العمدة ج1 ص37، آلوسي ج3 ص84، شريف ص26، حسن: حضارة ص159 علي: المفصل ج9 ص110 –111.

[72] البيازوالتبين ج3 ص399، ابن رشيق: العمدة ج1 ص50

[73]: الأغاني ج4 ص122، التبريزي: ديوان الحماسة ج1 ص314، علي: المفصل ج9 ص752

[74]: الأصمعيات ص 226، علي: المفصل ج9 ص724.

[75]: الأغاني ج4 ص134 علي: المفصل ج9 ص729.

[76]: ابن رشيق: العمدة ج1 ص12 - 49

[77]: العقد الفريد ج6 ص123، ابن رشيق: العمدة ج1 ص9 وعلي: المفصل ج9 ص64،

وللشعر أثر خطير في نفوس العرب، كان يهز عواطفهم هزا، وكان يفعل فيهم فعل السحر، فهوسلاح ماض عند العرب والشاعر لسان القبيلة والشعر ديوان العرب[78].

ولعل الشعراء كانوا يرون أنفسهم فوق الناس في الفطنة والفهم، وأن الناس كانوا يرون هذا الرأي فيهم، لما يجدونه فيهم من فطنة وذكاء[79] ولكن لاشك أنهم كانوا على درجات متفاوتة في الإدراك وفي مجتمعهم من هوأرقى منهم عقلا، وأكثر منهم إدراكا، ومع ذلك لا يقولون الشعر، أولا يمارسونه كالحكام والكهنة وأصحاب الآراء.

وقد رأينا أن عكاظ كان موضع تحكيم في شعر الشعراء الجاهليين، وأن النابغة كان حاكم سوق عكاظ، أضف إلى ذلك تنقل الشاعر بين القبائل، مما كان له أعظم الأثر في الحياة الاجتماعية وفي كافة نواحي الحياة،وأقبل الشعراء على شرب الخمر إقبال أكثر الجاهليين على شربها. لتنسيهم همومهم وفقرهم، وكانوا يشربونها ليستوحوا من الشرب[80] الكلمات الشعرية المناسبة.

5 ــ الخطبة والزواج[81]:

6ـ الختان:

من التدابير الصحية التي تتبعها الأم، ويسعى إلى تحقيقها الأب الختان وهوالقطع[82]. إلا أن العرب في الحجاز لم يختنوا الفتى فقط، بل عملوا على ختان

---

[78]: الأغاني ج1 ص11، ابن رشيق: العمدة ج1 ص11، فجر الإسلام ص57، سالم ص40

[79]: ابن رشيق: العمدة ج1 ص74، علي: المفصل ج9 ص78.

[80]: ابن رشيق:العمدة ج1 ص141، علي: المفصل ج9 ص118

[81]: بحث هذا الموضوع في فصل الأسرة.

[82]: لسان العرب مادة ختن

الفتيات، وذلك للحد من طغيان الشهوة[83] فكان يقطع بظرهن، ويطلق على من تقوم بهذه المهمة أسم الخاتنة أوالمبظرة أوالخافضة[84].

وكانت عبارة عن مهنة ترتزق منها بعض النساء، ولكن بالمقابل كانت مهنة غير محببة، ومذمة للرجل، فيعير بأن أمه مقطعة البظور.

ويقال له ذما: يا ابن مقطعة البظور[85]. وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم الخافضة بقوله: إذا خفضت فاشمي[86] ولا تنهكي[87]، فإنه أحسن للوجه، وأرضى للزوج[88]. وبالمقابل فإن الختان بالنسبة للصبي من العادات الجاهلية القديمة المفرحة التي احتفلت بها الأسرة، وأولمت الولائم (الأعذار)[89] دعت إليها الأهل والأصحاب، فلبس الطفل المختون أجمل ثيابه، وظهر بأبهج صورة ولبس اصدقاؤه كذلك الثياب الجميلة، وظهر الجميع بصورة رائعة، فهل هناك سن معينة للختن ؟ بالطبع لم يحدد العرب السن التي يختن بها الصبي، قد يجري الختن بعد أسبوع، أوبعد شهر أوأكثر من الولادة، وقد يتأخر إلى العاشرة أوأكثر من عمر الصبي[90].

ولكن لا بد من الختن فمن لا يختن يعتبر ناقصا، ويدعى أغلف أوأقلف أو أغرل وقد كان الختن من الصفات التي تميز بها الوثنيون عن غيرهم، وهم واليهود في ذلك سواء [91].

وقد جاء في التوراة " وقال الله لإبراهيم وأنت فاحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك مدى أجيالهم هذا هوعهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك

---

[83]: جواد: المفصل ج4 ص637

[84]: لسان العرب مادة ختن، خفض، بظري

[85]:تاريخ الرسل والملوك ج2 ص516، الكامل في التاريخ ج2ص156، لسان العرب مادة بظر.

[86]: خذي منه قليلا، لسان العرب مادة شمم

[87] لا تبالغي في استقصاء الختان ولا في اسحات مخفض الجارية لسان العرب مادة نهك.

[88]: البيازوالتبين ج2 ص21، لسان العرب مادة شمم، علي: المفصل ج4 ص638 ترمانيني:الزواج عند العرب ص226.

[89]: الوليمة في الأعذار: أي من أسماء الختان لسان العرب مادة عذر،

[90]: الالوسي ج1 ص386، علي: المفصل ج4 ص654، صباغ: المرأة ص98

[91]: علي:تاريخ العرب ج6 ص296 – 297

يختن كل ذكر منكم.فتختنون القلفة من أبدانكم ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم "[92]

عد الختان في الإسلام من سنن الفطرة التي ابتلى الله إبراهيم بها وهي الكلمات العشر وفي جملتها الختان[93] قال النبي صلى الله عليه وسلم: اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهوابن ثمانين سنة 00بالقدوم والقدوم هوالالة وقيل موضع[94].

والختان بالأصل نوع من أنواع العبادة الدموية التي يقدمها الإنسان إلى أربابه، فهي تضحية ذات شأن خطير في عرف أناس ذلك العهد[95] إلا أننا نرى الختان نوع من أنواع النظافة وسنة متبعة، وبالمقابل كانت الغاية من الختن في العصر الجاهلي اجتماع الأصحاب والأصدقاء وإقامة الأفراح والاجتماعات وتقديم الولائم تعبيرا عن البهجة والسرور، والمكانة التي يرقى إليها الذكر دون الأنثى.

7ـ العودة من السفر:

من أيام الفرح والسرور، أيام العودة من السفر، ومن حقهم أن يفرحوا ويحتفلوا بهذا اليوم ألم يكن السفر مشقة وعناء وخطورة قد يتعرض المسافر للافتراس من قبل وحوش البادية.

أوقد يهلك جوعا وعطشا في صحراء قاحلة، أوقد يتعرض للسلب والنهب، فلذلك كان السفر على شكل جماعات وقوافل ولم يكن على شكل إفرادي كما عرفنا في فصل سابق.ولذا كان الأهل يتلقون المسافر بالبشر والتهنئة، فتذبح الذبائح وتولم الولائم التي تسمى النقيعة[96].

---

[92]: سفر التكوين:الفصل 17 فقرة 1ـ 11

[93]: الجاحظ: الحيوان ج7 ص27

[94]: البداية والنهاية ج1 ص157

[95]: علي: المفصل ج4 ص653

[96]: لسان العرب مادة نقع، الالوسي ج1ص386، علي:المفصل ج4ص685

ويقدم المهنئون تهانيهم، ويقولون سفر رجيع، وكان أول شيء يفعله المسافر عند عودته هوالطواف بالبيت، وبالصنم، الذي يعبد، وشكر رب البيت على حمايته له، وإغداقة نعمته بالعودة سالما[97].وإذا أرادوا السفر عمدوا لزجر الطير[98] والاستقسام بالازلام[99] وإذا ما عزموا على السفر أوقدوا نارا بينهم وبين المنزل الذي يريدونه ولم يوقدوا بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلا بالرجوع إليه[100].

8 ـ الشفاء من مرض:

هوعودة إلى الحياة، وولادة من جديد في مجتمع عرف النذور والهدايا إلى الأنصاب والازلام والتوسل إلى الآلهة للشفاء أكثر من معرفته بالطب والدواء لانهم آمنوا أن الآلهة هي التي تشفي فلذلك إذا مرض أحدهم، وشفي فانهم يقيمون له الأفراح والولائم التي تسمى البلة[101]، هذا النوع من المناسبات يدل على العلاقة المتبادلة بين أفراد القبيلة الواحدة وفئات المجتمع.

9ـ الخمر واستباحة النساء:

شاع في المجتمع الحجازي قبل الاسلام آفات اجتماعية، اقبل الناس عليها لقتل فراغهم، وللبحث عن أشياء تسليهم وتلهيهم، وتبعث فيهم الأمل والطرب والنشوة، ولكنهم أفرطوا في ذلك.

فالخمر من متع الحياة الثلاث بالنسبة للشباب، ولكن الإدمان عليه أهلكهم، فالخمارات كانت منتشرة في كل مكان ولا سيما على الطرق، حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة واستعادة النشاط بعد تعب وجهد، وكان بمكة وسائر القرى خمارات، وكان أصحابها من النصارى واليهود في الغالب ومعظمهم من غير العرب

---

[97]: ابن هشام:السيرة ج1ص85، البداية والنهاية ج2ص191ـ 192، علي المفصل ج5 ص 131.

[98] التيمن والتشاؤم بها والتفاؤل بطيرانها، لسان العرب مادة زجر.

[99]: السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها لسان العرب مادة زلم.

[100]: الوسي ج 5 ص324.

[101] العافية والشفاء لسان العرب مادة بلل.

وفدوا من الخارج للتكسب والعيش، فامتهنوا مهنة بيع الخمر واسقائها للناس[102]، وقد عرفت الخمارة بالحانوت فقد ورد أن الخليفة عمر رضي الله عنه أحرق بيت رويشدالثقفي وكان حانوتا يعاقر فيه الخمر ويباع[103].

وتفنن الأغنياء في الشرب، فاستعمل عبد الله بن جدعان الأواني المصنوعة من الذهب في شربه، وشرب غيره من أصحاب الثراء بأواني غالية استوردها من الخارج، في الوقت الذي كان فيه أكثر سكان مكة فقراء لا يملكون شيئا.

كما أنهم اعتبروا أن شرب الخمر دلالة على الفرح والسرور، لذلك حرم البعض شربها إذ أصابته مصيبة كامرؤ القيس الذي ابتعد عن شرب الخمر والنساء، وآلى ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا، ولايدهن بدهن طيب، ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره لأبيه[104].

أضف إلى ذلك أن بعضهم ترك شرب الخمر عندما بلغت به مبلغا أنه يفعل أشياء مشينة عندما يشربها، دون أن يدري كعبد الله بن جدعان، وحاتم الطائي، وبشير الثقفي[105].. وتركها بعضهم تحنفا، ثم أتى تحريمها في الاسلام، وجعل مدمن الخمر كعابد الوثن[106].

ثانياً: الأحزان:

للحياة وجهان البياض والسواد، سرور وشقاء، فرح وحزن، وبما أننا تحدثنا عن الوجه الأول من الحياة وهوالفرح وما كان يفعله أهل الحجاز فيها، فلا بد من التحدث عن الوجه الآخر، وهوالأتراح والأحزان وما كانوا يفعلون أيضا عند نزول كارثة ما، أووقوع حادث مفجع لهم.

---

[102] علي: المفصل ج4 ص667.

[103] لسان العرب مادة حنت.

[104] انظر فصل عادات قبلية والكلام عن الثأر.

[105] المحبر ص237، علي: المفصل ج4 ص671.

[106] لسان العرب مادة دمن.

شغل الحزن دورا كبيرا في الحياة، حتى إننا لنستطيع القول: أن الحزن أظهر من الفرح في الحياة، وأن المبالغة في إظهاره من المظاهر البارزة في المجتمع، وذلك إما ليظهر الحزين نفسه انه أكثر الناس تحملا للمصائب والأهوال والنكبات، وإما لبيان قيمة الشيء المفتقد وشدة الأسى عليه.ففقدان إنسان غال، أوفقدان مال بعد ثراء وجاه، وأمثال ذلك مما يثير الأشجان والحزن في النفس، تجعل الإنسان في لوعة على ما أصابه،فيظهر جزعه وتحمله للآلام أمام الناس وذلك بمختلف أساليب التعبير عن الحزن الذي نزل بالحزين.

وللحزن مصطلحات وتعابير خاصة، تعبر عن الآلام والأحزان، وما يجيش في الصدر من الأحزان، و منها تعابير يستخدمها المحزون نفسه تعبيرا عن حزنه وآلامه الشديدة ومنها تعابير يستخدمها المحزون في الرد على من يواسيه للتخفيف من آلامه، ومنها تعابير يقولها المواسون للشخص المحزون للتخفيف من مصابه، والترويح عنه، ولإظهار حزنه، ومشاركته لآل المحزون في أحزانهم. وكما أن للفرح مراسم، ولباس معين، كذلك للحزن عادات وتقاليد، وعلامات متبعة لا بد من مراعاتها، والمحافظة عليها.

1ـ الموت:

الموت في نظر الجاهليين مفارقة الروح للجسد لسبب من الأسباب التي تؤدي إلى هلاكه، فتخرج الروح من الأنف أومن الفم، و ذلك في الموت الطبيعي، وفي موت الفجاءة.أما إذا كان الموت بسبب جرح فإن الروح تخرج على ما ذكر من الجرح[107].

والروح قد تتحول، وتصير طائرا يرفرف فوق قبر الميت يسمى هامة في حالة كون الميت[108] قتيلاً ويكون الإعلان عن موت شخص بالبكاء والنعي كما هي اليوم.

يتوقف نعي الميت، والبكاء عليه على قدر منزلة الميت،ودرجة أهله، ومكانتهم الاجتماعية، لان نعي الميت من وسائل التقدير والإكرام والتبجيل، وقد وردت كلمة الناعي كثيرا في الشعر وفي النثر[109]:

---

(107) لسان العرب مادة حتف.

(108) انظر فصل عادات قبلية وفقرة الثأر.

(109) الالوسي ج3 ص13

أقول لما أتاني الناعيان به   لا يبعد الرمح ذو النصلين الرجل

ولذلك كانوا يوصون أهلهم بالبكاء، والنوح عليهم. إذا ماتوا، وكان ذلك مشهورا في مذاهبهم، وهوموجود في شعرهم كقول طرفة بن العبد[110]:

فإن مت فانعيني بما أنا أهله   وشقي علي الجيب يا ابنة العبد[111]

وكقول لبيد لابنتيه لما حضرته الوفاة[112]:

تمني ابنتاي أن يعيش أبوهما   وهل أنا إلا من ربيعة ومضر ؟

فقوما وقولا بالذي تعلمانه   ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

وقولا: هو المرء الذي لا صديقه   أضاع ولا خان الأمين ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما   ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

ولما حضرت الوفاة عبد المطلب، وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ست نسوة صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة، وأروى، فقال لهن: ابكين علي حتى اسمع ما تقلن قبل أن أموت، فرثته كل واحدة منهن ببعض الأبيات من الشعر منها:

ألا يا عين جودي واستهلي   وبكي ذا الندى والمكرمات

ألا يا عين ويحك أسعفيني   بدمع من دموع هاطلات

---

[110] التبريزي: شرح القصائد العشر ص 196، الألوسي ج3 ص11،زورني: شرح المعلقات ص99، علي: المفصل ج5 ص 153، الجندي (علي) ديوان طرفة بن العبد، مكتبة الانجلو المصرية ص 62 يختصر إلى ديوان طرفة.

[111] الأغاني ج15 ص379، الالوسي ج2 ص11، علي: المفصل ج5 ص154 – 155

[112] ابن هشام: السيرة ج1 ص181، السهيلي: الروض الأنف ج1 ص197.

وبكى خير من ركب المطايا أباك الخير تيار الفرات

طويل الباع شيبة ذا المعالي كريم الخيم محمود الهبات

عقيل بني كنانة والمرجى إذا ما الدهر أقبل بالهنات

وذكروا أن الشاعر حازم بن أبي طرفة، وأبوطرفة الحارث بن قيس بن يعمر الشداخ الكناني، وهوشاعر جاهلي أوصى ابنته لما شعر بدنوأجله بأن تبكي والدها، وأن تندبه، وتذكر محا مده وفعاله، وذلك في هذين البيتين[113]:

بنية أن الموت لا بد لا حق بشيخك ماضي الأنام المودع

فإن قمت تبكيني فقولي أبوالندى ومأوى رجال بائسين وجوع

من هذه الأبيات نرى أن النياحة، وخمش الوجوه، والتوجع والتألم، وأمثال ذلك سمة من سمات التقدير والاحترام والتعظيم للميت.بل للأحياء من آله وأقربائه أيضا، لأنها دلالة على شدة تألمهم، وايلام أنفسهم، وتوجيع أجسامهم وهلاكهم لذهاب فقيدهم، وعدم مبالاتهم في الإنفاق والبذل في سبيله.

ويصحب البكاء شق الجيوب، وتعفير الرأس بالتراب واجتماع النسوة أياما لندب الميت، وذكر مناقبه، تقوم بذلك نادبات ممتهنات اوغيرهن ممن رزقن موهبة القول في مثل هذه الأحوال من أفراد الأسرة أوالقبيلة أوالحي. أوالقرية،وقد برئ الرسول صلى اللّه عليه وسلم من الصالقة[114] والحالقة والشاقة[115].

---

[113] الآمدي (أبي القاسم الحسن بن بشر) المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، مكتبة المقدسي 1354 هـ ص100 يختصر إلى المؤتلف والمختلف.

[114] الصالقة من الصلق الصياح والولولة والصوت الشديد يرفع عند المصائب وعند الموت ويدخل فيه النوح لسان العرب مادة صلق.

[115] صحيح مسلم ج1 ص82 -100

ومدة الرثاء قد تطول حتى تستمر حولا كاملا، وهي مدة عزاء الجاهلية كما وجدنا في شعر لبيد، فإذا ما انتهى الحول وقد بكوه البكاء الذي استحقه الميت عذر أقرباءه من الاستمرار في بكائه إلا في المناسبات.أما مدة المناحة فهي في العادة سبعة أيام، فلما مات زيد الخيل الشاعر الفارسي وهوفي طريقه إلى دياره أقام قبيصة بن الأسود المناحة سبعة أيام[116]، هذا إذا كان الموت طبيعيا، أما إذا كان قتلا فلا يقبل أهل الميت التعازي إلا إذا ثأروا للقتيل[117].

أما بالنسبة للجنازة، فقد احترموا الموت والميت، فإذا مرت بهم جنازة، ورأوها قالوا :كنت في أهلك مائتا مرتين، أما أهل الميت وأقرباؤه وأصدقاؤه،فكانوا يسيرون أمام الجنازة وخلفها إلى المقبرة وذلك فيما كانوا يدعون من أن روح الإنسان تصير طائرا مثله، وهوالمشهور عندهم بالصدى والهام.

وكانوا يحملون النار أثناء سيرهم مع الجنازة، وينحرون الجزور عند القبور، وهذا ما قام به عمروبن العاص عندما أوصى أهله بنحر الجزور على قبره، وتوزيع لحمها على المحتاجين، والإقامة حول قبره حتى يستأنس بهم وينظر ماذا يراجع به رسل ربه[118]،ولما جاء الإسلام نهى عن ذلك بالحديث الشريف " لا عقر في الإسلام ولافرع ولا عتيرة " [119]

أما بالنسبة لحمل النار فله مسوغات عديدة، فإما للتنوير أمام الميت، أوللتفاؤل له بالجنة، أوعبرة للأحياء في أن النار الشديدة الحرارة بالمرصاد لمن يرتكب الأثام والذنوب.وكان من عادة العرب إذا حيوا الميت، قدموا لفظ عليك والمعنى عليه تحية اللّه ورحمته قال الشاعر[120]:

---

[116] الأغاني ج17 ص249، علي: المفصل ج5 ص172، صباغ: المرآة ص215

[117] انظر فصل أعراف ومثل قبلية فقرة الثأر.

[118] علي: المفصل ج5 ص156، علي: تاريخ ج5 ص284.

[119] صحيح مسلم ج1 ص112 ـ113، علي: المفصل ج5 ص156

[120] صحيح البخاري ج5 ص2083، آلوسي ج2 ص311، علي المفصل ج5 ص59 -161 -167 -174، صباغ المرأة ص217، والفرع أول النتاج كانوا يذبحونه لطواغيتهم والعتيرة في رجب، صحيح البخاري ج5 ص2083.

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

وإذا قتل منهم شريف ، أومات بعثوا راكبا إلى قبائلهم ينعاه إليهم فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك[121].وكان يغسل الميت قبل الدفن، ويطيب بالخطمى والاشنان[122] وأما قريش فكانت تضع الكافور مع الميت[123] وكل ذلك من العادات الجاهلية المتبعة.

وبعد أن يجهز الميت، يحمل في سرير على الأكتاف، أوفي محفة، أوعلى الإبل، لإيصاله إلى القبر، وقد ورد أن السرير النعش قبل أن يحمل عليه الميت، فإذا حمل عليه فهوجنازة، على أننا وجدنا أن البدويحملون موتاهم بضم عود إلى عود[124]. وأوصوا الميت بألا يبعد، والمقصود بذلك أن الميت وإن مات فإن ذكراه تبقى بينهم، وهودائما معهم، فحسب اعتقادهم أن روح الميت حية لا تموت والغرض من ذلك استعظام موت الرجل الجليل، وكأنهم لا يصدقون أنه مات وقد حلفوا بموتاهم، فقالت قريش وحق أبي أووتربة أبي أووتربة جدك ونحوذلك[125].ومازالت هذه العبارة سارية المفعول إلى اليوم.

وبالنسبة إلى الأكفان فحسب ما ورد عن تكفين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الحجاز كفنوا موتاهم بأثواب صحاريه ــ نسبة إلى صحار- وبرد حبرة[126]، ولكن هناك من ذكر أنه كان لا يدفن الميت بملابسه، ويغطى رأسه، على أنه لا يستبعد أن يكونوا قد عرفوا الكفن. نستدل على ذلك من بيت شعر لامرئ القيس[127]:

---

[121] التبريزي ديوان الحماسة ج1 ص328.

[122] لسان العرب مادة نعا، الالوسي ج3ص13 ومعنى ينعاه أي يظهر خبر وفاته،

[123] لسان العرب مادة غسل، علي: المفصل ج5 ص156 ـ157.

[124] ثعلب:شرح ديوان زهير ص15 علي: المفصل ج5 ص162– 158

[125] تاج العروس مادة سرر، علي: المفصل ج5 ص157

[126] ابن هشام: السيرة ج4 ص313، أنساب الأشراف ج1 ص571 ـ 572

[127] ديوان امروء القيس ص90، لسان العرب مادة كفن.

فأمـــا تـــــريني في رحالـــــة جـــــابر علـى حـــرج كـــالقر تخفـــق أكفـــاني

وعند دفن الميت في قبره، يقوم من يذكر محاسنه، وأعماله، ويلحد في قبره لحدا، ثم يظهر حزنه، وحزن الناس عليه، ويوارى في حفرته ثم يهال التراب عليه، وينشد الشعر له.

وبالغ اليهود في الحجاز، وأيضا النصارى في ضرب القباب والأضرحة على قبور موتاهم، وفي تعظيم قبور أحبارهم وقسسهم، حتى تحولت قبورهم إلى أضرحة ومزارات تزار في المناسبات،ولا سيما عند أهل الحضر منهم وشمالي الحجاز. ولبس أهل الميت ملابس خاصة لإظهار الحزن والأسى وكان اللون الأبيض هو المفضل، وهوشعار الحزن في الحجاز[128].

أما حزن المرأة على زوجها فله صفات معينة عندهم، فقد كانت تحلق شعرها، وتمزق جيوبها، وتلطم خديها، وتعفر رأسها بالتراب والطين وتغمس قطنه من دمها، وتضعها على رأسها، وتخرج طرف قطنتها من خرق في قناعها ليعلم الناس أنها مصابة، ويسمى ذلك السقاب[129]،وترفع صوتها بالنياحة وتمسك بنعلين، وتصفق بهما وجهها وصدرها ولمدة عام تمتنع عن الزينة والطيب امتناعا كاملا، ولا تمس ماء ولا تقلم ظفرا، ولا تزيل شعرا، ويمتنع الخطاب عن طلب يدها، وتدخل خفشا[130]، وتلبس شر ثيابها، وتقضي فيه مدة حدادها، ولم يكن ورثة الزوج يرون أن من واجبهم النفقة عليها طيلة هذه الفترة.

وإذا ما انتهت عدتها تخرج من الخفش، وتعطى بعرة ترمي بها كلبا، وتدلك جسمها بدابة حمار أوشاة أوطائر ومعنى رميها البعرة.أنها انتهت عدتها[131]،أو أنها

---

[128] علي: المفصل ج5 ص172 لم يذكر مصدره

[129] لسان العرب مادة سقب

[130] الصغير من بيوت الإعراب، وقيل البيت الذليل القريب السَّمِك من الأرض لسان العرب مادة خفش، تاج العروس مادة خفش.

[131] نهاية الأرب ج3 ص120، صبح الأعشى ج1 ص403، الالوسي ج2 ص51، الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي ص221.

رمت عدتها رمي البعرة وقيل إشارة إلى أن الفعل الذي فعلته من التربص، والصبر على البلاء الذي كانت فيه، ولما انقض كان بمنزلة البعرة التي رمتها استحقارا له وتعظيما لحق زوجها، بل ترميها على سبيل التفاؤل بعدم عودها إلى مثل ذلك، أوأن مقامها حول أهون عليها من بعرة ترمي بها كلبا أوغيره[132]. وتعاود زينتها بعد ذلك، وكانت بعض نساء المتوفى يقمن تحت قباب يضربنها قرب قبر الميت ويستقبلن فيها من يأتي لزيارة قبره.

أما الزوج فإنه عند وفاتها، لا بد وأن يشعر بالأسى ولكن لا يجوز له أن يبدي عواطفه، ويعاب إذا زار قبرها، وقد يرثيها شعرا ونثرا، ويمتدح خصالها، إلا أنه لا يتقبل التعازي بها إلا إذا كانت أما لولده،وجرت العادة آنذاك بدفن المرأة على مقربة من زوجها[133].

2ـ ولادة أنثى:

كان العرب في ظل سيادة نظام الأبوة، يؤثرون البنين على البنات، وذلك لأن الذكر أصبح يشغل دورا رئيسيا في الاقتصاد، في حين تقلص دور المرأة في القطاع الاقتصادي.وتركز على تربية الأطفال وتدبير الشؤون البيتية.

لذا فقد كان مولد الطفل الذكر عند العرب والبدوبخاصة مبعث سرور وفرح، في حين كان مولد البنت مبعث غم وهم، لا سيما إذا كان الأب فقيرا وفي الشعر الجاهلي ما يعكس كدر الوالد الذي تولد له طفلة، فمثلا أبوحمزة الضبي وضعت له زوجته أنثى فهجرها، وأخذ يبيت عند جيرانه، فمر بخبائها يوما، وإذا هي ترقصها وتتغنى لابنتها قائلة:

مــــا لأبـــــي حمـــــزة لا يأتينــــــا وهــــــوفي البيــــت الـــــذي يلينـــــا

---

[132] نهاية الأرب ج3 ص120، صبح الأعشى ج1 ص403، الالوسي ج2 ص51.

[133] نهاية الأرب ج3 ص120، صبح الأعشى ج1 ص403، علي: المفصل ج5 ص137 . 174، صباغ: المرأة ص216 نهاية الأرب ج3 ص120، صبح الأعشى ج1 ص403، علي: المفصل ج5 ص137 ـ 174، صباغ: المرأة ص216

يغضـــــب إن لم نلـــــد البنينـــــا　　　　والله مـــــا ذلـــــك في أيـــــدينا

وإنمـــــا نأخـــــذ مـــــا أعطينـــــا ونحـــــن كـــــالأرض لـــــزارعينـــــا

نتبـــت مـــا قـــد زرعـــوه فينـــا

فلما سمع أبوحمزة هذا القول غلبه حنان الأبوة فأسف وتاب إلى رشده، وولج الخباء، وقبل رأس امرأته وابنته وقال: ظلمتكما ورب الكعبة[134]. ولقد صور القرآن الكريم في الكثير من آياته حالة الرجل النفسية إذا بشروه بولادة أنثى قال تعالى:"وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهوكظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب إلا ساء ما يحكمون"[135].

ولعل بعضهم قد بالغ في بغضه للبنات عند ولادتهن إلى حد الوأد، أي قتل المولودة دون ذنب، وحرمانها من حق الحياة وهي جريمة بشعة أيا كانت مسوغات الوأد، قال تعالى: "وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت"[136] وقوله تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم"[137]وقوله:" ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم"[138].

ولعل أن بعض الحوادث قد وقعت مثل أسر الذراري والمجاعة عمد فيها البعض إلى وأد البنات. فيذكر أن أول من وأد بناته في الجاهلية قيس بن عاصم المنقري من تميم. وذلك عندما سبيت ابنته من قبل النعمان بن المنذر، فلما خيرت في البقاء عند سابيها أوالذهاب م زوجها آثرت الأول على الثاني فنذر قيس أن يدس كل بنت تولد

---

[134] البيان والتبين ج1 ص186، الالوسي ج3 ص 50 حاشية، سالم ص449، ترمانيني:الزواج عند العرب ص220.

[135] سورة النحل الآية 58 ـ 59.

[136] سورة التكوير: الآية 9.8

[137] سورة الأنعام: الآية 151

[138] سورة الإسراء: الآية 31

له في التراب، فوأد بضع عشرة بنتا، فاقتدت به العرب، فكان كل سيد له بنت يئدها خوفا من الفضيحة ولحوق العار به[139] كما سلف ذكره.

وأرجع بعضهم منشأ الوأد إلى قبيلة ربيعة، وذلك أنه أغير عليهم فأسرت بنت لأمير لهم، فلما عقد الصلح، لم تشأ البنت العودة إلى بيت أبيها، واختارت من هي عنده وآثرته على أبيها، فغضب رئيس ربيعة لذلك، وسن لقومه الوأد ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثلما وقع، وقلدته بقية العرب حتى فشا بين القبائل. على أن البعض يرجع منشأ الوأد إلى كنده[140]. وقد يجري الوأد بعد الولادة مباشرة، بل قد يكون عندما تصبح البنت سديسية[141] فيطلب الوالد تطييب البنت وتزيينها، ثم يأخذها معه فيدفعها في حفرة حفرها لها في الصحراء، ويهيل عليها التراب، وقد تبلغ به القسوة مبلغها فيطلب من الأم أن تفعل ذلك، فما هوالسبب الذي يجعل الأم تفعل ذلك ؟

ربما يكون ذلك جزءا من التقليد الديني في تقديم عرب الجاهلية بناتهن أضاحي للإلهة، وباعتبار أنهن بنات الله فيجب أن يعدن إليه متطيبات متزينات، وهذا سبب آخر من أسباب وأد البنات إضافة إلى أسباب اقتصادية واجتماعية ذكرناها فيما سبق.

وقد يتم الوأد بعد البلوغ، ذكر الاخباريون أن امرأة قيس بن عاصم ولدت بنتا في سفره، فدفعتها إلى أخوالها، فلما قدم زوجها من سفره أخبرته أنها ولدت ولدا ميتا. ومضت سنون حتى كبرت الصبية ويفعت، فزارت أمها يوما، ورآها قيس فأعجبته، وسأل عنها، فبكت أمها وقالت له: هذه ابنتك وقصت عليه حيلتها.

قال:"فأمسكت حتى اشتغلت عنه، ثم أخرجتها فحفرت لها حفرة فجعلتها فيها وأخذت أهيل عليها التراب، وهي تقول: يا أبت أمغطي أنت بالتراب ؟ أتاركي أنت

---

[139] الأغاني ج14 ص71، نهاية الأرب ج3 ص127، صبح الأعشى ج1 ص404، الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي ص234، سالم ص449

[140] لسان العرب مادة وأد، آلوسي ج3 ص42 ' الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي ص235.

[141] أتت عليها ست سنوات لسان العرب مادة سدس.

وحدي ومنصرف عني ؟ وجعلت اقذف عليها حتى واريتها وانقطع صوتها، فما رحمت أحدا مما واريته غيرها"[142].

ولم يقتصر القتل على الإناث بل تعداهن إلى الذكور، فكان بعض العرب يئدون أولادهم الذكور أيام المجاعة أي لعوامل اقتصادية، أويئدونهم وفاء لنذر أي لعوامل دينية وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك قال تعالى:"**وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم فذرهم وما يفترون** "[143].

وكان الرجل في الجاهلية يحلف أحيانا لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم فقد نذر عبد المطلب انه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم رجالا أن ينحر أحدهم لله عند الكعبة، فلما استكمل أولاده العدد هم بإنجاز ما وعد، على زعم أهل الأخبار وأجال القداح بينهم، فكان الذبح نصيب عبد الله، فحماه أخواله بنومخزوم وأشاروا إلى عبد المطلب أن يحكتم إلى كاهنة بني سعد، فحكمت بالدية مائة بعير فداء لعبد الله[144].

ولكن قتل الأولاد الذكور عند الجاهليين كان محدود، وهوأقل استعمالا من وأد البنات بكثير، وقد مارسه بعض العرب في المجاعات، ولأسباب دينية كما تبين من قصة إقدام عبد المطلب وأد ابنه لنذر أخذه على نفسه حسبما جاء في روايات الإخباريين.وفي مكة جبل يقال له أبودلامة كانت قريش تئد البنات فيه[145].من كل ما تقدم نرى أن ولادة الأنثى هم وحزن لذلك فكروا بوأدها خوفا من وقوع الذراري في الأسر بأيدي المغيرين المغتصبين، ولحوق العار بهم، والفضيحة من أجلهن أولعوامل دينية وفاء لنذر أوإرضاء للآلهة، أولعوامل مرضية فكان منهم من يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أوبرشاء أوكسحاء تشاؤماً وكان يفعل ذلك قليل منهم،

---

[142] الأغاني ج14 ص69ـ70

[143] سورة الأنعام: الآية 137

[144] لسان العرب مادة دلم، صباغ: المرأة ص231

[145] لسان العرب مادة وأد، علي: المفصل ج5 ص98.

وكان من وسائل الوأد أن يحضر حفرة لها ثم تدس فيها ويهال التراب عليها أوعن طريق رميها من جبل أوعن طريق الوأد الخفي[146].وهوهجر الزوجة لئلا تنجب له أولادا.

والواقع أن الوأد لم يكن عرفا عاما في قبائل العرب قاطبة على نحوما صوره لنا بعض الإخباريين، وإنما كانت تمارسه بعض القبائل، وحتى هذه القبائل نفسها لم يفش الوأد في أفرادها جميعا، وإلا فكيف يستمتعن بالحياة وينجبن الأبناء ؟ وكيف نجا من الوأد آلاف من النسوة اللاتي أدركن الاسلام وعددن صحابيات، ولعل في روايات أهل الأخبار ما يقيم الدليل على ذلك، فقد ذكروا أن بعض سادات بني تميم كانوا يعيبون وأد البنات، وينقذونهن من جريمة الوأد البشعة، واشتهر بذلك صعصعة بن ناجية جد الفرزدق حتى سمي (محييي المؤدات) فقد مر يوما برجل يحفر حفرة ليئد ابنته وامرأته تبكي، فسأل الرجل عن سبب عمله فأجابه بأنه الفقر، فعرض عليه أن يستبقي ابنته، ويمنحه ناقتين عشرا وين يتبعهما أولادهما، ليعيشوا من ألبانهما، فقبل الرجل، فأعطاه صعصعة ناقتين وجملا، ثم قال في نفسه: أن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بمؤودة إلا فداها، فجاء الإسلام وقد فدى ستا وتسعين مؤودة. وقيل ثلاثمائة وستين وقيل أربعمائة على خلاف بالعدد[147].

وذكر أن زيد بن عمروبن نفيل كان أيضا يحيى المؤودات يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته أنا أكفيك موءونتها ولا تقتلها فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك موءونتها، والإحياء هنا مجاز، والمراد بإحيائها إبقاءها[148].

---

[146] الأغاني ج21 ص276 – 277، نهاية الأرب ج3 ص126 – 127، علي: المفصل ج5 ص91، صباغ: المرأة ص234، دلوج1 ص198.

[147] الأغاني ج1 ص 276ـ 277، نهاية الأرب ج3 ص 126 ـ 127، علي: المفصل ج5 ص 91، صباغ : المرأة 234، دلو ج1 ص 198.

[148] صحيح البخاري ج4، ص 1392، آلوسي ج3 ص 45.

الخاتمة

تبين من دراسة الحياة الاجتماعية في الحجاز قبل ظهور الإسلام ـ القرن السادس ـ أن هذه الحقبة مرحلة أساسية وهامة في تاريخ العرب وتطورهم الصاعد أساسية لأنها شكلت بداية الحركة التاريخية عندهم التي تكونت فيها الأصول التاريخية للأشكال التي عبر بها السكان عن تصوراتهم لظاهرات الكون والطبيعة وعن علاقاتهم الاجتماعية، وأوضاع حياتهم التي كانت حصيلة للتفاعل بينهم وبين البيئة التي عاشوا فيها.

فقد كان نظام الحياة في ذاك العصر قائما على نظام القبيلة الذي كان ظهورها مرتهنا بانضمام العشائر بعضها على بعض لأغراض حربية أواقتصادية وهي أسم خاص لأحد أقسام المجتمع غلب على الأقسام الأخرى، فهناك ما هوأكبر من القبيلة، وهناك ما هوأصغر، وقد استعملت كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي، وعدت وحدة سياسية واجتماعية قائمة بذاتها لها دينها الخاص، ولها عصبيتها التي تعني التماسك بين أفرادها.

والاعتزاز بالانتساب إليها. والعصبية على هذا النحوهي مصدر القوة السياسية للقبيلة تتضمن نصرة الفرد في الجماعة ظالما كان أومظلوما، فإذا وقع سوء لأحد منهم وفالجميع مسؤول عن مديد العون والمساعدة إليه، بحكم عصبيتهم ولعل لقسوة البيئة أثر في تعميق دور هذه العصبية.

ظهرت قدسية العصبية عندهم فيما عرف بالثأر، وهومقابلة الدم بالدم، فكان أهل من أراد أن يثأر له يعدون أنفسهم بطقوس معينة، فهم مرضى نفسانيا حتى يدركوا وترهم، ولعلنا وجدنا أن ذلك كثيرا ما يجر إلى وقائع بين الجماعات، ولذا فقد كانت تتوقف بعض الخصومات نتيجة تعويض سمي الدية أعطيت لقريب المقتول

مقدرة بعدد من الإبل حسب المكانة الاجتماعية للقتيل وفي ذلك نوع من التمايز الاجتماعي بين فئات المجتمع لكن يبقى القتل أفضل الحلول لأن الثأر بمثابة القانون الذي حد من فوضى القتل.

في الفترة اللاحقة، وفي الجاهلية القريبة من الإسلام حدثت متغيرات متعددة على كافة الأصعدة، واكتسب الحجاز أهمية خاصة بفضل موقعه المتوسط وبكونه جسرا ربط بلاد الشام، وحوض البحر المتوسط باليمن والحبشة، وشرقي أفريقيا. والبلاد المطلة على المحيط الهندي، فأطل بعد عزلة طويلة على سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر، ليصبح منذ القرن السادس مركز الاستقطاب ومحور الحركة التجارية في شبه جزيرة العرب.ولتأخذ مكة على يد القرشيين الدور المميز كمحطة حيوية في تجارة الشرق ولتشهد نموا متزايدا منذ ذلك الحين لأنها استطاعت أن تمسك بزمام الأمور في المنطقة المحيطة بها سواء في تهامة أونجد فضلا عن الحجاز واليمامة، ولتهيء الأرض الخصبة لتجذير علاقاتها مع القبائل المختلفة خاصة الدائرة في فلك نفوذها المباشر، وذلك على امتداد خطوط رئيسة أوفرعية تمحورت حولها مصالح دول كبرى.لم تكتف بالضرورة عند حدود المتاجرة بالسلع، لكنها صدرت معها الأفكار والعقائد والنظم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

أحدث هذا التطور في كسب المعيشة تغيرات انعكاسية في البنية الاجتماعية للمجتمع القبلي الجاهلي، وبين أبرز هذه التغيرات رابطة الدم والنسب، فلم تبق الشرط الوحيد لتكوين الوحدات الاجتماعية، إنما أضيف إليها رابطة الولاء والتحالف والجوار، وكان ذلك انعكاسا للاتجاه العام للأحداث نحوالتشكل الكيفي للمجتمع، وتعبيرا عن التوجهات الاجتماعية للعرب نحوالتضامن والوحدة، ونموالشعور القومي، فانحلت الروابط القبلية وتكونت التحالفات على أساس من المصالح الاقتصادية المشتركة والضرورات الدفاعية.وأصبح المال عنصرا هاما في ذاك الوقت فبفضله حصل قصي على زعامة مكة، وسدانة البيت، والوظائف العامة الأخرى التي حصرها بشخصه، وبقوة المال انتزع العباس بن عبد المطلب الرفادة والسقاية من أخيه أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم رغم مكانته العالية في

قريش من الوجهة القبلية، وصنف قصي على أساس الوضع المالي المجتمع القرشي، فقطع مكة أرباعا بين قومه، وأنزل كل حي من قريش منازلهم، فأسكن من كانت حالتهم المادية حسنة في بطاح مكة حول الكعبة وهم قريش البطاح، وكان منهم التجار والأثرياء، وأسكن من لم تكن حالتهم المادية حسنة، أولنقل أقل ثراء في ظواهر مكة وهم قريش الظواهر.

إن دل هذا على شيء، فإنه يدل على أن قيمة الفرد الاجتماعية تعلقت بما ملك، وأن التصنيف المالي والتجاري لأبناء القبيلة أصبح يحتل المركز الأول لذلك أصبح بنوعبد مناف، وبنوعبد الدار في مقدمة قريش البطاح، لأنهم صاروا أوفرمالا وأعظم تجارة، ثم احتلت أمية في قريش الجاهلية مكان الصدارة، فأصبح فيها أعظم التجار ثراء، وبسطت سلطانها على كثير من قبائل المنطقة العربية الغربية خارج مكة. جاء هذا التطور الاجتماعي، الذي حدث عند استتباب الزعامة لقريش في شخص قصي، وفي أشخاص أولاده وأحفاده من بعده بمثابة قفزة نوعية لتغيرات كمية كانت تجري من قبل في المنطقة مع تنامي العلاقات التفاعلية بين التقسيم الجديد للعمل في كل من الحاضرة والبادية من جهة، وبين اتساع التجارة والوساطة التجارية، وحركة التبادل النقدي في أسواق الجزيرة من جهة ثانية، فعقدت الزعامة المكية اتفاقات وإيلافات تجارية متعددة.

ونظمت الرحلات التجارية الكبرى، والأسواق الموسمية، ورتبت أوقاتها مع الأشهر الحرم حتى يسودها الأمن والهدوء والسلام، واهتم زعماء مكة أيضا بتنظيم شؤون الحج الذي اسهم إسهاما كبيرا في تنمية الإنتاج، وتنشيط الحركة التجارية الداخلية والخارجية، وبالتالي ساعد في صهر اللهجات وتوحدها في لهجة مشتركة متميزة عن غيرها بكونها لغة التعبير الفني والتعامل المشترك بين مختلف القبائل أثناء المواسم التجارية، والدينية والأدبية، وسرع في عملية تفكيك الوثنية ومهد لظهور الإسلام الذي وحد العرب تحت لوائه. ولهذا كله أصبح موسم الحج أكبر تظاهرة اجتماعية عربية ليس في تاريخ الحجاز فحسب، بل وفي تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام فاختلاف القبائل كلها خلال موسم الحج في عملية تتداخل فيها

العلاقات الاقتصادية بالاجتماعية بالأدبية والدينية تداخلا تفاعليا. أنتج مزيدا من الاندفاع نحوذلك المجرى العام لتشكيل جديد.وكانت الأسواق الموسمية المتعددة أثناء أداء موسم الحج هي المظهر الحركي الأكثر فاعلية في سياق هذه العملية المتداخلة، حيث زادت من تقارب العرب وتآلفهم، فارتبطت فئات كثيرة من سكان الحواضر والبادية بالعملية التجارية سواء أكان ذلك بمشاركة بعضهم في تمويل القوافل.أوتشغيل قسم كبير منهم كأدلاء وحراس للقوافل، أومقدمين للخدمات الضرورية لها في المحطات المنتشرة على طول الطريق البرية، وفي الثغور البحرية، أومتاجرين يتبادلون معها السلع الاستهلاكية، أومنشئون لتجارات صغيرة بين القبائل إضافة إلى روءساء القبائل الذين كانوا يتقاضون الإتاوات والضرائب والهدايا.

هيأ هذا النشاط التجاري ظروفا أفضل لنموالزراعة والحرفة وزيادة الإنتاجية، وتحسين التكنيك، وتجديد أدوات الإنتاج فأدى ذلك إلى ازدياد ثراء الفئات العليا التي أصبحت تشكل أرستقراطية المجتمع الجاهلي وبالتالي صيرت مكة مركزا ماليا كبيرا لا في الحجاز وحسب، بل وفي الجزيرة العربية بأكملها، وبالتالي أصبحت مكة في مركز المهيمن على عملية تفكيك البنية الاجتماعية للمجتمع القبلي من أسسها، وأسهم الاستثمار الربوي في زيادة الفوارق الاجتماعية في الحجاز، وكان المرابون يتلاعبون بالديون بأن يؤخروا آجالها أويقدموها، أويضيفوا إليها إلى غير ذلك من الألاعيب والحيل التي أدت إلى تدهور المستدين وفقدانه ماله وبالتالي حريته.

.وبدأت أشكال أولية من التململ والتمرد كالصعاليك والخلعاء والطرداء والأرقاء 000 كانت مؤشرا على بدء تحول هذه الفوارق إلى تناقضات فعلية تصبح أساسا لانقسام المجتمع إلى فئات وفقدان العدالة الاجتماعية.

ونتج عن سيطرة الأرستقراطية القرشية دار الندوة والملأ التي كانت شكل من أشكال التنظيم السياسي تتناسب مع مستوى التطور الاقتصادي الاجتماعي الذي وصلت إليه مكة عند استتباب الزعامة لقريش في شخص قصي وليكن لهذا النظام سلطاته، وأجهزته المتناسبة مع وضعه التاريخي، وكانت تتمتع حكومة دار الندوة

أوالملأ، بسلطات متعددة تشريعية وتنفيذية، وقضائية، وادارية، وتتناول الشؤون العامة والخاصة لسكان مكة وفيها:

تبحث قضايا الحرب والسلام.

تبحث شؤون التجارة والأسواق والحج.

تبحث قضايا اجتماعية بما فيها القضايا الخاصة بسكان مكة مثل عقود الزواج، والمعاملات والبلوغ والختان.

وعلى الرغم من تشاورهم في كل أمر كان ينزل بهم فقد كانت المصلحة الاقتصادية هي الأساس في ذلك لان إدارة الندوة كانت بيد الشريحة الاجتماعية العليا من قريش، وكمظهر لحصر السلطات في هذه الفئة المختارة حصر الملأ حق دخول الندوة في من بلغ سن الأربعين فذلك امتياز لذوي الثروة جديد.

ونشأت داخل القبيلة فئات متميزة عن بعضها في الثروة والحقوق، وبدأ أصل التفاوت الاقتصادي يولد بالضرورة تمايزا اجتماعيا في الحقوق بين الوجهاء والأغنياء، وبين البسطاء الفقراء كما أسلفنا القول، واستتبع هذا التفاوت في الملكية تفاوتا في المعيشة وتمايزا اجتماعيا بين أفراد القبيلة الواحدة، أدى إلى انقسام أبنائها الأحرار إلى أغنياء وفقراء، إضافة إلى الانقسام الذي كان قائما بين الأحرار والعبيد، وأصبح بسطاء البدووالموالي والعبيد يعملون في رعي الأغنام لحساب ووجهاء القبائل.وكان السبب الرئيسي للمنازعات والحروب بين القبائل طموح ساداتها إلى امتلاك المزيد من الأنعام، وموارد المياه مستغلين ظاهرة الكرم لدعم سلطتهم، حيث أصبحت سلطة الرئيس في ظروف نشوء الفوارق الاجتماعية بين أبناء القبيلة لا تستمد وجودها وقوتها من الأعراف القبلية المقررة وحدها، بل صارت تستمدها أيضا من قوة المال.

ولكون الدين ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية فقد كانت الوثنية انعكاسا لأوضاعهم الاجتماعية، وشروطها المادية، فاشتراك طائفة من القبائل في عبادة إله معين، أوتعبدها لآلهة بعضها البعض انعكاسا لتوجه العرب نحوالتضامن والوحدة.

أضف إلى ذلك أن تعدد الآلهة تعبير عن العلاقات القبلية التعددية الانقسامية في مجتمع الحجاز، ومجتمع الجاهلية العربية ككل، أي أن الوثنية كظاهرة دينية نشأ ت وتطورت بالارتباط مع حركة التطور التاريخي اجتماعيا، وصلا ت المجتمع الحضارية مع العالم الخارجي.

ومما يلفت النظر في الوثنية أنه كان لبعضها مقام معظم كهبل، وكان عندهم آلهة ثرية وآلهة أقل ثراء وآلهة بسيطة من حجارة أومن خشب، هذا التفاوت بين الآلهة عكس ذلك التمايز في الثروة والحقوق الاجتماعية في إطار القبيلة الواحدة بين الوجهاء الأغنياء، وبين البسطاء الصعاليك والموالي والأرقاء.

أما المقام العظيم لهبل على غيره من الآلهة، فدلالة على أن مقام الآلهة عكس بالطبع مقام المجتمع الحجازي آنذاك. وجاءت الحنيفية كنزعة دينية توحيدية تعبيرا عن التوجهات الجديدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية نحوالوحدة، وكان ظهورها ايذانا بالثورة على الوثنية المتداعية، وبداية الإرهاص الفعلي لظهور دعوة الإسلام. إذا شهد القرن السادس الميلادي تغيرات اجتماعية على صعيد القبيلة أما على صعيد الأسرة فكان الرجل كل شيء في الحياة الاجتماعية وإن كان لبعض النساء مكانة.وكان أمرهن بيدهن إلا أن المرأة على العموم كانت تورث كما يورث المال، وكان الذي يرثها أكبر أولاد زوجها، فإن لم يكن له فيها حاجة أخذها أحد إخوته فإن شاء تزوجها وإن شاء عضلها حتى تموت فيرث ميراثها، لذلك لم يقيد الرجل نفسه بعدد الزوجات إما بقصد إعالتهن، أو لغرض سياسي إذا كان رئيسا بين قومه بأن يصهر إلى عدد كبير من القبائل حتى يرتبط معها برابطة المصاهرة. وأما بقصد الإكثار من الذرية والتناسل لأن العقم غير مرغوب فيه، وهذا جعلهم في بعض الأحيان يغضون النظر عن نسب المولود فيلحقونه بهم، وكانوا يتزوجون المرأة وهي حامل، ويتبنون الأولاد ولربما شاع ذلك في أوساط الأغنياء والأثرياء وميسوري الحال، بينما كان ينبغي للفقراء الاكتفاء بزوجة واحدة، وكانوا يدفعون نساءهم إلى بعض الرجال لتنال ولدا، ولم يفرحوا بشيء فرحهم بولادة الذكر، لأنه كان يحمل مع والده أعباء الحياة، وكان فخرهم

بكثرة الذكور، لاسيما إذا كانوا أعلاما في الشهرة والجود والشجاعة.أضف إلى ذلك أنه وجد لديهم أنواع متعددة من الانكحة كنكاح البعولة ونكاح المتعة، والسبي،والمقت، والمخادنة، والاستبضاع، ونكاح صواحب الرايات هذا ظاهرة من ظواهر انحلال الروابط العائلية، وظهور الملكية الخاصة، فليست كل هذه الأنواع من الانكحة تد زواجا بالمعنى المقصود من الزواج، لأنها لاتبني بين الرجل والمرأة روابط عاطفية، بل كان بعضها مما نستطيع أن نعده مساوئ اجتماعية تتمتع فيها المرآة بشيء من حرية ممارية علاقات جنسية مع الآخرين لذلك نسب الأولاد الحاصلون من بعض هذه الأنواع من الزواج إلى أمهاتهم.مما يدل على بقاء نظام الأمومة الذي كان معروفاً في السابق، وشيع نظام الأبوة إلا جانبه، وخسارة المرأة لدورها القيادي في الهيئة الاجتماعية فلم تعد بالنسبة له أكثرمن أم ورثته الشرعيين للمولودين في ظل الزواج، والمديرة العليا لبيته، والمراقبة لإمائه اللواتي يستطيع أن يتسرى بهن حسبما يطيب له. ولعلنا نستطيع القول: أن زواج البعولة كان أول شكل للعائلة ارتكز على الشروط الاقتصادية، وهي انتصار الملكية الخاصة على الملكية الجماعية والهدف من ذلك سيادة الزوج المطلقة في العائلة، وولادة أولاد لا يمكن أن يكونوا غير أولاده من دمه وصلبه ولابد لهم أن يرثوا ثروته مستقبلا، وهذا يعد تقدما تاريخيا كبيرا في الحياة الاجتماعية آنذاك، اتبعه اعتراف العرب بالزواج من خارج القبيلة وإيثارهم ذلك على الزواج من الأقارب محافظة على سلامة النسل وللتخفيف من المشاكل العائلية التي يمكن أن تنشأ عندما يكون الزواج بين الأقارب، ولكنهم مع ذلك حقدوا على المرأة التي تزوجت في غربة عن قبيلتها.

إضافة إلى أنواع الانكحة التي عرفها العرب في مجتمع الحجاز فقد كان الزنا عندهم على قسمين سر وعلانية، عام وخاص، فالخاص هوأن يكون للمرأة خدن يزني بها سرا، فلا تبذل نفسها لكل واحد، وقد عدوا ذلك نكاحاً، وأما العلاني فهوالمراد به السفاح، أوماسمي بنكاح صواحب الرايات،فكانوا يحرمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ماخفي منه، وأبيح لهم البغاء الديني المقدس،وكانت بعض النساء تمارسنه تقربا للآلهة وارضاء لها.أما بالنسبة للطلاق، فكان سهلاً يسيراً،

وعلى أنواع أيضا كالطلاق ثلاثا على التفرقة أوكالظهار أوالخلع أوالايلاء، وكان بيد الرجل يوقع به متى شاء من غير سبب موجب لذلك،وإذا كان للمرأة في بعض الاحيان الحق في ذلك بسبب كونها ذات مال كثير أوجمال رائع، أوشرف فإن ذلك لا يحميها من تطليق زوجها إياها متى شاء هو.

ولشدة غيرة العربي على البنت حرمها حق الحياة مدعيا الفقر والملاق والجوع أوالتقرب من الآلهة.وبالمقابل وجد من أحياها وسمي بمحيي الموءدات، وهوصعصعة بن ناحية جد الفرزدق، ولم يقتصر ذلك على الإناث. بل نذر البعض ذبح الولد العاشر كما فعل عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم رجالا أن ينحر أحدهم لله عند الكعبة وفلما استكمل أولاده العددهم بإنجاز ما وعد، وكان الذبح نصيب عبد الله فحماه أخواله بنومخزوم، وأشاروا على عبد المطلب بالالتجاء إلى كاهنة بني سعد، فحكمت بالدية، وكانت مائة بعير فداء لعبد الله.ومع كراهية العرب للإناث وجدنا أن المرأة قد لعبت دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، في السلم وفي الحرب وحظيت بمكانة كبيرة في مجتمع الحجاز وكانت موضع تقدير واحترام الرجل وإعزازه ورعايته وكان الزوج كل شيء في حياة الزوجة، ترعاه وتخاف عليه من القتل، وإذا قتل ناحت عليه وحزنت أكثرمن حزنها على أقرب الناس إليها.وكانت في أيام السلم تقضي وقتها بين مساعدة زوجها في الزراعة إذا كانت تعيش في مناطق زراعية، أوفي الطهي وإعداد الطعام وحلب الأغنام، أوغزل الصوف ونسجها، وكثيرا ما كانت تحترف بعض الأعمال التي تكتسب من ورائها مالا تعتمد عليه في حياتها كالتجارة أوالرضاع أوالغناء أوتقويم الرماح أودبغ الجلود.وكانت في أيام الحرب تصحب زوجها في الغزولتشجيعه على القتال. واستثارة نخوته، أومداواة للجرحى وكانت تسقي المقاتلين وفي بعض الاحيان كانت تشترك في القتال.والجدير بالذكر أنه على الرغم من شيوع فكرة حرمان المرأة من الإرث فقد عثرنا على نصوص استنبطنا منها أن المرأة كانت ترث أحيانا،واهتدينا إلى نص فريد قد يثبت أنها ورثت نصف الذكر وربما لم تكن الوحيدة في ذلك الأمر في المجتمع العربي.

المصادر

❖ - ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم ت630 هـ)

1ـ الكامل في التاريخ – دار صادر بيروت 1399 هـ - 1979 أشير إليه في البحث (الكامل في التاريخ).

2ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة – دار إحياء التراث العربي – بيروت لبنان – أشير إليه في البحث (أسد الغابة).

❖ ـ ابن الأثير (مجد الدين أبوالسعادات المبارك بن محمد ت606 هـ)

3ـ النهاية في غريب الحديث والأثر – المطبعة الخيرية – القاهرة 1322هـوالمطبعة العثمانية بالقاهرة 1311هـأشير إليه في البحث (النهاية في غريب الحديث).

❖ ـ الأزرقي (أبوالوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت223 هـ)

4 ـ أخبار مكة – تحقيق رشدي الصالح ملحس – دار الأندلس – مدريد أسبانيا ، أشير إليه في البحث (أخبار مكة).

❖ـ الاصبهاني (أبوالفرج علي بن الحسين ت356 هـ)

5 ـ الأغاني ـ مؤسسة جمال للطباعة والنشر – بيروت – لبنان مصور عن طبعة دار الكتب أشير إليه في البحث (الأغاني).

❖ - الاصطخري (ابي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارس ت346 هـ).

6ـ مسالك الممالك معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ ابي زيد احمد بن سهل البلخي مطبعة بريل ليدن 1927 أشير إليه في البحث (اصطخري)

7ـ المسالك والممالك. تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحيني مراجعة محمد شفيق غربال 1381 ـ 1968 م الجمهورية العربية المتحدة ـ وزار ة الثقافة أشير إليه في البحث (اصطخري ط1961).

❖ - أل أصمعي (أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ت216 هـ)

8 ـ الاصمعيات تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون – دار المعارف بمصر أشير إليه في البحث (الاصمعيات).

❖ - ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس ت7 ه)

9ـ شرح وتعليق محمد حسين – مكتبة الآداب بالجماميز – المطبعة النموذجية أشير إليه في البحث (ديوان الأعشى الكبير).

❖ - الألباني: (محمد ناصر الدين)

10 – صحيح سنن ابن ماجة بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج توزيع المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى 1407 هـ - 1986 أشير إليه في البحث (سنن ابن ماجة).

❖- الامدي (أبوالقاسم الحسن بن بشر ت370 ه)

11 - الموءتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم مكتبة القدسي 1354هـأشير إليه في البحث (الامدي الموءتلف والمختلف).

❖- ديوان امروء القيس ت 80 ق. م

12 - تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر – طبعة ثانية 1964 م أشير إليه في البحث (ديوان امروء القيس).

❖ - الأندلسي (ابن سعيد أبوالحسن علي بن موس ت685 هـ)

13 – نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب تحقيق نصرت عبد الرحمن – الأردن – مكتبة الأقصى – الشركة المتحدة 1982 م أشير إليه في البحث (نشوة الطرب). الأنصاري: (عبد القاوس)

14 – أثار المدينة المنورة – مطبعة الترقي بدمشق 1935 م أشير إليه في البحث (أثار المدينة المنورة).

❖ - البخاري (أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ت257 هـ)

15 – صحيح البخاري – مطبعة الهندي أشير إليه في البحث (صحيح البخاري

❖ - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله ت779 هـ)

16 - رحلة ابن بطوطة – دار صادر – بيروت 1384هـ – 1964 م أشير إليه في البحث (رحلة ابن بطوطة).

❖ - البغدادي (محمد أمين ت1246 هـ)

17 – سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الطبعة الأولى 1406 هـ - 1986 م أشير إليه في البحث (سبائك)

❖ - البكري (أبي عبد الله عبد الله بن عبد العزيز ت487هـ

18 – معجم ما استعجم في أسماء البلاد والمواضع – تحقيق مصطفى السقا – كلية الآداب جامعة فوءاد الأول بالقاهرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – الطبعة الأولى 1364هـ أشير في البحث (البكري: معجم ما استعجم).

❖ - البلاذري (أبي الحسن ت277 ه).

19 – فتوح البلادان – عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان – دار الكتب العلمية – بيروت 1398هـ – 1978 م أشير إليه في البحث (فتوح البلدان).

❖ - البلاذري (أحمد بن يحيى ت 279 هـ)

20 – انساب الإشراف – تحقيق محمد حميد الله – دار المعارف بمصر أشير إليه في البحث (أنساب الأشراف).

❖ - التبريزي (أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب ت502 هـ)

21 – ديوان الحماسة – دار القلم – بيروت – لبنان، أشير إليه في البحث (التبريزي: ديوان الحماسة).

❖ - التوراة

22 - دار المشرق – المكتبة الشرقية بيروت 1986 م أشير إليه في البحث (التوراة)

❖ -الجاحظ (أبي عثمان عمروبن بحرت 255 ه)

23 – البيان والتبيين – مكتبة الخانجي بمصر تحقيق عبد السلام هارون.138هـ 1960 – طبعة ثانية أشير إليه في البحث (البيان والتبين).

24 - الحيوان: دار أحياء التراث العربي أشير إليه في البحث (الجاحظ: الحيوان).

25 – رسائل الجاحظ – تحقيق وشرح عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي بالقاهرة أشير إليه في البحث (رسائل الجاحظ).

❖ - ديوان حاتم الطائي (ت 46 ق.ه)

26 – تحقيق كرم البستاني – دار صادر – بيروت 1953 م أشير إليه في البحث (ديوان حاتم).

❖ - ابن حبيب (أبي جعفر محمد ت 245 هـ)

27 – المحبر. مكتبة المثنى بغداد 1361هـ – 1942 م _ أشير إليه في البحث (المحبر).

28 – المنمق. صححه وعلق عليه خور شيد أحمد فارق طبعة أولى، عالم الكتاب بيروت 1405هـ – 1985 أشير إليه في البحث (المنمق)

❖ - ابن حزم الأندلسي (محمد علي بن أحمد بن سعيد ت 456 هـ)

29 – جمهرة انساب العرب تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون – دار المعارف بمصر 1382هـ 1962 م أشير إليه في البحث (جمهرة أنساب العرب).

❖ - ديوان حسان بن ثابت (ت 54 هـ)

30 – وليد عرفات – دار صادر بيروت 1974 م أشير إليه في البحث (ديوان حسان بن ثابت).

❖ - الحلبي (نور الدين على بن إبراهيم ت 1044 هـ)

31 – إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون – القاهرة 1962 م أشير إليه في البحث (إنسان العيون).

❖ - الحموي (ياقوت ت 626 ه).

32 - معجم البلدان – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان 1399هـ 1979م أشير إليه في البحث (ياقوت معجم البلدان).

❖ - ابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله ت 300 هـ)

33 - المسالك والممالك – مكتبة المثنى بغداد أشير إليه في البحث (ابن خرداذبة المسالك والممالك).

❖ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت 808 هـ)

34 – العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت لبنان أشير إليه في البحث (ابن خلدون العبر).

❖ - ديوان الخنساء. (ت 24 هـ).

35 – دار الأندلس – بيروت لبنان 1389 – 1969 م، أشير إليه في البحث (ديوان الخنساء).

❖ - الخوارزمي: (محمد بن أحمد ت 387 هـ)

36 – مفاتيح العلوم – مطبعة الشرق بمصر – القاهرة 1342هـ أشير إليه في البحث (مفاتيح العلوم).

❖ - ابن دريد (أبي بكر محمد بن الحسن ت 325 هـ)

37 – الاشتقاق – تحقيق عبد السلام محمد هارون – نشر مؤسسة الخانجي بمصر مطبعة السنة المحمدية 1378هـ – 1958 م أشير إليه في البحث (ابن دريد الاشتقاق).

❖ - ابن رسته (أبي علي أحمد بن عمر)

38 – الأعلاق النفيسة طبع في مدينة ليدن 1891 أشير إليه في البحث (ابن رستة الاعلاق)

❖ - ابن رشيق (أبي علي الحسن القيرواني ت 462 هـ)

39 – العمدة في صناعة الشعر ونقده، طبعة أولى 1344هـ – 1925م – مطبعة أمين هندية بمصر أشير إليه في البحث (ابن رشيق العمدة).

❖ - الزبيدي (محمد مرتضى الحسين ت 1205 هـ)

40 – تاج العروس تحقيق عبد الستار أحمد فراج – مطبعة حكومة الكويت 1385هـ – 1965 م أشير إليه في البحث (تاج العروس).

❖ -الزبير بن بكار (عبد الله ت 256 هـ)

41 – جمهرة نسب قريش وأخبارها. تحقيق محمود محمد شاكر – طبع في مكتبة المدني بالقاهرة 1381هـ أشير إليه في البحث (ابن بكار جمهرة نسب قريش).

❖ - ابن زكريا (أبي الحسين أحمد بن فارس ت 395 هـ)

42 – معجم مقاييس اللغة – تحقيق عبد السلام محمد هارون طبعة أولى _ القاهرة 1369هـ دار أحياء الكتب العربية عيس البابي الحلبي وشركاه أشير إليه في البحث (معجم مقاييس اللغة).

❖ - ديوان زهير بن ابي سلمى (ت 13 ق. هـ)

43 – نسخة مصورة الدار القومية القاهرة 1384هـ – 1964م أشير إليه في البحث (ديوان زهير بن ابي سلمى).

❖ - السهيلي (أبي القاسم بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي ت 581 هـ).

44 - الروض الأنف – مكتبة الكليات الأزهرية طبعة منقحة أشير إليه في البحث (السهيلي الروض الأنف).

❖ - ابن سعد (أبوعبد الله محمد ت 230 هـ)

45 – الطبقات الكبرى – لجنة نشر الثقافة الإسلامية – جمعية الجهاد الإسلامي أشير إليه في البحث (طبقات ابن سعد).

❖ - السمعاني (أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت 562 هـ)

46 – الأنساب – تحقيق عبد الرحمن بن يحيى – بيروت – لبنان 1400هـ – 1980 م أشير إليه في البحث السمعاني: الأنساب).

❖ - السمهودي (نور الدين علي بن أحمد ت 911 هـ)

47 - وفاء الوفا – دار إحياء التراث العربي طبعة رابعة 1404هـ – 1984 م أشير إليه في البحث (وفاء الوفا).

❖ - ابن سلام (أبي عبد القاسم ت 224 هـ)

48 – النسب: تحقيق مريم محمد خير الدرع

– مكتب الدراسات الطلابية جامعة دمشق – قسم التاريخ 1986 – 1987 م أشير إليه في البحث (ابن سلام – النسب).

❖ - ابن شبه (أبوزيد عمر بن شبه النميري البصري ت 262 هـ)

49 – تاريخ المدينة المنورة تحقيق فهيم محمد شلتوت طبعة ثانية أشير إليه في البحث (ابن شبه).

❖ - الشنقيطي (أحمد أمين)

50 – المعلقات العشر – دار الكتاب العربي سورية حلب أشير إليه في البحث (الشنقيطي: المعلقات العشر).

❖ - الشوكاني (محمد بن علي بن محمد ت 1250 ه)

51 – نيل الاوطار – الطبعة الأخيرة – مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر أشير إليه في البحث (الشوكاني: نيل الاوطار).

❖ - الشهرستاني (أبي الفتح محمد بن عبد الكريم ت 548 هـ)

52 – الملل والنحل، الطبعة الأولى 1368هـ – 1948 م مكتبة الحسين التجارية أشير إليه في البحث (الملل والنحل).

❖ - صفوت (أحمد زكي)

53 – جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة

– دار الحداثة طبعة أولى 1985 م أشير إليه في البحث (جمهرة خطب العرب).

❖ - الضبي (المفضل بن محمد بن يعلي ت 178 ه)

54 – المفضليات – مكتبة المثنى بغداد

– مطبعة الأباء اليسوعيين بيروت 1920 م أشير إليه في البحث (المفضليات).

❖ - الطبري (أبي جعفر محمد بن جريرت 310هـ)

55 - تاريخ الرسل والملوك

– تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم – دار المعارف بمصر – الطبعة الرابعة أشير إليه في البحث (تاريخ الرسل والملوك).

56 - جامع البيان عن تأويل أي القرآن طبعة ثالثة 1373هـ – 1954 م أشير إليه في البحث (جامع البيان)

❖ - ديوان طرفة بن العبد (ت 60 ق.ه)

57 - تحقيق علي الجندي – مكتبة الانجلوالمصرية أشير إليه في البحث (ديوان طرفة بن العبد).

❖ - ابن عساكر الشافعي (أبي منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله ت 620 هـ).

58 – الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين، تحقيق محمد مطيع الحاحظ وغزوة بدير – دار الفكر الطبعة الأولى 1406هـ – 1986 م أشير إليه في البحث (الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين).

❖ - ابن عبد ربه (أحمد بن محمد ت327 هـ)

59 – العقد الفريد – تحقيق مفيد محمد قمحية – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان أشير إليه في البحث (العقد الفريد).

❖ - ديوان عروة بن الورد (ت 30 ق. هـ)

60 – حققه أشراف على طبعه ووضع فهارسه عبد المعين الملوحي – وزارة الثقافة والإرشاد القومي مديرية إحياء التراث القديم أشير إليه في البحث (ديوان عروة بن الورد).

❖ - ديوان عنترة بن شداد (ت 22 ق. هـ)

61 – دار كرم بدمشق أشير إليه في البحث (ديوان عنترة بن شداد).

❖ - الفاسي (أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي ت 775 هـ)

62 – شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام – مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة 1375هـ – 1956 م أشير إليه في البحث (شفاء الغرام).

63 - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية أشير إليه في البحث (العقد الثمين).

❖ - الفيروز ابادي (مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب ت 817 هـ)

64 - المغانم المطابة في معالم طابه تحقيق محمد الجاسر – طبعة أولى 1389هـ – 1969 م أشير إليه في البحث (الفيروز أبادي: المغانم المطابة في معالم طابة).

❖ - القالي (أبي إسماعيل بن القاسم البغدادي ت 365 هـ)

65 - الامالي – الطبعة الثالثة 1373هـ – 1954 م مطبعة السعادة بمصر أشير إليه في البحث (الامالي).

❖ - ابن قتيبة (أبومحمد عبد الله بن مسلم ت 276 ه)

66 - المعارف – طبعة دار الكتب المصرية – وطبعة المطبعة الإسلامية بمصر الأزهر 1353هـ – 1934 م أشير إليه في البحث (ابن قتيبة المعارف).

67 – الشعر والشعراء.

تحقيق أحمد محمد شاكر نشر دار المعارف بمصر 1966 م أشير إليه في البحث (ابن قتيبة الشعر والشعراء).

68 – عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة وزارة الثقافة أشير إليه في البحث (عيون الأخبار).

❖ - القرآن الكريم

69 - دار الرشيد – دمشق – بيروت

❖ - القرشي (أبي زيد محمد بن أبي الخطاب ت 172 هـ)

70 – جمهرة أشعار العرب – دار المسيرة بيروت طبعة جديدة منقحة 1398هـ 1978 م أشير إليه في البحث (جمهرة أشعار العرب).

❖ - القلقشندي (أبوالعباس أحمد بن علي ت 821 هـ).

71 – صبح الأعشى في صناعة الإنشاء نسخة مصورة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي الموءسسة المصرية العامة، أشير إليه في البحث (صبح الأعشى)

72 - قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتب الحديثة القاهرة الطبعة الأولى 1383هـ – 1963 م أشير إليه في البحث (قلائد الجمان).

❖ - ابن كثير (عماد الدين أبوالفداء إسماعيل بن عمر ت 774 هـ)

73 - البداية والنهاية. دار الفكر أشير إليه في البحث (البداية والنهاية).

74 - تفسير ابن كثير – دار الفكر – بيروت 1401هـ – 1981 م، أشير إليه في البحث (تفسير ابن كثير).

❖ - ابن الكلبي (أبوالمنذر هشام بن محمد بن السائب ت 204 ه)

75 – الأصنام ــ تحقيق أحمد زكي نسخة مصورة عن طبعة، دار الكتب 1343هـ 1924م دار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1384هـ – 1965 م أشير إليه في البحث (ابن الكلبي: الأصنام).

76 – جمهرة النسب – دار اليقظة العربية أشير إليه في البحث، (ابن الكلبي: النسب).

❖ - شرح ديوان لبيد(ت 41هـ)

77 -تحقيق إحسان عباس طبعة ثانية مطبعة حكومة الكويت 1984 م أشير إليه في البحث (شرح ديوان لبيد).

❖ - مالك بن أنس الاصبحي (أبي عبد الله ت 179 هـ)

78 - موطأ الإمام مالك. دار البحار بيروت طبعة أولى 1986 م أشير إليه في البحث (موطأ الإمام مالك).

❖ - المبرد: آبوالعباس محمد بن يزيد ت 285 هـ)

79 – الكامل في اللغة والأدب نشر مؤسسة المعارف بيروت أشير إليه في البحث (المبرد: الكامل)

❖ - المرزباني (أبي عبيد الله محمد بن عمران 378 هـ)

80 – معجم الشعراء – مكتبة القدسي 1354هـ أشير إليه في البحث (المرزباني معج الشعراء).

❖ - المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين علي ت 346 هـ)

81 - مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الأندلس بيروت لبنان طبعة سادسة 1404هـ – 1984 م أشير إليه في البحث (مروج الذهب).

❖ - المصعب الزبيري (عبد الله ت 236 هـ)

82 - نسب قريش. نشر ليفي بروفنسال. دار المعارف أشير إليه في البحث (المصعب الزبيري نسب قريش)

❖ - المقدسي (شمس الدين أبوعبد الله محمد ت 390 هـ)

83 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مكتبة خياط بيروت لبنان أشير إليه في البحث (مقدسي).

❖ - ان منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت 711 هـ)

84 - لسان العرب – دار صادر بيروت أشير إليه في البحث (لسان العرب

❖ - الميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ت 518 هـ)

85 - مجمع الأمثال تحقيق محمد محي الدين عبد الحمد أشير إليه في البحث (الميداني: مجمع الأمثال).

❖ - ديوان النابغة الجعدي (قيس بن عبد الله ت 50 هـ)

86 - دار صادر بيروت. أشير إليه في البحث (ديوان النابغة الجعدي)

❖ - ديوان النابغة الذبياني (زياد بن معاوية ت 18 ق.ه)

87 – دار صادر بيروت 1383هـ – 1963 أشير إليه في البحث (ديوان النابغة الذبياني)

❖ - ابن النجار (محمد بن محمود ت 647 هـ)

88 - الدرة الثمينة في أخبار المدينة، حقق أصوله وعلق عليه كبار العلماء والأدباء نشر وتوزيع مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة أشير إليه في البحث (النجار: الدرة الثمينة).

❖ - النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت 732 هـ)

89 - نهاية الأرب في فنون الأدب – وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة أشير إليه في البحث (نهاية الأرب).

❖ - النيسابوري (أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ت 261 هـ)

90 - صحيح مسلم 1374هـ –1955 م أشير إليه في البحث (صحيح مسلم)

❖ - الواقدي (محمد بن عمر بن واقد ت 207 هـ)

91 - المغازي – تحقيق مارسون جونس – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان أشير إليه في البحث (مغازي الواقدي).

❖ - ابن هشام (أبومحمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ت 218هـ

92 - السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وغيره أشير إليه في البحث (ابن هشام: السيرة).

❖ - الهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب ت 334 هـ)

93 – صفة جزيرة العرب – دار اليمامة 1974 م أشير إليه في البحث (الصفة)

94 - الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، الدار اليمنية للنشر والتوزيع – بيروت – لبنان أشير إليه في البحث (الإكليل).

❖ - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي ت 292 هـ)

95 - تاريخ اليعقوبي – أشير إليه في البحث (اليعقوبي – تاريخ).

المراجع

❖ - الأفغاني (سعيد)

1ـ أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، الطبعة الثالثة 1394هـ – 1974 م أشير إليه في البحث (أسواق).

❖ - الالوسي (محمود شكري)

2ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. المطبعة الرحمانية بمصر.طبعة ثانية 1442هـ – 1924 م أشير إليه في البحث (آلوسي)

❖ - أمين (أحمد)

3ـ فجر الإسلام – مكتبة النهضة المصرية – الطبعة التاسعة 1964 م أشير إليه في البحث (أحمد أمين فجر الإسلام)

❖ - بخيت (عبد الحميد)

4ـ ظهور الإسلام – وسيادة مبادئه. مكتبة الانجلوالعصرية أشير إليه في البحث (ظهور الإسلام).

❖ - برو(توفيق)

5ـ تاريخ العرب القديم – دار الفكر – الطبعة الأولى 1404هـ – 1984 م أشير إليه في البحث (برو)

❖ - بلاشير. د. ر

6 - تاريخ الأدب العربي ترجمة إبراهيم الكيلاني. دار الفكر بدمشق الطبعة الثانية 1404هـ – 1984 م أشير إليه في البحث (بلاشير تاريخ الأدب).

❖ - بلياييف ي.ام

العرب والخلافة العربية في القرون الوسطى ترجمة أنيس فريحة – الدار المتحدة للنشر. بيروت 1973 م أشير إليه في البحث (العرب والخلافة العربية).

❖ - البواب (سليما ن سليم)

مئة أوائل من النساء – دار الحكمة طبعة ثانية 1407 ه - 1986 م أشير إليه في البحث (مئة أوائل من النساء).

❖ - بيضون (إبراهيم)

9 -الحجاز والدولة الإسلامية ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت لبنان. الطبعة الأولى 1403هـ –1983 م أشير إليه في البحث (بيضون).

❖ - الترمانيني (عبد السلام)

10 - الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام 1404هـ – 1984 م أشير إليه في البحث (ترمانيني: الزواج عند العرب)

❖ - توني (يوسف)

11 - معجم المصطلحات الجغرافية – دار الفكر العربي 1964 م أشير إليه في البحث (توني).

❖ - جاد المولى (محمد أحمد)

12 - أيام العرب – دار أحياء التراث العربي، أشير إليه في البحث (جاد المولى أيام العرب).

❖ - جمالي (جاحظ).

13 - علم الاجتماع مطبعة الجامعة السورية 1373هـ 1954 م أشير إليه في البحث (جمالي).

❖ - جمعة (محمد محمود).

14 - النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية مطبعة السعادة بالقاهرة 1949 م أشير إليه في البحث (جمعة)

❖ - الجندي (علي)

15 - في تاريخ الأدب الجاهلي – مكتبة الشباب. أشير إليه في البحث، (الجندي: في تاريخ الأدب).

❖ - حتي (فيليب)

16 - تاريخ العرب – دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة السابعة أشير إليه في البحث (حتي).

❖ - حداد (نقولا)

17 - حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها – عني بنشرة الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر أشير إليه في البحث (حداد).

❖ - حسن (حسن إبراهيم)

18 – تاريخ الإسلام السياسي – الطبعة الأولى – مطبعة حجازي بالقاهرة 1353ه 1935 م أشير إليه في البحث (حسن: تاريخ الإسلام السياسي).

19 - النظم الإسلامية – الطبعة الأولى – مكتبة النهضة المصرية 1358هـ 1939 م أشير إليه في البحث (النظم الإسلامية)

❖ - حسن (حسين الحاج)

20 – حضارة العرب في عصر الجاهلية – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى 1405هـ – 1984 م أشير إليه في البحث (حسن: حضارة).

❖ - حسن (محمد)

21 - الهجاء والهجاؤن – بيروت 1960 م أشير إليه في البحث (الهجاء والهجاؤن).

❖ - الحوت (محمود سليم)

22 - في طريق المثيولوجيا عند العرب – طبعة ثالثة – دار النهار للنشر بيروت 1983 م أشير إليه في البحث (الحوت: المثيولوجيا)

❖ - الحوفي (أحمد محمد)

23 - الحياة العربية من الشعر الجاهلي – مكتبة دار القلم – بيروت لبنان أشير إليه في البحث (الحوفي: الحياة العربية).

24 - المرأة في الشعر العربي – الطبعة الثانية معدلة ومزيدة – دار الفكر العربي أشير إليه في البحث (الحوفي: المرأة)

❖ - خان (محمد عبد المعين)

25 – الأساطير والخرافات عند العرب – دار الحداثة – الطبعة الثالثة 1981 م بيروت – لبنان أشير إليه في البحث (الأساطير والخرافات)

❖ - **الخشروم (عبد الرزاق)**

26 - الغربة في الشعر الجاهلي – منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1982م أشير إليه في البحث (خشروم: الغربة)

❖ - خطراوي (محمد العيد)

27 - شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج – دار القلم دمشق بيروت – الطبعة الأولى 1400هـ – 1980 م أشير إليه في البحث (خطراوي: شعر الحرب).

❖ - خليل (أحمد خليل)

28 - مضمون الأسطورة في الفكر العربي ـ دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت طبعة أولى حزيران 1973 م أشير إليه في البحث (مضمون الأسطورة في الفكر العربي).

❖ - داوود (جرجس)

29 – أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي طبعة أولى 1402هـ – 1981 م، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع أشير إليه في البحث (جرجس: أديان)

❖ - دائرة المعارف الإسلامية

30 - نقلها إلى العربية أحد الشنتاوي – إبراهيم زكي خور شيد عبد الحميد يونس راجعها من قبل وزارة المعارف د. محمد مهدي علام 1933 م أشير إليها في البحث (دائرة المعارف الإسلامية).

❖ - دروزة (محمد عزة)

31 - عصر النبي وبيئته قبل البعثة – طبعة ثانية منقحة – دار اليقظة العربية – بيروت 1384هـ – 1964 م أشير إليه في البحث (دروزة عصر النبي).

32 – المرأة في القرآن والسنة – طبعة مزيدة ومنقحة – دار الجليل – طبعة ثانية دمشق 1985 م أشير إليه في البحث (دروزة: المرأة)

❖ - دلو(برهان الدين)

33 - جزيرة العرب قبل الإسلام – دار الفارابي – بيروت – لبنان 1989 م أشير إليه في البحث (دلو)

❖ - الرافعي (مصطفى صادق)

34 – تاريخ آداب العرب – مطبعة الأخبار بمصر 1329هـ – 1911 م أشير إليه في البحث (الرافعي – تاريخ آداب العرب).

❖ رضا(فؤاد علي)

35 - أم القرى – مؤسسة المعارف بيروت طبعة ثالثة 1401هـ – 1981 م، أشير اليه في البحث (أم القرى).

❖ رفاعي (أنور)

36 – الاسلام في حضارته ونظمه 1393هـ – 1973 أشير اليه في البحث، (رفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه).

❖ زر كلي (خير الدين)

37 – الأعلام – طبعة ثانية أشير اليه في البحث (الزركلي: الإعلام)

❖ - زيدان (جرجي)

38 – العرب قبل الاسلام – دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان، أشير اليه في البحث (جرجي: العرب قبل الاسلام).

39 – تاريخ التمدن الإسلامي ـ دار الهلال ـ أشير اليه في البحث (تاريخ التمدن الإسلامي).

❖ - أبوزهرة (محمد)

40 – عقد الزواج جامعة الدول العربية – معهد الدراسات العربية العالمية 1958 م، أشير اليه في البحث (أبوزهرة: عقد الزواج).

❖ - سالم (عبد العزيز)

41 - تاريخ العرب في عصر الجاهلية – دار النهضة العربية –بيروت 1971 م أشير اليه في البحث (سالم).

❖ - شريف (أحمد ابر أهيم)

42 – مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول دار الفكر العربي أشير اليه في البحث (شريف).

❖ - شلبي (رؤوف)

43 – المجتمع العربي قبل الاسلام – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت أشير اليه في البحث (شلبي: المجتمع العربي قبل الاسلام)

❖ - صباغ (ليلى)

44 – المرأة في التاريخ العربي – منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1975 م أشير اليه في البحث (صباغ: المرأة).

❖ - الصمد (واضح)

45 – الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي. طبعة أولى – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت – لبنان 1402هـ – 1981 م أشير اليه في البحث (الصمد: الصناعات والحرف)

❖ - ضيف (شوقي)

46 – العصر الجاهلي – دار المعارف بمصر أشير اليه في البحث (شوقي: العصر الجاهلي).

❖ - عاقل (نبيه)

47 - تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي 1979 م – 1980 م أشير اليه في البحث (عاقل: تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي)

❖ عبد الحميد (سعد زغلول)

48 - في تاريخ العرب قبل الاسلام – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان 1976م أشير اليه في البحث (سعد: في تاريخ العرب قبل الاسلام).

❖ - عفيفي (عبد الله)

49 - المرأة العربية في جاهليتها واسلامها، طبعة ثانية 1350هـ – 1932م مطبعة دار المعارف بمصر أشير اليه في البحث (عفيفي: المرأة في جاهليتها واسلامها).

❖ - عوض الله (أحمد أبوالفضل)

50 -مكة في عصر ماقبل الاسلام. طبعة ثانية 1401هـ – 1981 م مطبوعات دار الملك عبد العزيز أشير اليه في البحث (عوض الله: مكة)

❖ - علي(جواد)

51 - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار العلم للملايين – بيروت مكتبة النهضة بغداد 1976م – الطبعة الثانية أشير اليه في البحث علي: المفصل).

52ـ العرب قبل الإسلام – مطبوعات المجمع العلمي العراقي 1375هـ – 1956 م أشير اليه في البحث (جواد تاريخ العرب قبل الاسلام).

❖ - العلي (صالح احمد)

53– محاضرات في تاريخ العرب طبعة ثالثة – مطبعة الإرشاد – بغداد 1964 أشير اليه في البحث (محاضرات في تاريخ العرب)

❖ـ غنيم (عبد الله يوسف)

54– أقاليم الجزيرة العربية – جامعة الكويت 1401هـ – 1981 م، أشير اليه في البحث (أقاليم).

❖ - فروخ (عمر)

55– تاريخ الجاهلية – دار العلم للملايين بيروت – طبعة ثانية 1984 م،أشير اليه في البحث (فروخ: تاريخ الجاهلية).

❖ - قبلان (هشام)

56 - آداب الزواج في الاسلام – منشورات بحر المتوسط – بيروت – باريس منشورات عويدات بيروت طبعة أولى 1983 م أشير اليه في البحث (قبلان – آداب الزواج).

❖ - كحالة (عمر رضا)

57– معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. المكتبة الهاشمية بدمشق 1368هـ – 1949م أشير اليه في البحث،(كحالة: معجم قبائل العرب).

58 – أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. المطبعة الهاشمية بدمشق 1359هـ 1940 م أشير اليه في البحث (كحالة أعلام النساء)

❖ - مروة (حسين)

59ـ النزعات المادية في الفلسفة العربية دار الفارابي بيروت 1978 م – 1979 م أشير إليه في البحث (النزعات المادية)

❖ـ معجم العلوم الاجتماعية

60ـ إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975 م أشير إليه في البحث (معجم العلوم الاجتماعية).

❖ - النويهي (محمد)

61 - الشعر الجاهلي. الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة – أشير إليه في البحث (الشعر الجاهلي).

❖ - وافي (علي عبد الواحد)

62 - الأسرة والمجتمع. دار أحياء الكتب العربية، طبعة ثانية 1367هـ – 1948 م أشير إليه في البحث (وافي)

❖ - وهبة (حافظ)

63 - جزيرة العرب في القرن العشرين طبعة ثالثة. القاهرة 1375 هـ 1956 أشير إليه في البحث (وهبة جزيرة).

❖ - ويلكن.ج.أ.

64 - الأموية عند العرب – نقلها عن الألمانية بندلي صليبا الجوزي قازان 1902 م أشير إليه في البحث (ويلكن: الأموية عند العرب)

❖ - يحيى (لطفي عبد الوهاب)

65 - العرب في العصور القديمة – دار النهضة العربية – بيروت – طبعة ثانية 1979 م أشير إليه في البحث (يحيى: العرب في العصور القديمة).

❖ - اليسوعي (لويس شيخو)

66 - شعراء النصرانية قبل الإسلام – طبعة ثانية – دار المشرق – بيروت أشير إليه في البحث (شعراء النصرانية).

ملحق

❖ـ مناصب القرشيين

السدانة: وهي الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها يفتح بابها للناس ويقفله، ولها المقام الأول عندهم.

السقاية: و صاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلة الماء في مكة فينشئ حياضا من الجلد، توضع في فناء الكعبة تنقل إليها المياه العذبة من الآبار على الإبل في المزا ود والقرب. ومازال ذلك شأنهم حتى حفرت زمزم وكانت السقاية في بني هاشم.

الرفادة: وهي خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاما يأكله الفقراء، وأول من أشار بالرفادة قصي بن كلاب، وكانت الرفادة في بني نوفل ثم في بني هاشم.

الراية: كانت لقريش راية تسمى (العقاب) فكانوا إذا أرادوا الحرب أخرجوها. فإذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه إياها وإلا فإنهم يسلمونها إلى صاحبها وكانت الراية لبني عبد الدار.

القيادة: وهي إمارة الركب. وصاحبها يسير أمام الركب في خروجهم للقتال أوالتجارة. وكانت القيادة في بني أمية وصاحبها منهم في أول الإسلام.

الأشناق: وهي الديات والمغرم. وصاحبها إذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه فيه. وكانت لتيم.

القبة: هي قبة كانوا إذا خرجوا إلى حرب ضربوها وجمعوا فيها ما يجهزون الجيش به، أشبه بما يسمى عندنا بالمهمات الحربية.

الأعنّة: وهي أعنة الخيل وصاحب هذا المنصب يتولى خيل قريش ويدير شؤونها في الحرب.

المشورة: وصاحبها يستشار في الأمور الهامة. وكانت في بني أسد. فلم تكن قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه.

الندوة: وهي دار بناها قصي بجانب الكعبة للشورى فيجتمع فيها كبار قريش للمشاورة. ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين من عمره.

وكان لا يتزوج رجل ولا امرأة إلا في تلك الدار ولا يعقد لواء لحرب إلا فيها ولا تدرع جارية من قريش إلا فيها فيشق صاحب الدار درعها ويدرعها بيده. وكانوا يفعلون ذلك في بناتهم إذا بلغن سن الحلم. وكانت دار الندوة في أيدي بني عبد الدار.

السفارة: وهي أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيرا وإن نافر هم حي لمفاخرة جعلوا السفير منافرا ورضوا به، وكان آخر سفراء قريش في الجاهلية عمر بن الخطاب قبل أن يسلم.

الإيسار: وهي الأزلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة ونحوها إذا هموا بأمر عام من سفر أوقتال فكانوا يستقسمون بالازلام بما يشبه سحب القرعة عندنا، وكان يتولى ذلك رجل من بني جمح.

الحكومة: وهي عندهم الفصل بين الناس إذا اختلفوا وتشبه القضاء في الإسلام أوالتحكيم.

الأموال المحجّرة: وهي أموال كانوا يسمونها لا لهتهم وفيها النقد والحلي وربما أشبهت بيت المال. وكانت ولا يتها في بني سهم.

الفهرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث:

الفصل الرابع

الفصل الخامس